

وليد فكري

دم الخلفاء

النهايات الدامية لخلفاء المسلمين



الرواق للنشر والتوزيع

دَمُ الْخُلَفَاءِ

النهايات الدامية لخلفاء المسلمين

وليد فكري

إهداء

إلى كل من يرى عقله أكرم عنده من أن يقال له «هكذا قال السابقون فلا تسأل!» فيوافق.
وإلى كل قارئ لن يتوقف عند هذا الكتاب، وسيدفعه فضوله للبحث في المراجع المذكورة في آخره، ليكوّن بنفسه قناعاته حتى وإن اختلفت مع تلك التي لكاتب هذه الصفحات.

وليد فكري

مُبتدأ

المدينة (يثر ب سابقاً) - يونيو ٦٣٢م

صب الماء على الجسد المسجى دون أن يُترع عنه ثوبه إكراماً للراحل العظيم أن تبدو بعض عورته. شرد هنيهة فمد رفيقه يده يتناول منه الإناء قائلاً: «حسبك يا علي!»

رفع عينيه إلى محدثه الذي تلفت جانباً حذر كسر جلال الموقف، ثم جذبه من يده ليجلسه إلى جواره، بقي ينظر لابن أخيه في صمت ثم مد يده إليه بالمصافحة.

رفع علي نظرة تساؤل إلى عمه العباس الذي قال بصوت متهدج ونبرة حال الحزن دون خروجها صارمة كما أراد «امدد يدك أبياعك. فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ولا يختلف عليك أحد».

- «أوتذهب إلى غيري؟» سأل علي دون أن يحرك ساكناً. والعم الذي يعرف عناد ابن أخيه أعاد يده إلى جواره وقام يستكمل تجهيز الجثمان الجليل قائلاً «مستري».



بلغوا سقيفة بني ساعدة مرولة فتوقف الرجال الثلاثة لاستجماع أنفاسهم. نظر أطولهم قائمة لأكبرهم سنًا والذي لم تنقص ضالكة بينته من وقاره ولا حجب شحوب وجهه صرامته. لمع في عيني صاحبه لمعة دموي تحاول كسر قيود من تصميم أطلت من نظرات رفيق كفاح الرسول الراحل. هم صاحب البنية الفارحة أن يتقدم فيفسح المجال لصاحبه، إلا أن هذا الأخير تقدم بثقة فاقترح بحضوره لفظ القوم وجداهم الحاد. ألقى السلام فصمتوا وقد استقبله انتباههم. حاول بعضهم أن يفسح له مكانًا في مركز الجمع فاستوقفه شاكرًا وجلس حيث انتهى به المجلس. أصنى إلى خطيب الأنصار يطلب خلافة الرسول محمد لسيد الخزرج سعد بن عبادة الجالس ملتفًا بغطاء لمرضه. المتأمل في وجوه المجتمعين يدرك بسهولة أن أبناء قبيلة الأوس ليسوا على رضا من ترشيح زعيم الخزرج خليفة للمسلمين.

انتهى خطيب القوم من حديثه فالتفتت الوجوه تلقائيًا إلى المهيب وصاحبيه. أراد الطويل - عمر بن الخطاب - أن يقوم فيمهد له بالقول، لكن نظرة من صاحبه الوقور - أبي بكر - أثنته عن ذلك، فاكتمى أن منحه ورفيقه - أبا عبيدة بن الجراح - نظرة مطمئنة ردها بابتسامة شاحبة ثم اتخذ مقام الخطابة. بدأ بأن أثنى على الله ورسوله. كادت دموعه أن تقهر أغلاها عند ذكر رفيقه وحبيه الراحل، فصمت لثوان كي يلجم حزنه. رفع رأسه إلى القوم مجددًا وأردف: «أما بعد.»



مال عمر على صاحبه هامسًا «كنت قد أعددت ما أقول للقوم في شأن أبي بكر، فوالله ما كنت أنوي أن أقول شيئًا إلا قاله». ابتسم أبو عبيدة وهو يجيل البصر في أهل المدينة المحتشدين لمبايعة «خليفة رسول الله» وتتمم دون أن يحول نظره «إنه أبو بكر».



ما كاد الشقاق يطل برأسه بين المسلمين يوم وفاة رسولهم إلا أغلق الباب دونه. حتى علي بن أبي طالب الذي كان يتوقع - ويرجو - لنفسه خلافة ابن عمه وأبيه الروحي، لم يطل التأخر عن إعطاء بيعته للخليفة. في ذلك الاجتماع الذي انتهى بمبايعة أبي بكر بن أبي قحافة حاكمًا على الدولة الإسلامية الناشئة تحت مسمى «الخليفة»، لم يكن أصحاب الرسول محمد بن عبد الله قد ابتدعوا نظامًا غريبًا عن فكرهم في الحكم والسياسة. فمسألة أن يخلف النبي في قومه أحد أقرب أصحابه كانت معروفة لهم مسبقًا من القصص الديني، فموسى خلفه فتاه وتلميذه يوشع بن نون في قيادة اليهود، فيما قبل عهد الحكام القضاة ثم الملوك، وعيسى خلفه في القيادة الروحية تلاميذه «الحواريون» وعلى رأسهم بطرس، فيما قبل نظام البابوات والبطاركة.

فقط جمل المسلمون الأوائل - ومن جاءوا من بعدهم من المتخصصين في فقه موضوعات السياسة والحكم - لهذا النظام إطارًا واضحًا، وحددوا التعريفات والشروط الواجب توافرها في المرشح له، والصلاحيات المحددة لشاغله.

من حيث المهام فإن لعمل الخليفة شقين: الأول دنيوي يتمثل في الإدارة العليا والرقابة على مؤسسات الدولة، ووضع سياساتها العامة والتحدث باسمها مع الدول الأخرى، وتولي القيادة العامة للجيش دفاعًا عنها. والشق الآخر ديني يتمثل في الحفاظ على تطبيق الشريعة الإسلامية في الأمور العامة والخاصة، وإقامة الشعائر والعبادات.

ولا يعني وجود شق ديني في منصب الخليفة أنه حاكم «ثيوقراطي» - أي يحكم حكمًا دينيًا معصومًا بنظرية الحق الإلهي في الحكم - فإن هذا الشق الديني من «التعريب الوظيفي» للمنصب إنما هو «تكليف» وليس «تشريف». والخليفة يمارس عمله تحت رقابة «الرعية» ويخضع لنفس القوانين التي يطبقها، وهو ملتزم بشروط ترشيحه لموقعه طوال شغله له.

وهو ما يعبر عنه قول الخليفة الأول أبي بكر في خطاب توليه «إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني». (طبعاً أنا هنا أتحدث عن «ما كان يجب أن يكون» وليس عما كان بالفعل فيما بعد الخلفاء الأوائل المؤسسين لهذا النظام). باستثناء نظرة الفاطميين الشيعة للخليفة/الإمام أنه معصوم عن الخطأ والمساءلة.

وقد اختلف في شأن وصف الخليفة بـ«خليفة الله» فقال أغلب من تحدثوا في تلك المسألة بأن الخلافة هي لـ«رسول الله» وليست لله، فالخلافة تكون لغائب أو متوفى، والإله لا يغيب ولا يموت. وقد كان يقال لأبي بكر بن أبي قحافة - أول الخلفاء - «يا خليفة رسول الله»، فلما خلفه عمر بن الخطاب ونودي بـ«يا خليفة خليفة رسول الله» قال «هذا أمر يطول» فناداه البعض بـ«أمير المؤمنين» فصارت لقباً للخلفاء بعد ذلك. وجدير بالذكر أنه لقب «جهادي» الطبيعة لأن مصطلح «الأمير» كان يُستخدم لمخاطبة قائد الجند.

وللترشح للخلافة شروط عامة وأخرى خاصة، العام منها بدعي كالکفاءة، حسن السيرة، السلامة البدنية والعقلية، الالتزام السلوكي والديني.

أما الخاص منها فأربعة شروط هي:

١ - البيعة: وهي أن يتولى الخليفة منصبه من خلال البيعة الحرة التي لا يشوبها تدليس ولا إكراه. وقد اختلف في ما إذا كانت هذه البيعة تؤخذ من عموم الشعب أو من ممثليهم، أو أنها تقتصر على «أهل الحل والعقد»، وهم الفئة المكوّنة لدائرة الحكم وصناعة القرار.

٢ - العمل بالشورى: أي العمل بالاستشارة في القرارات الهامة تنفيذاً للأمر القرآني «وشاورهم في الأمر»، واختلف كذلك في ما إذا كانت الشورى عامة، أم في حدود أهل الحل والعقد سالفني الذكر، وفي ما إذا

كان مجرد طلب الرأي والاستماع إليه كافيًا، أم أن على الخليفة العمل برأي الأغلبية.

٣ - الحكم بالعدل: وهو عند منظري السياسة الإسلامية مرتبط بالفرس في التفرقة بين «الخليفة» الذي يحكم من منطلق «مصلحة الأمة» و«الملك» الذي يحكم من منطلق التغلب والسيطرة، حتى وإن كان هذا الملك يستخدم لقب الخلافة.

٤ - قرشية النسب: وهو أكثر تلك الشروط إثارة للجدل، إذ اعتبره البعض شرطًا دائمًا غير قابل للإسقاط بحكم القولين المتساويين للرسول محمد «الأئمة من قريش» و«قَدَّمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقَدَّمُواهَا»، بينما اعتبره البعض الآخر شرطًا مؤقتًا مرتبط بحدث معين، هو احتياج مؤسسة الخلافة في بدايات الدولة للعصية القبلية المتمثلة أقوى مظاهرها - آنذاك - في قريش، وهو ما عبر عنه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بقولهم لمن طالبوا بخليفة من الأنصار «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»، وما دعم موقف أصحاب هذا الرأي هو تدهور سلطة الخلافة في مواجهة العناصر غير القرشية - بل وغير العربية - فيما بعد العصر العباسي الأول (بعد وفاة الخليفة العباسي المعتصم بالله). ومن ناحية أخرى فقد تشدد الشيعة الإمامية في شأن النسب، فلم يكتفوا منه بالقرشية، بل اشترطوا أن يكون الخليفة من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة الرسول محمد.



هكذا. في العام ٦٣٢م، وُلِدَ نظام الخلافة، واستمر حتى سقوط الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٥١٧ على يد العثمانيين الذين أعادوا إحياء الخلافة سنة ١٨٧٦م على يد السلطان عبد الحميد الثاني، حتى أعلن الزعيم السياسي التركي مصطفى كمال أتاتورك إسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م،

ولم يحاول أي نظام حاكم بعدها أن يعلن قيامه بها بعد ذلك، باستثناء قيام تنظيم «داعش» الإرهابي في ٢٩ يونيو ٢٠١٤ بإعلان قيام الدولة الإسلامية في العراق والشام، وتنصيب أبي بكر البغدادي خليفة لها، وهو ما لا يمكن اعتباره «نظامًا حاكمًا» بالمعنى المعترف به دوليًا.

أكثر من مئة حاكم، على رأس نحو خمس دول، في ٩ عواصم مختلفة، اشتركوا في حمل لقب «أمير المؤمنين»، واختلفوا في نهاية عهد كل منهم، فبينما انقضت عهود معظمهم ب وفاة الخليفة في فراشه بسلام، كان غيرهم قد انتهى حكمه نهاية دامية فقد فيها حياته.

فمن تلك النهايات الدامية لهؤلاء الخلفاء، نتحدث..

وليد فكري



مُدخل راشدي

بتولي أبو بكر بن أبي قحافة المعروف بـ«الصدّيق» الخلافة سنة ٦٣٢م يبدأ عصر دولة الخلفاء الراشدين الممتد طوال عهده وعهود خلفائه على التوالي عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، ويضيف لهم البعض - وهو ما أرجحه - العهد شديد القصر للحسن بن علي بن أبي طالب، حتى تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، مؤسس دولة بني أمية الذين حاز أحدهم - عمر بن عبدالعزيز - وصفاً شرفياً بـ«خامس الخلفاء الراشدين» (وإن كان حساب الحسن بن علي ضمن الخلفاء الراشدين يعني أنه الخامس، وعمر بن عبدالعزيز السادس).

حظيت هذه الفترة باحتفاء المؤرخين المسلمين، أولاً لأن خلفاءها كانوا من صفوة صحابة الرسول محمد والسابقين للإيمان برسالته، إضافة للحسن حفيده وسبطه، ثانياً لتصنيفهم - على حد ما نسب عن الرسول محمد - من المبشرين بالجنة سواء ضمن فئة «العشرة» (أبو بكر، عمر، عثمان، علي، أبو عبيدة بن الجراح، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد)، أو في بشارة أخرى تقول إن الحسن وأخاه الحسين هما سيدا شباب أهل الجنة.

كذلك فإن الأحاديث المنسوبة للنبي محمد تضمنت نبوءات مسبقة من جانبه عن الخلافة ومدتها (ثلاثون عاماً تتم بالأشهر الستة بين اغتيال علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن عنها) ونحوها إلى «مُلْك عضوض» ثم

اضمحلال أمرها فاتبعائها من جديد مل ومن بينها ما تناول قيام دولتي
بني أمية وبني العباس.

إذن فين العامين ٦٣٢م و٦٦١م كانت الدولة الأولى من دول الخلافة
الإسلامية، والتي تعتبر طور التأسيس الأول للدولة على مستوى كل من
منظومة الحكم واتساع الرقعة.



أبو بكر بن أبي خنافة هل اغتيل أول الخلفاء؟

- المدينة - أغسطس ٦٣٤ م

مرت بضعة أيام ولم يخرج الخليفة فيها للصلاة مستيًّا عنه عمر بن الخطاب في إمامة المصلين. لم يره الناس يطوف بشوارع المدينة أو يحط على لمنبر، أو يتوجه إلى دار تلك المرأة التي التزم أن يحلبها الشاة حتى بعد توبه الخلافة، ما شاع أنه قد اعتل في يوم بارد فأصيب بالحُمى التي ألزمته الهراش (يوم بارد في أغسطس ١٤).

حول الدار البسيطة يتجمع الصحناء تقرب بعض الرؤوس من بعضها وتقر الأرواء همهمات التساؤل المشفق عما ستشعروا من احتصار أول خلفاء أخيراً يتفصل رجل عن الجمع. يترك الباب مستنداً في الدخول يدلّ إلى داخلها بعد أن يوجه لرفاقه نظرة مُطمئنة.

«أخبرني عن عمر بن الخطاب»

وهو الصوت أحدث غصة بحلق عبد الرحمن بن عوف، الذي أترك متحاشياً أن تلتقي عيناه بعيني محدثه، كيلا تعضج ألم نفسه، لإدراكه أنها ربما المرة الأخيرة التي يتحدثن فيها في هذا العالم.

- «ما سألتني عن أمر إلا كنت أعلم به مي»

ألح أبو بكر «وإن كانا»

- «هو والله أفصل من رأيك فيه»

استرحى أبو بكر في فراشه منهذا بارتياح ثم قال «أدخِل عليّ عثمان»

لم تمص لحظات إلا كان منفردًا بعثمان بن عفان ملقيًا عليه نفس السؤال، فأجابه «اللهم علمي به أن سريره خير من علايته، وأن ليس فينا مثله»



رغم اشتداد وجع جسده - الضعيف أصلاً - بقي الخليفة يطلب كبار الصحابة أفرادًا ومجموعات يسألهم عن عمر بن الخطاب، وهو يتحمل على وجه المترايد وآلامه المتصاعدة. أخيرًا انتهى من اجتماعاته فأسبل جفنيه مسليًا نفسه لبعض النوم، إلا أن بعض الصحابة ألحوا في الدخول عليه فأذن لهم. جلسوا وهم يتبادلون نظرات التردد، أخيرًا استجمع أحدهم جرأته، وقال مدفعًا كمن يلقي حملًا ثقيلاً عن عاتقيه «ماذا تقول لربك إذا لقيتَه وقد استخلعت علينا عمر؟!»

قد شاع إذن سؤاله المتكرر عن ابن الخطاب، وأزعج بعض المشفقين مما عُرِفَ عن شدته. لم تبد على ملامح الشيخ دهشة من السؤال، أشار لمن حصر من أهل بيته «أقعدوني». اعتدل من رقدته مستندًا على يد امتدت إليه ثم التفت لمحدثه بحياءٍ بصرامة «أنا لله تخوفني؟! أقول له استخلفت على أهلك خيرهم!»

ساد الصمت قليلاً، أرسل أبو بكر دفقة من آخر قوته في نظرة مُلئت
تصميماً وزعها على جلسائه. أخيراً عاد يُرقد ظهره على الفراش قائلاً
«وأخيراً وراءك قولي هذا!»



لمرض قد يعترس جسد الرجل القوي، لكن هيهات أن يقدر على
مصارعة الروح الصلبة يصم الشيخ أدنه عمن يرجوه أن يرحم جسده
الهريل مما يبدل من جهد يراحم مرضه على الفئك به. يلح بعضهم عليه «لو
رأيت الطبيب» يجيبه «قد رأيته» يرداد إلخاخاً «وماذا قال لك؟» فيرد مهياً
النفاش «إني فعلاً لما أريد».

يستدعي عثمان بن عفان ليملي عليه عهده باستحلاف عمر بن الخطاب،
يشتد على نفسه فيُعشى عليه أثناء إملائه العهد قل أن يذكر اسمه خلفه،
يحولون إفاقته يسما يسرع عثمان بالكتابة «إني استخلفت عليكم من بعدي
عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا» أخيراً يفيق أبو بكر فيتنفس عثمان
الصعداء ويحاول الرقعة. يقرأها ويرفع عينيه إلى صديقه ممتناً أن قد ألهمته
سرعة بديته استكمال العهد على ما أراد، حشية أن تخرج روحه في غشيته
فيقع الساس في العوضى ولأنه عنيد في الاشتداد على نفسه فقد أمر من معه
بإبعائه على القيام من فراشه والإشراف على الناس من نافذة داره. يحاول
أهله عثماناً إثناءه عن تجشم المشقة فلا يرداد إلا إصراراً. يجيب إلخاخهم
باشتداده في الخطو نحو النافذة حتى يكاد يجذب هو من يستند إليهم. هذه
خطوة أخيرة لحسم جدل استخلافه عمر. هكذا يفكر

احتشد أهل المدينة عند النافذة مترفين قول خليفتهم استجمع هذا
الأخير قواه راقعاً يده المرتعشة بالعهد قائلاً بصوت اجتهد في علوه ليبلغ
الجمع «إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟!»

يجيبه وحل قصير أصلع متين البنيان هائماً «لا رصاء إلا إن كان لعمر»
 إن كانت الغشاوة المتصاعدة على باظره قد حجبت عنه صاحب
 الهتاف، فإن أذنيه ميزتا صوت علي بن أبي طالب ابتم راصياً وهو يقول
 بآخر ما في حجريته من جهد «هو عمر بن الخطاب»
 يحاول معينه على الوقوف إعادته للفراش، إلا أنه يستوقمه. يبقى مطلقاً
 على الجمع مترقياً أية اعتراضات. لا يسمع سوى كلمات الرضا. من
 الواضح أن من واقفوه في اختياره قد أراوا خوف المشفقين. أخيراً.. الآن
 يستطيع أن يستريح.



يخلو أخيراً لأهل بيته. تجلس إلى جواره زوجته أسماء بنت عميس -
 التي تزوجها بعد استشهاد زوجها السابق جعفر بن أبي طالب في عزوة
 مؤتة - يطلب منها أن تتولى تجهيز حثائه بعد موته. تحببه من بين دموعها
 بأسها لا تطيق ذلك. ينزع عن وجهه الصرامة التي ارتداها أياماً وهو يدبر
 أمر الرعية من بعده، يربت عليها برفق قائلاً «يعيث ابني عبد الرحمن».
 يكف أخيراً عن مقاومة زحف نمل الوهن على أرجاء جسده المتداعي.
 تتابع الغشية تلو الأخرى تتخللها لحظات قليلة من الإفاقة يسأل فيها عن
 أي الأيام هو فيها يمس أذنيه صوت حبيب إلى قلبه يتمتم حزناً «لعمرك
 ما ينغي الشراء عن الفتى.. إذا ما حشرجت يوماًها الصدر وضاق
 الأنس».

يفتح جفنيه عن نظرة عتاب، ويقول لانتته الحالسة عند رأسه «ليس
 هكذا يا أم المؤمنين. ولكن كما قال الله وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك
 الذي كنت منه تحيد».

ولا يسى أن يسأل «في أي يوم أنا؟» يرجو أن يتوفاه الله يوم الاثنين

لأنه يوم كان يحبه صديقه وحبيه ورفيقه الرسول محمد

أحياناً يرفع الموضع راية انتصاره على الحسد، وإن لم يتمكن من هزيمة الروح الخلية. تغيب تدريجياً عن النور موجودات الدنيا وتفتح طاقة على ما لا يراه أهله المحققون به. قل أن يلج عبر الطاقة يتمم «رب توفي مسلماً وألحقني بالصالحين».



ما هو معروف ومتداول أن أبا بكر قد استحم في يوم بارد فأصابته حمى قسبة ألزمته الفراش لأكثر من أسبوعين، ثم كانت مضاعفات سبباً مباشراً في وفاته. وردّ البعض ضعف مناعة أبي بكر لأسباب، لإصابته بـ«حمى المدينة» بعد هجرته إليها بقليل، ما ترك أثراً على صحته، أو تأثير حره لوفاة رفيقه الرسول محمد على صحته، بل وأرجع البعض ذلك - أعني اعتلال الصحة - إلى ما رُوِيَ من أن ثعباناً قد لدعه في الغار حين كان مختبئاً مع الرسول من مطاردة أعدائهما القرشيين كل هذه أسباب يمكن أن تكون - بشكل أو بآخر - منطقية مقبولة، ولكن ثمة رواية ترددها بعض كتابات المؤرخين - كالسيوطي وابن الأثير - تتحدث عن واقعة تناول الخليفة الأول لطعام مسموم همي يقال إن أبا بكر كان يأكل طعاماً أهدي إليه، وكان يأكل معه الحارث بن كلدة. وعجأة توقف الحارث عن الطعام وأمر أبا بكر أن يرفع يده عما يأكل، وقال له «لقد دُسّ لنا سم سة - أي سم معموله يطهر بعد سة - وأنا وأنت نموت في يوم واحد!»

ووفقاً لتلك الرواية، فقد توفي الاثنان بالفعل في يوم واحد هو الثلاثاء

٢٢ أغسطس ٦٣٤م.

والخارث بن كلدة - وهو روح خالة الرسول محمد - طيب نارع معروف منذ ما قبل ظهور الإسلام، طاف بالبلدان ودخل قصور ملوك الأرض، واشتهر بالمهارة والحذق الشديدين في صعة الطب والعلم بتركيب جسم الإنسان، والدراية بكيفية تركيب الأدوية والسموم، وتفاعلات كل ما يدخل الجسم من مأكول أو مشروب. فلو صحت الرواية وكان قد قرر أن الطعام مسموم، بل وحدد نوع السم - والسموم مؤهلة المفعول معروفة والغرض منها إرالة الشبهات الخناثية - فهذا يعني أن الطعام كان مسموما بالفعل، وأن وفاتها في ذات اليوم في الموعد المتوقع، لم تكن محض مصادفة! بالتالي - بناء على ما سبق - فإن الخليفة الأول للمسلمين، وأبرز صحابي للرسول محمد، وأول من آمن به من الرجال، قد تم اغتياله بالسم، وبنوع خاص من السم معرض إخفاء مجرد وجود شبهة لذلك.

طبعاً من المستحيل تأكيد أو نفي تلك الواقعة بشكل نهائي حاسم، فدعونا إدد بفترض صحتها فقط لإجابة سؤال هام. ما الذي يمكن أن يجعل من أبي بكر بن أبي قحافة هدفًا محتملاً لمؤامرة اغتيال بالسم؟!



يتعامل الكثيرون مع فترة حكم أبي بكر - عامان وثلاثة أشهر وعشرة أيام - باعتبار أنها مجرد فترة «تسيير أعمال» انتقالية قبل أن تدخل الدولة الإسلامية في طور «الإمبراطورية» في عهد عمر بن الخطاب وإن كان طور التوسع والسيطرة وفرص الدولة الجديدة نفسها على الواقع الإقليمي قد بدأ بالفعل في عهد عمر، فإن عهد أبي بكر - على قصره - لم يكن بالأقل أهمية، لأنه لولا «تمهيدات» هذا العهد ما كان لخلافة ابن الخطاب أن تحقق تلك الإنجازات السياسية والعسكرية.

الصورة النمطية لأبي بكر هي لرجل وديع مسالم رقيق المشاعر مهذب

الأسلوب وقور الهيئة، وهي صمات قد تحمل بها بالفعل، ولكن ثمة صفة أعملها أغلب من تناولوا شخصية هذا الرجل وهي «الصرامة».

والصرامة - بعكس ما هو شائع - ليست مجرد وجه متجهم وصوت فاس وبدة أمرة. بل هي وضع القوة واللين مواضعهما الحق، وتوظيف الإصرار على الموقف بشكل حكيم، ومعرفة متى يُفعل ماذا وكيف يُفعل، فضلاً عن التحلي برباطة الجأش والسيطرة على الانفعالات، خاصة في مواجهة الصدمات أو التحديات الكبيرة. والمدقق في فترة ولاية أبي بكر يدرك تمتع جميع قراراته ومواقفه بتلك الصرامة المذكورة. بل إنها تبدو واضحة في مواقفه قبل تسميته خليفة للمسلمين ولعل أبرزها موقف الحداد حول خلافة الرسول محمد في سقيفة بني ساعدة، وقبله تصرفه السريع عند وفاة الرسول بتصدره للحظوة في المجموع الذاهلة عن نفسها من فرط الصدمة، واختياره كلماته «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!» ثم قراءته الآية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم»، وهذا لتوجيه صدمة مصادة لهم، تفيقهم من تلك التي اعترتهم فور فقدهم راعيهم الدنيوي والروحي.

هذه الصرامة التي استدعاها أبو بكر بحذافيرها وأشهرها في وجه تحديات فترة خلافته كانت ردّاً قوياً على المتشككين في قوته على مهام منصب، والساخرين من ضعفه الحسدي فأبو بكر لم يكن يمثل النموذج المعتاد للقائد في المجتمع العربي، الذي كان ما يرال متأثراً بثقافة ما قبل الإسلام فبينما كان الوجدان الجمعي للعرب يتخيل القائد رجلاً متين ابنان فارع القامة ممشوق القوام متورد الوجه، كان أبو بكر ضئيل الحجم شديد النحافة - حتى إنه إن ارتدى إزاراً كان لا يتماسك حول خصره - عائر العينين، شاحب الوجه، دقيق الأطراف، مسحني لظهر وكان الساحرون منه يسمونه «أبو فصيل»، لأن «السكر» هو «الفتى من الإبل»،

سببا «الفصيل» هو ولد الماقة الذي قُطِمَ نوا، فهو ضعيف. فأثبت هو - على حد قول بعض المؤرخين - أنه «أبو فحل»، والفحل هو الذكر القوي من الإبل.

ومما يدل على التشكك الأولي في قدرته على الصمود في وجه التحديات، أن كبار الأنصار حين اقتنعوا أن تكون الخلافة لقرشي، توحه بعضهم لعمر بن الخطاب يعرض عليه البيعة، فأجابهم «لأن أقدم وأسنّ كالبكير خير من أن أتقدم أنا بكرك»، وأن أبا سفيان - الذي كان ما يزال مؤمنا بالبطرية العربية التقليدية العتيقة للحاكم الفوي - عرض على علي بن أبي طالب أن يدعمه بالخيل والرجال ليستزع له الخلافة من أبي بكر، لولا أن زجره علي بل وحتى أبو قحافة نفسه حين علم باستحلاف ابنه سأل «ولم يبعوه؟» فلم يجد المسؤول جوابا إلا «ليسته» فقال أبو قحافة مازحا «أنا أسن منه».

والقارئ في سيرة هذا الرجل يدرك أنه قد حوّل ذلك الصعف الجسدي إلى عنصر محفز لإنتاج قوة نفسية كاسحة بل إن تعانیه في خدمة الرسالة التي أمر بها وتحمله كل تلك المشاق والأخطار لأجلها، رغم ضعف بنيانه، يصنع قوة شخصيته وإرادته وصرامته فوق تلك التي لأصحابه من أقوياء الجسد ومراحل، فهم أعانت أجسادهم القوية قوتهم الداخلية، وهو أعانت قوته الداخلية حسده الصعيف!



من البداية استل أبو بكر صرامته وأشهرها في وجه التحديات التي انفجرت في وجهه، والتي كانت بدايات بعضها تسبق وفاة الرسول محمد بعثرة بسيطة.

تلك التحديات تمثلت في:

- ارتداد بعض القبائل عن الإسلام كدين بشكل كامل، وبالتالي عن التبعية للدولة الناشئة.

- تمرد بعض القبائل على مطالبة السلطة المركزية لهم بتحصيل وإرسال البركة، باعتباره فريضة دينية

- قيام بعض القيادات القبلية بادعاء النبوة بالشرافة مع النبي محمد.

- الحملة التأديبية التي كان الرسول محمد قد أعدها بقيادة أسامة بن زيد، للتدخل في عمق الأراضي الموالية للبريطيين، ردًا على قيام بعض ولائهم بقتل رسول من قبله لحكام الشام، وهو ما يعتري في العرف اندولي -
الآنك - بمثابة إعلان حرب

أم عن التحدي الأول - الردة - فتمثل في أن بعض القبائل التي اضطرت لإعلان التبعية للدولة الإسلامية، ليس عن اقتناع بالدين وإنما عن سبيل المناورة السياسية، قد استشعرت أن وفاة الرسول محمد تمثل لها فرصة للاستقلال عن دولته، خاصة أن كثيرًا من قيادات حركة «الردة» كانت تأبى من فكرة التبعية لحاكم قرشي أي أن الأمر لم يكن دينيًا بقدر ما كان قبليًا ولم تتوقف تلك القبائل عند مجرد الانفصال، ولكن نفذت بحق من تمسك من أنانها بالإسلام حملة تعذيب وقتل جماعي، تشبه تلك التي نفذتها قريش بحق المسلمين الأوائل، بل وتعدتها لدرجة تنفيذ عمليات إعدام جماعي لهم بطرق مختلفة، كالخرق والدسح والإلقاء من المرتفعات.

وأما التحدي الثاني فتمثل في محاولة بعض القبائل المساومة، فعرضوا أن يلتزموا الصلاة والتبعية للدولة على ألا يدفعوا زكاة المال بل وتمادوا فتقدمت حشودهم باتجاه العاصمة - المدينة - وحاصروها، في تهديد صريح باجتياحها وإسقاط النظام لو لم يصرخ لهم

والتحدي الثالث - الذي بدأ من قبل وفاة الرسول - كان في قيم مسلمة

بن حبيب الحفي - المعروف باسم مسيلمة الكذاب - بادعاء إشراك الله له في النوة في أرض اليمامة، وإعلان طليحة من خويلد من قبيلة بني أسد تنوء وقيامه بتحريف الصلوات، وكذلك سجاح التميمية في قبيلة تميم، قبل أن تزوج بمسيلمة وتتحالف معه. وخلف كل بني كذاب اجتمعت قبائل، ليس عن إيمان به بل عن تعصب قبلي، وهو ما يبدو في موقف من قال لمسيلمة «إني كذاب ولكن كذاب ربيعة (اليمن) خير من صادق مضر (الحجاز)» ثم انصم إليه برجاله (كان عييلة المشهور - الأسود العسري - و«ذي الحمار» قد نسا بايمن وقاد تمردًا بها في أواخر حياة الرسول محمد، إلا أن حركته قد أسقطت على يد من أسلموا من فرس اليمن قبل وفاة الرسول بأيام).

وأخيرًا تبقى أرملة «نعت أسامة» فقد انقسم الصحابة بين مؤيد لإرساله، ومن رأوا أن الوقت غير مناسب لذلك مع كل تلك التهديدات، خاصة وقد جهر البعض بشككهم في كفاءة أسامة بن زيد لقيادة الحملة، نظرًا لصغر سبه قياسًا بالمشهورين من القادة والمحاربين.

اختصارًا، فإن الدولة التي كانت سطوتها قد بلغت اليمن وشرق الجزيرة وشمالها، قد انحصر الولاء فيها للسلطة المركزية في مكة والمدينة والطائف ومحيط تلك المدن! حتى إن بعض أصحاب أبي بكر قد وصفوا الموقف قائلين «إن الأرض كافرة»!

هذا ما كان على أول الخلفاء أن يواجهه غداة مبايعته!



كان كبار الصحابة - الذين لم يكن الخليفة يقطع أمراً دون مشاورتهم
 يميلون لعدم حوص كل تلك المعارك دفعة واحدة، فكان أغلبهم يرى
 السكوت - ولو مؤقتاً - عن ماضي الزكاة، وكانوا كذلك يرون تأجيل
 حرواح حملة أسامة بن زيد إلى الشام حتى تنتهي الفلاقل وتستقر الأوضاع.
 « ما راد دقة موقف أبي بكر في مواجعة هذا الموقف منهم، هو أن عمر بن
 الخطاب - مستشاره الأول - كان من تلك الفئة الراجعة في «تبريد الجبهات»
 كان رفض أبي بكر لهذه الآراء قاطعاً، فوقف بصلابة يقول «والله
 لو ركضت الكلاب بأرجل أزواح رسول الله أي لو تحطفتهم الكلاب
 الصارية - لأبغذت بعث أسامة» ولما عرض عليه عمر بن الخطاب إبداء
 بين إراء ماضي الزكاة، قال له «أحار في الجاهلية حوار في الإسلام يا
 عمر؟ لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة!» وخرج على القوم معداً «لو
 معوا عراً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه» فالمسألة ليست مسألة
 ماديات بقدر ما هي مسألة اختبار لحيمة الدولة وقدرة السلطة المركزية على
 ردع المتمردين.

بل وبلغت صرامته أوجها حين طلب الصحابة من ابن الخطاب
 معانجته في استدال قائد أكبر سنّاً بأسامة بن زيد، فوثب على عمر يجذبه من
 لحيته ويصيح له «تكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول
 الله وتريدي أن أحلعه؟!» وهي حركة يراد بها أن تصل الرسالة واضحة
 للناس: حتى مكانة عمر بن الخطاب عند أبي بكر لن تردده عن تنفيذ أمر
 الرسول.

ويخرج بعث أسامة بنحو سعمنة من حيرة المقاتلين، ويستبقي أبو بكر
 عمرًا إلى جواره لمعاونته على إدارة شؤون الدولة، والدفاع عن العاصمة
 انني داهم المتمردون من ماضي الزكاة محيطها وبينما اغتر المحاصرون
 بقوتهم وحسبوا أنهم يقدرود على اقتحام العاصمة، يبايعهم أبو بكر بمن
 معه من بقايا مقاتلي المدينة، في خطوة شديدة الحراة، ويردهم على أعقابهم

وتسمع القبائل هزيمة الثمردين فترندع عن مشاركتهم عدوانهم على السلطة.

ويعود بعث أسامة متصراً بعد نحو شهرين ونصف من حروجه، فتحدث القبائل بأن رجلاً لديه هذه الثقة بقوته، إلى حد إرسال جيشه في مهمة بعيدة وسط تلك الظروف الدقيقة، هو رجل لا بد يدرك قوته وقدرته على حماية أمن دولته فيتحقق الهدف المعوي من إصرار أبي بكر على إنفاذ بعث أسامة، وتزعزع الروح المعنوية للتمردين.

هنا يطرق الخليفة الحديد ساحاً، فيسارع بعث ١١ بعثة عسكرية - في آن واحد - لتأديب مدعي السوء ومناعي الركاة والمرتدين، ويصع على رأسها أقوى قادته كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم. وتضاف الحنكة التخطيطية العسكرية لرصيد أبي بكر، الذي يصع حطة دقيقة بلرم القادة تنفيدها بأن يصم من ينتهي منهم من مهمته لبعض الحملات الأخرى دعماً لها، بحيث يفتت قوة الثمردين ويجعل كل كتلة منهم تواجه منفردة قوات المدينة.

وتتوالى أخبار الانتصارات تبلغ العاصمة، فتزيد الروح المعنوية للمسلمين ارتفاعاً، يسا تنهار عند الأعداء الذين يسارعون بالتخلي عن مدعي البوة وقادة التمرد، وترد الوفود على المدينة تعلن التوبة وتجدد الولاء وعهود الطاعة.

ويعاقب الخليفة من ارتكبوا المذابح بحق من ثنوا على إسلامهم من أهل القبائل المتطرفة جعراقياً، فيحكم على من ارتكب منهم جريمة قتل، بالقتل بنفس كيفية ارتكابه جرمه من ناحية، ويتألف قلوب من لم يرتكبوا جرائم كبرى من ناحية أخرى. وتؤتي تلك السياسة ثمارها، فرجل مثل عمرو بن معد يكرب كان مصدر إزعاج للدولة يصبح من أخلص رجالها، ويصير من أبطال فتح فارس، وطلحة الذي نبأ يعلن توبته ويقاقل في صفوف المسلمين حتى يعيه عمر بن الخطاب - في عهده - مستشاراً لبعض

حملاته العسكرية، ويشهد في موقعة نهاوند، وسجاح التميمية تسلم
وبحسب إسلامها وتنتهي فتنتها لقومها، ويعلن اليمن خضوعه بعد مقتل
مسيلمة الكذاب.

ثم تتغل العمليات العسكرية من مرحلة الردع لمرحلة التوسع. وهي
مرحلة كانت تفرض نفسها، بحكم وقوع بعض تلك العمليات في أراضي
متاحة لامتلاكات كل من بيزنطة وفارس في المناطق العربية. وبطبيعة الحال
فلم تكن الدولتان الكريان لترضيا عن حركة التحرر العربي من سطوتها،
فتسعين للتدخل - عسكرياً وتأمرياً - في تلك المناطق، ما يجعل من تحريرها
ضرورة لحفظ الأمن القومي لجزيرة العرب.

وتتقدم الجيوش العربية لمناطق طالما خضعت لكسرى وقيصر، فتفتح
منها وتمهد لعهد الفتوحات الكبرى التي وقعت في عهد عمر بن الخطاب
كل هذا في نحو عامين فقط! نحن نتحدث عن رجل تسلم دولة تمرقها
انتمردت وانفتحت إلى حد محاصرة عاصمتها، فلمها خلفه وقد أُخِذَت
انبثرت ووثدت العنق، بل وانتقلت الدولة لطور التوسع ومناطحة
القوى العظمى في عقر دارها!

* * *

رجل كهذا كيف لا يكون هدفاً للاغتيال؟

* * *

هذا عن إحانة سؤال: هل يمثل أبو بكر بن أبي قحافة هدفاً يسعى
أعداء الدولة الناشئة لإزاحته؟

فماذا عن السؤال من المستفيد من اغتياله، لو صحت العرقية، لقائلة بذلك؟

من ذكروا تلك الرواية من المؤرخين المسلمين القدامى اتهموا اليهود بشكل مباشر، ولكنهم لم يحددوا «أي يهود». هل هم بقايا يهود خيبر؟ أم هم يهود اليمن؟ وهل كان اليهود يمثلون أصلاً قوة تستطيع الإفادة من عمل كهذا؟

الارجح أن هؤلاء المؤرخين قد ربطوا فكرة الاغتيال بالسب باليهود بشكل تلقائي، تأثراً بواقعة «الشاة المسمومة» التي يُروى أن يهودية قد قدمتها للرسول محمد، وبرزت ذلك بعدها باختيار صدق بيوته وحقيقة إخبار السباء أنه بحفايا الأمور وهو استسهال غريب على أسماء معروفة بالتدقيق والتمحيص التاريخي، ولكن لعلهم قصدوا بذلك مجرد نقل الرواية المتداولة.

والمنطقي أن تتجه أصابع الاتهام إلى أهل العداوة «حالة الوقوع» تزامناً مع مرض ثم وفاة أبي بكر، وهم كثر، بدءاً من القيادات القبلية التي اضطرت للمحضرة لسلطة «المدينة»، مروراً بأمراء المدن العربية الواقعة على خط العمليات العسكرية التوسعية في شمال الجزيرة وحدود الشام، وانتهاءً بسلطات الدولتين العظميين فارس وبيزنطة، خاصة وأنه كانت ثمة محاولة من الملك الفارسي الأسبق أن يقتل الرسول محمد، عبر أمر وجهه لعامه على اليمن «بادان» قبل إسلام هذا الأخير وانضمام اليمن للدولة الإسلامية.

على أية حال فإن تلك الوفاة السريعة المفاجئة لأول خليفة مسلم، هي مما يستحق الانصمام لألغاز التاريخ، أسوة بالوفيات الغامضة لبعض

كدر لقادة والحكام عبر التاريخ الإنساني الطويل . ما يجعلها تستحق النظر
والبحث من حين لآخر .



عمر بن الخطاب

ضحية أول جريمة عنصرية في تاريخ الإسلام

- مشهد أول:

بلاد فارس - ٢٢٦م

ساسان الأول، ساسان العظيم، سيد فارس وموحدها ومؤسس أقوى أسرها الحاكمة. يحضر.

رغم تكالب الأوجاع على جسده تحامل على نفسه جالساً، يطلع ما حطت يده منذ سنوات بعد أن قصى عمره يدرس «الأستاق» كتاب زرادشت المقدس، بي القُرس الررادشتيين الذين عرفوا مستقبلاً بـ «المجوس».

ارتجافات يديه المعروقتين ضاعفها اتعاليه وهو يقرأ أنواعه الرهية. حين يفعل القُرس الفحشاء ويتشر الظلم، يظهر رجل عربي يأخذ منهم سرير الملك، ويقع المذهب في قبضته ويصبح الرؤساء مرؤسين له، ويمسح العرب الصور والأصنام وسيطفئون بيوت البيران المقدسة، ويجعلون مكانها بيوتاً معمورة لا مكان فيها للأصنام والأوثان، وستقع في أيديهم المعابد وما حولها من مدن ويقاع».

أسبل جفنان أكلهما السهر تفكيرًا في مصير ذريته وبلاده. متى يتحقق هذا الندير المشؤوم؟ بعد مئة عام؟ ميتين ربما؟ لا يعرف. لا أحد يعرف فقط يعرف يقينًا أن ما هو مكتوب في لوح القدر سيكون، وأن للسماة وعدًا لا تخلفه ربما يملك أبناؤه وأحفاده تأخيرها، لكنهم حتمًا لا يملكون معه.



- مشهد ثانٍ:

فارس - العاصمة طيسفون (المدائن) على نهر دجلة - قصر الملك سابور الثاني - منتصف القرن الرابع الميلادي

أشار سابور الثاني بصو لحنه، مابحًا الأمان لذلك العربي الذي الشمس المثل بين يديه وسجد عند أعتاب العرش طالبًا الأمان.
رفع الرجل - مالك بن النضر من سادات مكة - رأسه وقال متحسبًا مواضع كليته «مولاي سيد العالم، أبا الشمس والقمر، ابن الأرباب الشمس كرم إجاباتكم سؤالي»

- «مسل!» قالها الرجل الرهيب الذي تتسامع حريرة العرب بأبناء تكييله بالقبائل العربية الشمالية، ومذابحه المريعة بحقها، واشتهاره بتعذيب أسراه بخلع أكتافهم حتى نُقِبَ «سابور دي الأكتاف»

ازدرد مالك لعبابه وهو يحاول مع بركان الحامض المحتشد رعبًا في حلقه من الانفجار. أخيرًا قل متحاشيًا التقاء عيبيه بعيني الوحش الربص على عرشه «هل لي أن أسألكم لم تصطهدون العرب؟ فيم أسؤوا ليستحقوا نعمتكم؟»

جدجل صوت الطاغية: «ليس ما أوقعنا بهم عن إساءة، وإنما هي عن سوء أوحى بها الإله لخدنا المقدس ساسان، تنفروا بأن رجلاً يخرج من بعض بيوت العرب يدمر ملكنا ويحوز قومه بلادنا!»

وإن كان سيد قریش يبدي الخضوع ويرتجف من داخله فرقاً من مثوله بين يدي جبار عصره، فإن فطنته ودكائه لم يمارقاه، لهذا فقد وجد فرصته في استدراج الملك لمنطقة مستعصية من المجادلة، فقال وقد اكتسبت نبرته ثقة: «وهل من مرد نبوءة جدكم التي نقلها لكم عن وحي الإله لشخصه الحكيم؟»

رفع بصره فالتقط في لمحة سريعة ارتجافة على جانب فم الملك. سارع واستطرد وقد تصاعدت ثقته: «ما دامت تلك نبوءة من الإله حقاً، فإنها لا بد كائنة، فلا مرد لما كتب الإله على البشر ولو اجتمع البشر والشياطين هل ذلك؟»

تبادل رجال الملك النظرات الفلقة من هذا القول الجري، همهمة خافتة سرت بينهم أوقفها ساهور بإشارة صارمة من يده، ثم قال للعربي «أكمل!»

- «الحكمة إذن تقتضي - يا مولاي - أن يكون التدبير في درء تعاقب المصائب، لا في إيقاف ما هو مستحيل إيقافه»

عاد الحضور يغمغمون هذا العربي أكثر دهاء مما يبدو على هيئته الخائفة. اتجهت أنظارهم نحو الملك، بين متوقع لأن يبطش بالرجل عضاً من أنه قد حاصره كلاماً في ركن ضيق، فلو قال بإمكانية رد النبوءة فقد أساء لجلده العظيم وأعلن تحدي الإله، وإن أصر على موقفه على علمه باستحالة ردها فقد اعترف بعيبية سياساته. التفت الملك نحوهم فسارعوا بحمض الرؤوس تأدباً، وهم يتظرون أمراً بحق العربي من قبيل التعذيب أو الذبح، أو على الأقل الطرد شر طردة. إلا أنه فاجأهم بتبسيط أسأريه القاسية وهو يشير

لرجل أن يتقدم فيجلس عند درجات العرش، وقام من فوقه بجالساً محدثه بشكل ودي لم تكن بداية الحوار تشي به.

«صدقت، أنت رجل حكيم عربي حكيم. هذا نادر. هذا شديد الندرة. ولكن، كيف ندرأ تعاقم المصاب كما تقول؟»

مسح مالك خيط عرق أنسال على صدعه، وتنهَّد بارتياح مجيئاً الملك «أيها الملك، تقتضي الحكمة التي لا تغيب عنكم أن تترفقوا بالعرب، وأن ترفعوا عنهم العذاب، فيذكروا هذا لكم يوم يقضي الإله ما هو قاصي، ويرفقوا بكم هكذا يكون صيغكم يذاً ييضاء على الآئين من رعاياكم»

بقي ساور يجيل نظره صامتاً في ملامح صيفه. أخيراً، يعثر ثمره عن بسمه ارتياح وهو يقول «لث هذا قد رفعنا بقمنا عن قومك»

ما لم يكن الملك ساور الثاني يعرفه. أن من نسل هذا العربي، مالك بن النصر، تحدر سلالة قرشية عريقة، تكون درتها ذلك الرجل الذي تتحدث به نبوءة ساسان، بأنه يكون أول ظهور العرب على من سواهم محمد بن عبدالله.



مشهد ثالث:

المدينة - ههد عمر بن الخطاب

شق الزحام بكعته، مديراً عينين حادثين في الجمع المحتشد ينظر دحول موكب غنائم وأسرى الفُرس إلى عاصمة الخلافة. كانت ملامحه تجهر بأصله الفارسي، بياض العينين الشديد مقارنة بسوادهما الخالك، حدة الألف والشعر الفاحم لم يكن له أن يقيم بالمدينة، بعد أن أمر الخليفة عمر بإجلاء غير العرب

أو المسلمين عنها، لولا أن استشاء شمله بعد إلحاح من سيده ومالك عمله
المغيرة بن شعبه. «العلوج»، هكذا يسمون كل من كان أعجمياً يدين بغير
الإسلام. بحق الإله كم يبغضهم. هؤلاء العرب الأحلاف رعاة الشاة.
فرصهم الجوع وعرضهم قمل عاءاتهم الرثة فتجاوروا صحراءهم إلى بلاده.
هكذا كان يدور في رأسه، وهو ينظر بمربح من اللوعة والغضب جحافل
الأسرى من بني جلدته، والعرب يحرقون بهم.

دار الزم والكلب قد امتطى الأسد. صار الرؤساء مرؤسون لهؤلاء
الذين كان أقصى طموح أعظمهم شأناً أن يعم عليه الأكسرة بتقيل الأرض
بين يديهم. تمزقت أحشائه حين رأى الممران - أحد قادة كسرى بردجرد -
يسلم بين يدي حليفتهم عمر، وعندما علم بأن بنات ملك فارس قد وقعن
في الأسر لم يصدق أذنيه، فانطلق ينظر ما وود لو أن نصره قد ذهب قبل أن
يراه «سات الملوك لا يعاملن معاملة الأسرى، بل يقومن ومهما بلغ قوامهن
يدفع». هكذا قال علي بن أبي طالب وزير عمر ومستشاره لهذا الأخير. يبرز
عمر رأسه موافقاً ويجري تقويمهن بالمال فيدفعه علي ويتسلمهن، فيدفع
واحدة لابنه الحسين (هي شاه بانو زنان وولدت له ابنة علي المعروف برين
العدين) والثانية لعبدالله بن الخليفة عمر، والثالثة لمحمد بن أبي بكر بنات
الملوك يصرن فراساً للأجلاف العرب أينما الأرض لم لا تشقين فتطوين
العالم؟! أينما السماء لم لا تمرغين صواعقك على رؤوس المخلوقات فتدهينهم
هباءً؟ يمضي دون وعي يشق صموف الأسرى، يتحسس رؤوس الصبيان
مهم. يستشعر مذاق الدم على طرف لسانه فيدرك أنه قد مرق شعته كمدًا
مذاق الدم الدم. الدم. يتمتم «أكل عمر كدي! أكل عمر كبدي!»

ولكنها يأتي المبعض على ذكر اسمه، يلمع عمرًا يسير مطرقاً برأسه
متوشحاً عصاه. «الدرّة» كما يدعوها يتقدم الفتى من الخليفة قدمين لا
يحس مسها الأرض يقطع الطريق على الخليفة الذي يرمقه متسائلاً يصطع

أدباً وهو يقول له: «يا أمير المؤمنين أبا أولؤلؤة فيروز، غلام المغيرة حنت أشكوه إليك»

يستند عمر على درته سائلاً «وما شأنه معك؟»

لا يعرف كيف ارتحل رداً سريعاً يخفي به ما يجول ب صدره: «يثقل عليّ في الخراج، فيطلب كل يوم ثلاثة دراهم»
- «وليش صنعتك؟»

- «نقاش، حداد، نجار»

مط ابر الخطاب شعته محبباً «ما أرى حراجك كثيراً عى ما نصنع ألسن تقول إنك تقدر أن تصنع رضى تدور مع الريح؟»
- «بلى»

أشار عمر بكفه «فهلهم إذن اصنع لي رضى»

رفع فيروز عييه إلى محدته، وصوب نظرة أحلك من ظلمة ليلة بلا قمر، بقي صامتاً ثم تتم وقد تهاوت مقاومته أن يطل بغضه عبر ملامحه الصحيرية «لأصنعن لك رضى يتحدث الناس بها»

ولأن ابن الخطاب رجل قد عركته التجارب، فإنه لم يكن ليغفل عن التهديد ولو كان مستتراً، فصوب للرجل نظرة متفحصة ثم رسم على وجهه عمداً علامات استهانة واضحة، أدرك أولؤلؤة أن خبيثته قد مرقت ستارها فانطلق مغادراً.

بقي عمر واقفاً يمكر في ما جرى، فلم يمهد في حياته من يمرق على تمديده وجهاً لوجه. لاحظ بعض أصحابه طول وقوفه فانطلق إليه حاملاً نظرة تساؤل، أجابها عمر بإشارة لا مبالية، ونظرة هازئة بها تلقاء من وعيد لا يتصور حداً، «لقد توعدتني الملج أنفاً!»



مشهد رابع:

المدينة - مسجد الرسول - فجر ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤م

كمن في ركني من المسجد ينتظر، حتى رأى ذلك الشيخ الأصلع عملاق
السيان كث اللحية يدخل المسجد متوكلًا على دُرّته. كتم أنفاسه وتحسّس
من فوق ثيابه حجرة ذا النصلين بدأ المصلون في التوافد والاصطفاف،
فاستعمل الزحام ليتقدم برفق إلى أول الصفوف التي كان الشيخ يرقب
استواءها بعين يقظة دون أسفل وجهه في طوق عباءته، واعتمد على عطاء
رأسه في إحماء باقي ملاحظه.

«استروا يرحمكم الله» قالها إمام القوم بصوته الجمهوري المميز، وهو
يلتفت إلى القبلة مرمعًا إقامة الصلاة

لا يعرف متى وثب عليه ذلك المثلث متعلقًا بمعقه

هوت الطمعة الأولى تحرق عضلات كتفه.

«رأيتُ أن ديكًا مقرن ثلاثًا. وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلي»

قالها منذ أيام لبعض أصحابه..

عرفت الطمعة الثانية طريقها لجذعه

«اعهد يا أمير المؤمنين فإنني أرى في التوراة أنك مقتول في ثلاثة أيام»

أندره بها كعب الأحبار ولحدائث عهده السابق يدين اليهود فقد كان قارئًا

في نورائهم. «الله اترى في التوراة عمر بن الخطاب؟» أجابه «بل أرى صفتك»

مرقت ثالث الطعنات - وأقواها - بطنه تحت السرة

«كيف أقتل شهيدًا وأنا لم أعادر جزيرة العرب؟ كلا! العرب لا تقتلني»

قها لكعب الأحبار ردًا على إنذاره إياه.

سقيفة المسجد تترافص وأعمدته تدور حوله في جنون. يد حمية تسدل

خمارًا أحمر على وجهه.

رعدة عاتية تهز سيانه، كاهتزاز أُحد حين رجف به يوماً وهو مع رسوله
وأصحابه أبي بكر وعثمان وعلي، ليقول الرسول «أثبت أُحد!»
يستجمع آخر قواه صارخاً في أهل المسجد «دونكم الكلب! فقد قتلني!»
تسحب الموجودات بسرعة، ويستشعر الأرض التي طالما صافحها
بحبته ساجداً وهي تتلقى ظهره هذه المرة

يفيق على سائلين، أولهما لادع وثانيهما أبيض ليس، يُدععان لعمه.

يحاول الاعتدال في فراشه لكن يداً حابية تمعه برفق
«السيد لم يبين موضع جرح الداحل واللس خرج مخلوطاً بالدم!»

يمس تلك الأصابع الرفيقة تمس كتفه الصحيحة يرفع جثنيه بمشفة
من يحمل جلموداً. يميز بعض أصحابه.

«لا بأس عليك يا أمير المؤمنين»

يشق بانتسامة واهنة جانب فمه الأيسر، متمتماً «إن يكن في القتل بأس
قد قُتلت!»

يصمت ملتقطاً أنفاساً نجهد كأنها تأتيه من ثقب إبرة ثم يردف راسقاً
بنظر عائم وجوه أصحابه «أعن ملا منكم كان هذا؟!»

استعدادات بالله من ظن السوء طمأنت قلبه الخائف واهناً صوت أحدهم
ينجبه «بل هو غلام المغيرة»

تهجد متمتماً «قد كنت أمركم ألا تدخلوا علو حهم علينا فعصيتوني!»



هل كان عمر بن الخطاب يقصد بسؤاله «أعن ملأ هذا مكهم؟» أن يعصم
عن اعتقاده أن اغتياله هو تدبير من بعض أصحابه ورفاق كفاحه؟

وارد للقارئ في تلك الواقعة أن يحسب ذلك خاصة وإن قرن هذا
بتورة الغضب التي انتابت عبيد الله من عمر بن الخطاب، ودفعته للهجوم
سيفه على الهرمران وجقينة - أمير مسيحي من أهل الخيرة كان قد أيسر
وحمل إلى المدينة حيث أعلن إسلامه - واسة لابي لؤلؤة قاتل أبيه، وقيامه
بقتلهم جميعاً. ثم إشهاره السيف في شوارع المدينة صارخاً بشكل حيوي
«لاقتل رجلاً أشركوا في دم أبي»، قبل أن ينجح سعد بن أبي وقص
وعمر بن العاص في انتزاع السيف من يده والتحصن عليه.

يدفع هذا البعض للظن أن عبيد الله كان يعرض بها كد يطنه من تأمر
بعض أصحاب أبيه لاغتياله. خاصة مع ما كان معروف من أمر عمر، ألا
يسكن بالمدينة أي من غير العرب ممن لم يسلموا واستثناء غلام المغيرة
بن شعبه بعد إلحاح هذا الأخير عليه، مرزاً إلحاحه بأن اللباس منافع
فيما يقوم به فيروز - أبو لؤلؤة - من أعمال وصاعات وما يُقَلَّ عن عبد
نرحم بن أبي بكر أنه كان - قبل يوم من وقوع الاعتقال - قد رأى فيروزاً
مجتماً ماهرمز ووجفينة يتهايمون ويهيم سلاح الجريمة، ولما سأهم عن
سلاحهم قالوا إياه سكين يقطعون به اللحم أصف لذلك تساؤل عمر عما
إذ كان قتله قد تم برأي أصحابه. وما هو معروف من أن كثيراً من الناس -
بالذات الصحابة - كانوا يستثقلون أمر عمر لهم ألا يعادروا أرض الحرمين
إلا لأضيق الظروف، رغبة به عنهم من السعي وراء الدسا وانجرافهم في
سبق الثروة والنفوذ، وهو ما كان يصنعه أنه من قبيل نعت

ولكن المدقق في كل ما نُقِلَ عن عمر بن الخطاب، يدرك أن سؤاله في
احتضاره كان مرتبطاً بما سبق أن قال يوماً لأصحابه هؤلاء، من أن الخلافة

هي كسفية بها المسلمون، وربانها هو الخليفة، فإذا ما انحرف عن الطريق السوي قتلوه.. فلما أندوا استغراهم من ذكره القتل بدلاً عن العزل، أجابهم أن ذلك أردع لمن يأتي بعده أن ينحرف. والعالم بمدى قسوة ابن الخطاب على نفسه، وتغاديه في محاسبتها على كل صغيرة وكبيرة، يدرك أن مغزى سؤاله سالف الذكر هو خاطر ربما قد راوده أنه ربما قد ارتكب بعض ما يرى منه رفاقه استحفاقه القتل، عملاً برأيه شديد الصرامة في مصير من ينحرف من أئمة المسلمين.

كذلك فإن القارئ لشخصية عبيد الله بن عمر، يسهل عليه إدراك أنه كان شخصاً انفعالياً يسيطر عصبه على أفكاره وأفعاله. وقد بدا ذلك واضحاً في انجباره بعد سنوات لجانب معاوية بن أبي سفيان في حربه مع علي بن أبي طالب، غصاً من هذا الأخير لإفثاته بوحوب قتله جزاءً لقيامه بقتل امرئان وجفينة وانه أبي لؤلؤة. فمرجل كمبيد الله يصعب أن يؤخذ قوله مأخذ الجذ، لسيطرة انفعالاته على عقله.

ثم لو فرضنا أن بعض أصحاب عمر أرادوا التخلص منه اغتيالاً، أفكأوا - وبينهم دهاة العرب - أن يدبروا مؤامرة أكثر إحكاماً من الجريمة الانتحارية التي تمت؟ فاغتيال رأس الدولة بين رجاله أثناء صلاة الفجر هو عمل شديد الرعونة، لو كان القاتل مجرد متعت لتدبير أعلى منه صحيح أن أبا لؤلؤة قد انتحر بخنجره بعد أن ضرب نحو ١٢ مصلياً في محاولته للهرب، حتى ألقى بعضهم نفسه عليه مقيداً حركته بحذاء. ولكن من كان يضمن ذلك؟ ألم يكن وارداً أن يقبض حياً ويُسْتَحَوَّب فيعترف على من دفعوه لذلك، إن كان ثمة من فعلوا ذلك؟ والقارئ في تاريخ الاغتيال يلاحظ أن أغلب جرائم القتل في المسجد أو بين جمع غفير من أصحاب القتل كانت تتم بشكل انتحاري، حيث يغلب أن يقبض على القاتل أو أن يُقتل فور تنفيذ عمله الإجرامي.

تلك النقطة الأخيرة تصلح كذلك ردًا على نظرية أخرى، تقول بأن قتل عمر بن الخطاب قد كان نتيجة مؤامرة دبرها كل من الهرمزان وجمية تلك النظرية التي يرددها بعض المؤرخين وهم يقربونها عنى أسما قد أسما. وهذا القول الأخير كذلك مردود عليه بتساؤل. كيف كان لقائدين سابقين في جيوش العدو أن يقيما في العاصمة، بعد أمر عمر بإجلاء غير المسلمين عنها، إلا لو كانا قد أسما؟ فإن كان أبو لؤلؤة قد أقام بها لعدة وأصحة، فإن عمر لم يكن يسمح بمثل هذا الاستثناء لقائدين محاربين، خاصة مع ما في ذلك من طلاعها على ما يوصف في فقه الجهاد الإسلامي بأنه «عورات المسلمين» - أي تحصياتهم ونقاط ضعفهم - وإن قيل إنها كانا يقيمان بصفة أسيرين، فكيف لأسير أن تترك له حرية الحركة والاجتماع بل وحيازة السلاح؟!

الأرجح إذن أنها كانا مسلمين، وأن عيد الله قد قتلها في حالة عصب جنونية أفقدته صوابه، بعد أن سمع - ربما - قول عبدالرحمن بن أبي بكر أنه قد رآهما مع القاتل عشية الجريمة، خاصة وأنه قد قتل طفلة غير مميرة لا يصدق عاقل أنها صالمة في مؤامرة اعتيال. فقد قتل الثلاثة إذن انتقامًا، وليس اجتهاذاً منه في الرد على جريمة مروعة.

والقول بأن القتيلين - الهرمزان وجمية - قد أسما عن سبيل الترمويه ليسهل عليها اعتيال الخليفة، هو أمر وارد، ولكن يبقى قائماً سؤال سلف طرحه. وماذا لو كان القاتل قد قُبِضَ عليه حياً واعترف عليهما؟ هل يعنى هذا أن الطبيعة «الانتحارية» للجريمة تشملها حيث قررا المجازفة بنفسيهما مقابل الانتقام عن أدل دولتهما وأخصعها؟ أكرر: وارد لكن كل ما يقال هنا هو فرضيات.

ولدينا هنا سؤال آخر - وليس أخيراً - ماذا عن كعب الأحبار؟ إن الرواية التي تقول بأنه قد أنبأ عمر بمقتله، وأنه قد رأى ذلك في التوراة،

لهي مما يجعل أصابع الاتهام ترتفع في مواجهته. هل علم بالمؤامرة - أو شارك في تدبيرها - وحاول أن يصفى على نفسه جانباً «ما وراء طييعي» بادعاء القدرة على التنوؤ أو تفسير العاصم من محتوى التوراة؟ ولماذا يحاطر كعب الأخبار بمكانة عميرة مستقرة كان يشغلها في المجتمع المسلم ليشارك في عمل أحرق انتحاري كهذا؟

وإن لم تكن له يد في الأمر، فما تفسير ما قال لعمر؟ هل هذه الرواية كلها محض خيال من بعض ناقلي الروايات التاريخية؟ أم أن كعباً كان يمارس سراً بعض مود التتجيم - المعروفة منذ ما قبل الإسلام - فصادف وقوعه أمراً واقعاً؟

أعترف أن كل تلك الأسئلة والاحتمالات تدور الرأس وأراني ملزماً - احتراماً للأمانة العلمية - أن أستعد كل المتهمين سألني الذكر، عملاً بقاعدة الإثبات «البينة على من ادعى» لعدم توافر البينة بحققهم

على أية حال، فإنه لا يبقى لنا إلا أن نحص الحريمة باستخدام المتوافر لنا من عناصر - على طريقة البحث الجنائي الحديث - وهي: الحاي، المجني عليه، الركن المادي (العمل الإجرامي)، والركن المعنوي (نية القتل)

- الجنائي. رجل مونتور عثر عن كراهيته مسبقاً، بقوله باكياً وهو يربت رؤوس الأسرى من بني قومه «أكل عمر كبدي». وقام بتهديد ضحيته قبل ارتكابه الجريمة

- المجني عليه: أعلن تلقيه التهديد ولكنه لم يأخذه مأخذ الحد ويتوافر بحقه ما يدفع الجنائي لارتكاب جريمته، من مسؤوليته عن مشاعر الغضب العنيفة عند القاتل.

- الركن المادي - الفعل - قيام الجنائي بإعداد السلاح (سحق الإصرار)،

وانتظاره المجيء عليه في المكان والزمان المعتاد وجوده فيها (الرَّصْد) إضافة لذلك فإن طبيعة المكان والزمان وصعوبة فرار القاتل معها بعد ارتكبه لجريمة من ناحية، وما يبدو واضحاً من تديره الأمر بدقة مسبقة من ناحية أخرى، يؤكدان أنه كان يدرك أنها عملية انتحارية لن يخرج منها حياً، أو على الأقل حراً. وعم أنه كان يستطيع أن يدبر اعتيلاً أقل خطورة عليه، كالترصص بعمر وهو يعس ليلاً في شوارع المدينة، حيث كان يدور وحيداً أو مع واحد أو اثنين من رفاقه. وهو بالتأكيد أضمن لنجاة القاتل من تعييده الاعتقال في مسجد مردحم وقت صلاة الجماعة.

- الركن المعوي - الية. توافر سبق الإصرار والرصد وتوجيه الطمعات - بعضها على الأقل - لمواضع قاتلة في حسد المحي عليه، يؤكدية القتل. ويؤكد قوله «لاصنعر رحي تتحدث بها الناس» أنه كان يرغب في إضفاء طابع «دعائي» لعمله.

كل هذا يؤكد أن هذا العمل يتمي لما يوصف به «جريمة الكراهية»، وهو نوع من الجرائم يغلب على مرتكبه ميل للدعائية من ناحية، والانتحارية من ناحية ثانية، والمحرك المتصري أو العقائدي من ناحية أخرى.

نعان ننظر في تلك الجريمة من وجهة نظر القاتل فهو رجل يتمي لدولة قوية اهارت أمام ضربات دولة كانت أضعف، بل وكانت تحت سيطرة دولة الكبرى ثم أخذ عبداً لعاصمة تلك الدولة ليعمل في خدمة أماس كان يبو قومه يرونهم أقل شأنًا. ورأى قيادات وأشراف بلاده يُحْمَلُونَ أسرى، فانفجر عصبه دافعاً إياه ليس لمجرد اغتيال رأس الدولة المنتصرة، بل قتله في قلب مقر الحكم - حيث كان المسجد مكاناً للصلاة والمشاورات - بين أصحابه في عاصمة حكمه. تلك هي «الرحى التي يتحدث بها الناس»، أن الخليفة عمر، الذي يتحدث المشرق والمغرب بانتصارات حيوشه، قد اغتاله علام

فارسي في المسجد بين رجال دولته أي أنه قد قصد كل خطوة فيها قام به، ولم يتم خطوة واحدة عقوبة أو ارتجالية.

ونصرف النظر عن نجاح عرصه الدعائي من عدمه، فإن العمل قد تم وكان ما كان.



الكرامية العنصرية بين العنصرين العربي والفارسي - باستثناء من اندمجوا من الفرس في الدولة الناشئة، وصاحموا بإسجازاتهم العظيمة في إردهارها في مختلف المجالات، ومن ارتفعوا من العرب على العنصرية القومية وتقبلوا مختلف العناصر المكونة للمجتمع - هي مما تتكرر مظاهره في التاريخ المشرق، وبمعكس ما يجب بعض المؤرخين المسلمين اتحاده تفسيراً من أن الكرامية من قبل بعض الفرس للعرب هي «حقاً على الإسلام والمسلمين»، فإن تلك المشاعر العدائية متوافرة منذ ما قبل الإسلام، منذ قيام الفرس بإخضاع عرب العراق والمناطق المتاحة لدولتهم بالجزيرة، و«تدجينهم» وإقامتهم «دولة وظيفية» هي دولة المادرة، لتكون بمثابة نخل القط الفارسي في المنطقة العربية. وقد كانت الأوجه العنيفة منها تظهر من حين لآخر كقيام السلطات الفارسية بإسقاط دولة المادرة، وقتل مدكمها النعمان بن المنذر، بعد أن تمرد على طلب مهين من الملك الفارسي؛ أن يرسل الملك العربي بعض نساء بيته لينضممن لحريم كسرى، أو كعمركة «دي فار» بين قبائل عربية تمردت أخيراً على السطوة الفارسية، واستطاعت أن تهزم جيش الفرس شر هزيمة، وهو ما نُقِلَ عن الرسول محمد تعليقاً عليه بأنه «يوم انتصف فيه العرب من العجم».

وستظل تلك الكرامية برأسها بعد ذلك خلال التاريخ الإسلامي الطويل، سواء في انتفاص النظام الأموي من حقوق غير العرب - حتى

المسمى منهم، ما سيدفع القُرم منهم للاتصام بالدعوة العباسية التي أسقطت الأمويين - أو في حالة التَّخزُّب القارسي العربي - والتي انضمت لها عناصر التركية كمنافس ثالث - خلال العصر العباسي - وحتى الصراع الإيراني العربي الحالي يعتبره البعض - ومنهم كاتب هذه السطور - حلقة من لصدام القارسي العربي، وإن أخذت شكلاً طائفيًا. ولكن على أية حال هذا أمر يطول ويخرج ما عن موضوع الكتاب.

لكل ما سبق، فإن اغتيال الخليفة الثاني عمر من الخطابات، إن صُنِفَ بين أنواع جرائم الاغتيال السياسي، فإنه يضع هدفه - عمر - كأول ضحية لأول جريمة عصرية في التاريخ الإسلامي وإن كان المؤرخون المسلمون لم يسطروا له من تلك الزاوية، فإن هذا ليس مما يؤخذ عليهم، فكثيرًا ما يحتاج تفسير بعض أحداث التاريخ لأن يمضي من الوقت ما يكفي، تتشكل الصورة كاملة أمام عيني المدقق فيها.



عثمان بن عفان أول خليفة ظالم أم أول مظلوم؟

المدينة - ١٧ يونيو ٦٥٦م

شوارع المدينة تموج بالرعب. الرؤوس تتقارب وتتساعد متبادلة همسات الإشفاق مما هو آتٍ. ترمق العرباء المسلحين يطوفون بالطرقات، وهم يوزعون على أهل البلد - الذي كان آمناً - مظاهرات التحدي. أربعون يوماً حل فيها صليل السلاح محل الحوار، والجنون محل العقل، وابعث محل المنطق والخوف من وراء كل ذلك محيط.

جاءت ريح السموم من البصرة والكوفة ومصر، حاملة حبشها حدًا وحديدًا ورجالاً. دمدمت في جنات المدينة وتمكررت حول دار الخلافة لم تردعها عن اقتحامها سوى حلقة شمالية محكمة، أحاطت بالدار وأشهرت السلاح في وجه المعتدين، مدبرة من يجسر على مجرد التكبير في حماقة ما بسوء المصير. لم تقدر الحموع الوفادة إلا على محاصرة الخليفة في بيته، مانعة عنه الطعام والشراب، حتى لم يعد يصلها إلا بالتحايل والمساورة فوق السطح المحاط بجحافل النعمة، يقف شيخ حبل وقد علت وجهه المنيح - الذي يحمل أثرًا جلدري قديم - علامات الألم. يتحسس بلسانه فمه

اليابس عطشاً مسترجعاً يوماً بذل فيه حير ماله يشتري بثراً طالما سقت عطشى البشر والدواب تحسن مواضع قدميه متقيّاً التقدم لطرف السطح، خشية حجارة اعتاد المهاجمون رشقه بها عند رؤيته قرقرت معدته جوعاً لعد عهدهما عن الطعام، بعد أن شدد عليه الناثرون به الحصار. رمق حفنة المدافعين عن حرمة داره.. الحسن والحسين ابنا علي محمد بن طلحة بن عبيد الله. عبدالله بن الزبير وآخرون لا يميزهم. يتصارع فيه شعوران، إشفاقه على شابههم من سيوف لا تالي بحرمة الدم فضلاً عن حرمة مدينة الرسول. وإكبار لشهامة من جعلوا حلافهم الحاد معه نقرة، ورد المجترئين عليه نقرة أخرى.

ما زال الهواء يحمل رائحة قيام المحاصرين بحرق باب الدار في محاولة لاقتحامها، غصّاً لمقتل أحدهم بحجر في مناوشات مع المدافعين.

- «الخلع أو القتل يا عثمان!»

- «ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله!»

- «أخرج لنا مروان!»

- «ما كنت لأسلم ابن عمي!»

- «أليس البعير الذي استوقفنا لك؟»

- «بلى ولكن حرج بعير طلبي!»

- «والغلام أهول لك؟»

- «بلى ولكن أرسل بعير رأيي»

- «والكتاب الذي فيه أمرك عمالك على مصر والمصرة والكوفة يقتلنا

وصلبنا وضرب أحسادنا، أهو كتابك؟»

- «اللهم كُتِبَ بغير علمي!»

- «قد عرفنا خط مروان بن الحكم في الكتاب فأسلمه لنا تسلم»

- «وأنا قد قلت لا أسلم ابن عمي!»
- «أنت إدد إما كاذب وإما عاجز! اعتزل أو ليس بيننا وبينك إلا
السيف!»

نزل عن سطح الدار، وهو يسترجع إلحاح معاوية عليه، قبل رحيل هذا
الآخر إلى ولايته بالشام.
- «أرسل لك جنودًا يكونون لك وفاة!»
- «تصيق بهم مدينة رسول الله وأهلها»
- «إدد ترحل معي إلى الشام»
- «لا أترك دار الخلافة!»
- «فلتسحق بمكة إذن!»
- «يطلبوني فيتهكرونها»
- «ستقتل وتُعير بك!»
- «إن قُتلت فأنت وليّ دمي»

كان يحسب من ثاروا عليه إنها يطلبونه وحده، ولا يؤذون أهل المدينة،
نكسهم دهموا المدينة وحصروا أهلها في دورهم. حتى أصحاب الرسول لم
يوقروهم هذا عبد الله بن سلام ينذرهم «إن أمر المسلمين يستقيم بالدرة،
فإن دخل فيه السيف لم يستقم إلا بالسيف!» فصر يوه وأهاليوه وصاحوا به
«يا ابن اليهودية!» معرضين بدينه السابق. أخيرًا لم يجد إلا أن يرسل لمعاوية
يستغيثه أن يجد المدينة بجند الشام. لكن المسافة بعيدة. والقرار قد تأخر
كثيرًا أكثر مما ينبغي

دحل إلى غرفته وهو يرمق زوجه مائلة بنت الغرافصة، مشفقًا عليها من
مصير مجهول. المسكينة. لكانها جاءت من بلادها لتواجه معه حصارًا ونارًا
ومصيرًا لا يعلمه إلا الله.

أعلق الباب عليه وجلس مطرقاً تناول مصحفه وفتح، محاولاً هروب
إلى آيات الله من أصوات المحاصرين المرعجة، وهو أجسه الأكثر إزعاجاً.



فغر الباب فاه مبتلعاً الرجال الثلاثة في جوفه ثم اغلق عليهم وثبوا
يتسلفون السور إلى دار مجاورة. دار الخليفة.
شفوا طريقهم متسدين في صمت، حتى سمعوا صوتاً خافتاً يقرأ القرآن،
وأشار أَوْهم لرفيقه هامساً: «إن امرأته بالدار فالزموا مكانكما أنظر لكما الطريق
فإن كان معرّداً بادرياه بسيوفنا ثم فتش عن مروان لندحقه به» أو ما برأسيهما
والتصقوا بالحدار متدثرين بالظلي. استل سلاحه وسار متحسباً طريقه، الذي
وصفه له صديقه محمد بن حديفة، ذلك الفتى الذي رياه عثمان في حجره
بعد موت أبيه، فلما تولى مربيه الخلافة طلب محمد منه أن يوليه عملاً فأبى،
فغضب الفتى وهجر ولي نعمته وانضم للمنقلبين عيه.

بلغ باب حجرة عثمان، فكتم أنفاسه يتأكد أن أحداً لم يحس تسلمه ومن
معه، حتى إذا اطمأن لذلك دفعه بقدمه واثماً على الشيخ المترع بين يديه
المصحف لم يدر عثمان إلا ومحمد بن أبي بكر واضعاً ركبته على صدره
جاذباً بعنف لحية الشيخ الفاني.

«يا عثمان! ماذا فعل الله بك؟» صاح به مشتمناً

رفع إلى الشاب عيين لا تطرفان، وقال بصوتٍ قد خلا من أي أثر
للخوف من النصل الملتصق بعنقه «يا بن أخي، لم يكن أبوك ليرضى منث
بهذا الموضع!»

وكأبها صب الشيخ ماءً بارداً على حمرة مشتعلة بصدر الفتى، الذي أخذه
رعدة عاتية دفعت أصابعه للتراخي عن لحية فريسته تراجع والأرض تميد

به وقد ملأت الفراغ أمامه صورة أبيه برمقه عاصباً. تراجع خطوة إلى الوراء
 فاصطدم برقيقه اللذين تبعاه فور اقتحامه حلوة الخليقة، فالتفت لهما رافعاً
 يداً مرتجفة تستوقفهما. هوت صرحة نائلة على كيانه وقد استدعاها صوت
 العذر لم يدر أحد متى ظهرت لترمي جسدها على زوجها تقيه الخطر. تلقى
 محمد دفعة قوية من كتف أحد رقيقه وهما يشبان على الضحية المستكينه،
 ويزيحان المرأة المولولة جانباً مدت كمها باستماتة فأطاح سيف بأصابعها،
 لتصفع الأجزاء المستورة الدامية وجه ابن أبي بكر الذي مزق كيانه صوت
 النصال وهي تشق الجسد النحيل، وتوقع بدم الخليقة على صفحات مصحفه
 الشاهد عن الجريمة



لطمة عاتية هوت على وجه الحس، ثم صريرة لا تقل قوة كادت تحطم
 صدر الحس، مد محمد من طلحة يده محاولاً إيقاف العاصفة البشرية التي
 داهمتهم، فاهالت عليه وعلى عبد الله بن الزبير لعنات الرجل المشتعل
 غضباً كبيراً كان

«كيف قُتِلَ أمير المؤمنين وأثم وقوف؟!» بصقها علي بن أبي طالب
 في وحوه علقها الحسرة، فاستجمع ابن طلحة نفسه محيياً «يا أبا الحسن لا
 تلطم ولا تسب ولا تلعن. فوالله لقد بدلنا ما في وسعنا. ولو دُفِع مروان
 لهم ما قُتِلَ».

رفع إليه عيتين زائغتين ثم أزاحه جانباً مهرولاً إلى داخل الدار المكلمة
 بفقد سيدها الحليل، وهو يكتنم ألماً عاتياً محتشداً في غصة تكوي حوفه حتى
 الاحتراق



تتحطم أقفال الصندوق المغلق ويرتفع عطاؤه، فتطوق الشرور التي
كانت حبيسته تعيث في جنبات الأرض والأرض - الأرض تهتز لهول
الحدث العظيم.

تُسكِر نشوة الدم المتعذبين، فيهتاجون لها حينئذ، ثم تذهب السكره
فيعقبها الدم والإشفاق من هول ما ينتظرهم من مصير إن أصابتهم عصاة
أهل المدينة المكلمين في خليعتهم. تتقارب رؤوس القنعة وتتساعد، وقد
استقرت على أن تلك النار التي أوقدوها يجب أن ترداد انتقاداً، وإلا لن تحم
الجميع ضدهم. يتفقون أن لا بد من خليفة بديل يؤتى به فوراً فيحتمون
به. يهرعون إلى طلحة بن عبيد الله يعرضونها عليه فيترأسهم، فيطلقون
إلى الزبير بن العوام يلتجئون إليه فيطردهم كيف العمل إذن وقد علم
الجميع أن الرحلين لم يكونا ليرضيا عن قتل عثمان؟ أحيراً يسقط في أيديهم
فلا يجدون إلا أن يحتموا علي بن أبي طالب علي؟ إنها فكرة مجنونة وعاطرة
بالغة، فعلي أخطر الثلاثة، وقد كان أشرس مدافع عن عثمان، ولو قدر
عليهم لأوقع بهم وقعة عظيمة ولكن أين الفرار من الأسد إلا لعينه؟
ذهبوا من فورهم إليه وألحوا وقد لعنوا علي وترأى أمة ملا خليفة هي أمة
ضائعة أحيراً يوافق ولكن على شرط أن تكون بيعته علنية على رؤوس
الأشهاد يتشدد في شرطه فلا يسعهم إلا قبوله، فيقف على المبر وتؤخذ له
البيعة من الناس، فيتصيح لهم الفتح الذي أوقعهم به فسيعة الناس قد صار
جلياً أن شرعية خلافة ابن أبي طالب مستمدة من الرعية، وليس من جرمهم
المشهد أو قوتهم المسلحة. وأن وقتاً يسيراً يفصلهم عن قطع رقابهم جراء
بها فعلوا. يتبادلون الطرقات وقد أدركوا أن علياً المخضرم لن يكون دمية في
أيديهم. وأنه لا بد أخذهم بدم عثمان فور استقرار الأوضاع. على الأوصاع
إذن ألا تستقر. عادت الرؤوس المثقلة باللائم تتقارب وتتساعد، وقد أصمر
أصحابها الأمر. بايعوا الخليفة الجديد وفي القلوب السوداء ما بها. انطلق

معصهم إلى البصرة وبعضهم إلى الكوفة واستقر البعض الآخر في المدينة، وقد اتفق أهل الجهات الثلاث على التراسل والتدبر سرًا. هكذا دارت رحي الفتنة.

في مكة هبت عاتشة بنت أبي بكر - أم المؤمنين - تدعو لطلب دم عثمان في دمشق نصب معاوية قميص الخليفة المقتول والأصابع المبتورة لوجهه على المنبر، وحوله الناس ييكون ويتوعدون. في المدينة بدأ علي في تدير أمر استقرار الدولة لإطفاء نار الفتنة توطئة لمعاينة المتأمرين هكذا عرف هؤلاء الأحرار أعداءهم، فازدادوا إصرارًا على تعديده نار كيلا تُطفأ سماتهم.



بعد قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وأحدًا من أكثر أحداث التاريخ الإسلامي إثارة للجدل، بين متعاطف مع عثمان أو متحامل عليه، وبينهم من يرفض قتله لكنه يرحمه لسوء سياسته في النصف الثاني من خلافته. فقد حكم عثمان ١٢ سنة، شهد نصفها استقرارًا وهدوءًا للأوضاع، بينها شتم نصفها الآخر بالأحداث العنيفة ماديًا ومعنويًا

السؤال هو: ما الذي جعل من ابن عفان هدفًا لنقمة الناقمين، ودفع لأمور للتطور بهذا الشكل الدرامي المريع، لندي بلع حد قتل خليفة في جوف داره؟

والسؤال الآخر: كيف يمكن أن يفرق بين من «عارضوا» عثمان - مجرد المعارضة السلمية - ومن «تمردوا» ضده بشكل مسلح بلع حد إهذار دمه؟ يتطلب هذا ما أن تراجع تفاصيل المسائل الخلافية التي أثارها عهد الخليفة عثمان بن عفان.



بدايةً، كان عهد عثمان بمثابة «نقطة» من مرحلة في تاريخ الخلافة لمرحلة تالية، فالمرحلة الأولى تميزت أولاً بصرامة السلطة المركزية، المتمثلة في نظام عمر بن الخطاب الذي كان متشدداً في بعض الأمور، كالرقابة على ولايته، وتوزيع الثروات الواردة على الدولة من حركة الفتوحات الكبرى، وتنقلات كبار الصحابة خارج المدينة وثانياً تميزت بانشغال الدولة والمجتمع بعمليات التوسع والغزو وثالثاً فقد كانت النعرات القبلية السابقة قد تراجعت، مؤقتاً، وأخيراً فقد تميزت كذلك بتصدُّر الأسماء البارزة من كبار الصحابة للوظائف والمهام القيادية، بالذات الولايات على «الأمصار» كمصر ومدن العراق والشام، وقد كان أغلبهم قرشيين بطبيعة الحال.

أما بداية المرحلة التالية التي اُفتتحت بعهد الخليفة الثالث، فقد امتازت أولاً بالتحقق الشديد من سيطرة السلطة المركزية على أعمال الولاة، وثانياً بتعمير السياسات المالية، وتخفيف كثير من قيود التعامل مع المال العام، وثالثاً بإحداث تعديل في وحوه الولاة وتمثي السلطة، ورابعاً بتوقف - مؤقت - لعمليات الغزو والتوسع، ما رتب حالة من الالتفات المجتمعي لأحوال الداخل، وحامساً ببرور الرعامات السياسية، سواء كانت من بعض الصحابة، أو من الزعامات القبلية التي عادت أطباعها في مزاحمة قريش على تصدر المشهد للإطلال برأسها، وأخيراً أشأت ظاهرة تكديس الثروات، نظراً لتفرغ المنشغلين سابقاً بأعمال الغزو لممارسة التجارة والأسشطة المالية

تلك التعديلات لم يكن بعضها منفصلاً عن بعض، بالعكس فقد ترتب كل تغير منها على الآخر وارتبط به. ولأن أي تغير سياسي مجتمعي لا بد أن يحدث حلحلة في استقرار الدولة، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ فئة معارضة لتلك التوجهات، إما عن رفض لفكرة التغيير ذاتها، وإما لمعص التعديلات كل على حدة، أو لرغبة في استغلال هذه الظروف لتحقيق مكاسب شخصية أو قومية.

ومما يلي تفصيل لأبرز تلك التغيرات المثيرة للجدل.

- الولاية.

بعد فترة من استقرار نسبي للولاية المرتبطين بمعهد عمر بن الخطاب في ولايتهم، قام عثمان بن عفان بحركة تبديل لأصحاب تلك المهام. فعين الوليد بن عقبة بن أبي المغيث على الكوفة، وولى عبدالله بن عامر على البصرة، وعبدالله بن أبي السرح على مصر، وأصاف الأردن وفلسطين لمعاوية بن أبي سفيان رائدة على ولايته على الشام منذ عهد عمر. وجعل مروان بن الحكم من أبي العاص مستشاراً له.

دلت التبديل آثاراً لفظاً كبيراً، أولاً لأن هؤلاء الولاية كانوا من بني أمية، بل وكان بعضهم من أقرب سبي أمية، فعقبة أخو عثمان لأمه، وابن أبي السرح كان أحاه في الرصاعة، ومعاوية ومروان كانا سبي عمومته.

ثانياً فإن بعض هؤلاء الولاية كانت لأشخاصهم انتقادات قاسية، فعقبة بن الوليد كان من فئة «الطلقاء». أي أهل مكة الذين عُيِيَ عنهم بموجب قول الرسول محمد «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وكانت له حادثة شهيرة حين أرسله الرسول لجمع صدقات بني المصطلق، فخشي على نفسه فرجع إلى المدينة مدعياً أنهم منعوه، فجهز النبي حملة تأديبية لبني المصطلق، ثم رجع عنها بعد أن علم بأكذب الادعاء، ووصف القرآن عقبة «العاسق» في الآية «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»، فضلاً عما عُرف عن عقبة من أنه لم يكن على القدر المطلوب من الالتزام السلوكي.

وعبدالله بن أبي السرح كان كاتباً للوحي، ولكنه ارتد وهرب إلى مكة معتدلاً أنه كان يحرف ما يُعْلَى عليه، فأمر الرسول بقتله عند فتح مكة لكنه - عبدالله أعلن عودته للإسلام، وشفع له عثمان فقبل النبي شفاعته

وعند الله من عامر كان شاباً لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، حل محل رجل مجرب حبير هو أبو موسى الأشعري. فأثر ذلك سحق الناس

ومروان بن الحكم كان متعطرًا فجًا شديد الرعونة، عُرف بإثارة المشكلات

إضافة لكل ما سبق، فإن تقديم عثمان لسي أمية في الولايات قد استمر كثيرًا من الصحابة، لما استشعروا من أن ذلك من قبيل التعصب القبلي، وتأسيس «دنة حاكمة» لا تقوم على الكفاءة بل تقوم على العصبية والسب وهو ما يُقَلِّع عن عمر بن الخطاب أنه - في وصيته عند احتضاره - قد حذر عثمان منه إن هو تولى الخلافة، وقال له «لا ترفع سي المعبط - كناية عن سي أمية - على رقاب الناس»، بل وأندره أنه إن فعل ذلك فسيعرض نفسه للثورة والقتل.

- بيت المال.

المسألة الخلافية الثانية كانت سياسات عثمان في بيت المال، فبما كان عمر شديد الصرامة في ما يتعلق بالمال العام، أبدى عثمان ما رآه «مروية»، فكان يسمح أحياناً بأن يقرض بعض ولاته من بيت المال ثم يردوا ما اقترضوا منه. فكان الصحابة يرفضون ذلك خوفاً من اختلاط المال العام بالخاص، وما قد يشأ عنه من حالات اختلاس وصياغ للأموال العامة، بينما كان عثمان لا يرى بأساً في ذلك ما دام المقرض التزم الرد.

كذلك كانت هبات عثمان لبعض قرأته تستفز المعارضين له، فكانوا يتهمونه بأنه يهب لهم من «مال المسلمين»، بينما كان يؤكد أنه إنما يهب من حر ماله. ولكنه كان يقصر في تبين ذلك في حبه، ما فتح الباب على مصراعيه للتشكيك في ذمته المالية.

ـ الثروات:

ومن أبرز مسائل الخلاف مع عثمان، كانت مسألة تكديس الثروات. فقد سمح عثمان بعمليات «تبديل الأراضي». ومعنى تبديل الأراضي ـ اختصاراً ـ هو أن بعض الناس كانت لهم أراضٍ في البلدان المفتوحة، حاروها بحكم اشتراكهم في الفتوحات، ولهم أراضٍ أخرى في الحزيرة العربية. فكانت متاعتهم أراضيهم هنا وهناك تمثل عبئاً ثقيلاً عليهم، فسمح لهم عثمان باستبدال الأراضي، بحيث يتمكن من يرغب منهم في ذلك من جمع ملكيته للأراضي في مكان واحد أو أماكن متفرقة. وترتب على ذلك أن استعادوا من فارق القيمة، وكذلك من مضاعفة الإنتاج بظراً لروال أعباء متابعة أراضي متفرقة.

إضافة لذلك، فقد أدت عمليات التغيير في سياسات توزيع المكتسبات المادية من الفتوحات السابقة، لحالة من العبرة بين العنات المختلفة، إذ كان بعضها يرى أن هذه السياسة أو تلك قد ظلمتهم لصالح غيرهم، وهكذا.

هذه المسألة بالذات أعادت النعرات القبلية والعشائرية للبروز إضافة لأن بعض الصحابة ـ وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري ـ قد رأوا مشكلة في الثراء ذاته، حيث كانوا يدعون لتقسيم الثروات بشكل متساوٍ بين الرعية، وهذا بأخذ فضل أموال الأعيان وتوزيعه على الفقراء، بحيث لا يمتلك إنسان أكثر من حاجته، وهو ما عارضه كل من عثمان والطبقة الثرية الناشئة، فعثمان قد رأى في ذلك سلماً للأموال بغير الحق، والأثرياء قد رأوا فيه تهديداً لمكانة استحقوا اكتسابها. وبقي أبو ذر يثير المشكلات هذا الشأن في الشام، فشكاه واليها معاوية لعثمان الذي استدعاه للمدينة ثم بعاه خارجها محدداً إقامته.

- مسائل خلافية متفرقة -

إضافة لكل ما سبق، فإن ثمة قرارات وسياسات قد عابها معارضو عثمان عليه.

أولها كانت قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب، الذي ثار فقتل جميعة والمزمزان واسة صغيرة لأبي لؤلؤة قاتل أبيه. فاستشار عثمان لصحابة بشأنه، فقال علي بوجوب قتله قصاصاً، واستنكر البعض ذلك قائلين «يُقتل عمر بالأمس واسة اليوم؟»، فرأى عثمان أنه ولي الدم بصفته الخليفة - لأن من قُتلوا لأهل لهم - ففرض بالدية - كما لولي الدم شرعاً أن يقضي - ودفعها من ماله. فانتقد حصومه ذلك ورأوه تجاوزاً للتشريع القرآني في القتل العمد.

ثانيها كان سماحه للحكم بن أبي العاص الأموي - أبي مروان بن الحكم - بالرجوع للإقامة في المدينة، وكان الرسول محمد قد نغاه للطائف لإيذائه إيّاه. فلما تولى عثمان الخلافة أرجعه من منغاه مطلب أنه مروان.

ثالثها كان قيام عثمان بجمع المصحف، وهو عمل كان أبو بكر قد بدأه، ثم تبعه في ذلك عمر بن الخطاب، فلما استُخلفَ عثمان بن عفان قام بجمع مصحف موحد على قراءة واحدة، خوفاً من تحريف القرآن بحكم اختلاف لهجات القبائل.

رابعها كان ما سلف ذكره من نفيه أما ذر الغفاري، ثم احتداده على عمار بن ياسر إلى حد قيامه بضربه حتى أصابه فتاق. ففضبت قبيلة غمار لأبي ذر، وغضب هو محزون لعمار بن ياسر الذي كان من مواليهم، وانضمت كلتا القبيلتان لجبهة المعارضة.



كانت تلك السياسات من أبرز ما جعل الخليفة هدفًا لسهام الانتقاد الدقاسية، التي مست مسائل أخرى شخصية وعامة - يصيق المجال عن تفصيلها - بحيل في شأنها لكتب التاريخ - إدرأى من انتقده أنه قد حالف ما تعهد به عند مبايعته أن يلتزم منهج الشيخين - أبي بكر وعمر - وألا يغير فيه شيئاً ولا نفعل - إضافة لذلك - بعض «العوامل المساعدة»، كاستغلال بعض اقبائل والعشائر تكوّن جهة معارضة قوية، لتصفية حساباتها مع قريش ممثلة في عثمان، آملة أن تؤدي الإطاحة به للإطاحة بسطوة قريش برمتها. وحساسيات العصر تجاه عثمان، كمرو بن العاص الذي أعصاه عرله إياه عن مصر، والسياسات المالية الاستنزافية التي اتبعها حلقه عبد الله بن أبي السرح، في تلك الولاية التي يتعنت بها ابن العاص بشكل واضح أو كمحمد بن أبي حذيفة - ربيب عثمان - الذي كان يطمح في أن يوليه عملاً فلم يرفض اشتقعه، أو كمن رأوا أن علي بن أبي طالب كان أحق بالخلافة، وعلى رأسهم عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري ومحمد بن أبي بكر، وفسروا اختيار عثمان خليفة، بأنه ميل من طلبة التحار والأثرياء لمن هو «مهم» بشكل أو بآخر.

وإن كانت ثمة ملاحظة في تفاعل عثمان مع تلك الانتقادات، فهي أن رده عليها كان يتسم بالبطء والتأخر والصعف. ولم يكن يستيق الأحداث، فيقدم لكل عمل منه تفسيره وتبنيه على الملأ كما كان سلفاه يفعلان فكان هذا مما يعتج الداب للمترصين به أن يشككوا فيه، سواء من ناحية الكفاءة أو الأمانة، رغم أن تاريخه السابق ينعيه عه أية انتحارات من هذا القبيل. وهذا بالتأكيد مما يعيب سياسة عثمان، الذي يبدو جلياً أنه كان حسس النوايا بشكل مفرط، ومؤيد

وإن كان دفاع عثمان عن نفسه قد تأخر، فإنه يستحق النظر، بل وربما يجد القارئ له في كتب التاريخ ما يلتبس منه العذر للرجل

دعى ولاته، فسر موقفه بأن من حق الخليفة أن يعين من يراه ملائماً من وجهة نظره لتنفيذ سياساته. وأن هؤلاء القوم من قرابته سيحرصون على إدارة العمل بشكل لا يسيء له. وعن أشخاص بعضهم ممن نالته الانتقادات، فقد كان التبرير هو أن هذا عهد مضى منهم وأنهم قد تابوا وأحسنوا.

وعن سياساته المالية، أكد عثمان أنه لا ييب إلا من ماله حباً وصلة لقربته، وحلف للناس على ذلك، وأنه في شأن الاقتراض من بيت المال إنما قد مارس حقه في الاجتهاد، بما لا يراه يضر بهال المسلمين. وعن رده الحكم بن أبي العاص، قال إنه كان قد حدث الرسول في شأنه وحصل منه على وعد برده من المنى، لكن وفاة الرسول حالت دون ذلك، ففعله هو بما له من حق كحليمة للرسول.

وأما جمع المصحف، فقد كانت علة ذلك هي ما جرى من تعصب أهل كل قراءة لقراءتهم، إلى حد التصارب والنشاتم والتكبر، فجمع القرآن على هجة قريش، ووحده كيلا يحرفه اختلاف الألسنة واللهجات.

وبصرف النظر عن مدى اقتناع القارئ بمبررات عثمان من عدمه، فإنها تستحق النظر، وإن كان بعضها - كتقديمه بني أمية - يؤكد القول بأنه كان حسن النوايا إلى حد الإفراط الصار، سواء بالدولة أو بنفسه.



جدير بالذكر أن معارضة عثمان من عفان كان أولها جهراً، وهو ما كان من قتل بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب وأبي در العفاري وعمار بن ياسر وغيرهم، وهي معارضة كانت - على حدتها أحياناً - براءة واضحة ولكن تلك التي أشعلت الأوضاع وأثارت الفتن كانت المعارضة التي أخذت شكل الحركة السرية.

فهذه الفئة من حصوم الخليفة، كانت قياداتها قد أضمرت أمرها سرا بين مصر والكوفة والبصرة، والتقت في مكة - وبصحبة كل منهم أتباعه - بحجة أداء العمرة، ثم انطلقت حشودهم للمدينة تباعتها ثورة عاتية في العام ٦٥٥م - ٦٥٦م، رافعة مطالبها التي كانت رجع ما شكوا منه من مظالم، وتحسين السياسات المالية بما يحقق ما رأوه عدلاً، وعزل الولاة لمصوب عليهم شعياً وتعيين من يوافق أهل كل بلد عليه من الولاة، وبعض المطالب المتعلقة بالبعوث الحربية الخارجية - وأظهروا التهديد بما لا تحمد عقاه إن لم يُستجب لتلك المطالب.

وتوسط عبي وبعض الصحابة لتحقيق التناهم حول نكت المطالب بين المرينين، فريق الخليفة وفريق المتظاهرين عليه، أبدى عثمان الدين، فأعلن موافقته على مطالب الواقدين عليه، ووقف عن منبر المسجد النبوي يعلن براءته مما نسب إليه، وتوخته إن كان قد أخطأ. وهذا بدا أن الأزمة في طريقها للانفراج.

ولكن لم يكف الناس يتنفسون الصعداء، حتى استوقف بعض الثائرين علماً مملوكاً للخليفة، كان ينطلق على بعيره متوجهاً لمصر، وفتشوه ليجدوا معه كتاباً يأمر والي مصر بالقصص على من يرجع له من متمردي ولايته، وأن يعاقبهم بالضرب والقتل والتنكيل، فراحوا عثمان بتلك الرسالة فتعنى أن يكون قد كتبها أو أرسلها - ولأن بعضهم قد ميز حط مروان بن الحكم بها، فقد استنتجوا أنه هو من استغل عفلة من الخليفة فأرسلها من تلقاء نفسه، متسلطاً بشكل فج على أعمال الخلافة فطالبوا عثمان بتسليمه لهم ليطروا في أمره، فرفض ذلك، وإن كان لم يقره على ما ارتكب.

هنا عاد الوضع للاشتعال، خاصة وقد حرص من لديهم خلاف شخصي مع الخليفة أن يستغلوا تلك الواقعة، لزرع فكرة أن ليس بين الثائرين وبين الخليفة إلا العزل أو القتل. وسخط ماصحو عثمان - وعن رأسهم علي بن

أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والربيع بن العوام - من تسلط قريبه مروان بن الحكم عليه، وتحكمه في ما لا يحق له التحكم به، فعرقوه واعتزلوه، وإن حرصوا على الدفاع عنه ضد أي مساس بشخصه.

وهكذا انطلقت كرة النار تدور وتلتقم ما أمامها وتنتثر النار حولها، حتى بلغت المأسة فصلها الدامي بقتل الخليفة الثالث، وتمزيق جسده في قلب بيته.



مشكلة الشاؤل التاريخي لأحداث الخروج على الخليفة عثمان بن عفان وحصاره وقلته، أنه كثيرًا ما يكون عرضة لـ «الأدلة» - أي التأثير بالفكر الذي يعتنقه الكاتب فيها - بين من يرى فيها صراعًا طقيًا أو صدامًا بين فكر اشتراكي يمثل معارضة عثمان، ونوجه رأسالي تمثل الدولة، أو فكر ثوري متعصب يحل أي خروج مسلح على الدولة، بصرف النظر عن مشروعيته ودوافعه وأحداثه ونتائجه، أو فكر ديني يجرم أي تحرك معارض باعتبار أنه «خروج على الحاكم» الذي يؤمن هؤلاء أن حقه على الرعية السمع والطاعة، ولو أخذ ما لهم وصرب ظهورهم، أو توجه لإصفاء الملائكية المعرطة على كل الأطراف، وتفسير أية صراعات داخلية في المجتمع الإسلامي أنها «مؤامرة خارجية من أعداء الإسلام»، كهؤلاء الذين اختصروا أسباب الأحداث الموصوفة بـ «الفئة الكبرى» في شخص لا يمكن تأكيد وجوده من عدمه، هو «عدالله بن ساء» الذي حتى لو كان حقيقياً فإنه لا يقدر وحده على تحريك كل تلك الأحداث، كأنها هو يد القدر مثلاً

هل كان عثمان خليفة ظالماً استحق ما أصابه؟ أم كان مظلوماً على طول الخط تكالست الظروف صده؟ الواقع أنني - مع احترامي لمختلف الآراء -

أرى رأياً وسطاً بين هذا وذاك، هو أن الخلافة إن كانت تتطلب - وفقاً لمعاييرها التي وضعها المؤسسون لها - شرطي القوة والأمانة لمظاهرها المختلفة، فإن عثمان بن عفان قد تمتع بالأمانة وحسن النية والإخلاص الشديد، ولكنه لم يتمتع بمطلب القوة، إذ تحول - على حد القول المنسوب لعلي بن أبي طالب - إلى سيقه في يد مروان بن الحكم.

كان عثمان طيباً حسن النية، والطيبة وحسن النية لم يكونا قط من مقومات الحكم. ولكنه لم يكن طاعية، فلم يرى قط طاعية يعترف بحطئه ويسعى للإصلاح ويمتنع عن استخدام القوة الباطنة لسحق معارضيهِ. وقد كانت متوافرة لديه نمشة في جسد الشام، الدين بقي محجماً عن استدعائهم إلا حين أحس أن الخطر قد يمتد ليشمل أهل المدينة.

على أية حال، يبقى هذا رأيي الخاص الذي لا ألزم القارئ به، احتراماً لحقه في تكوين وجهة نظره الخاصة في الأمور، ولكنني أنه القارئ إلى أن التاريخ الذي يقرأه ليس لملائكة أطهار ولا لشياطين رجيمه، وإنما هو تاريخ الإنسان الذي له ما له وعليه ما عليه.



علي بن أبي طالب..

قتيل وحشة الطريق

الكوفة - ٢٢ يناير ٦٦١م

عهده بحسده أنه لا يتأثر بتغير الطقس، كان يعلم أن كتفيه العريصتين إنما ترعجان امعالاً.. ومق من موقعه بيوت الكوفة التي تنتظر أذان الفجر ليوقظها.. غص بفكرة أنه يسا تنحلّ خيوط خلافته المتداعية على العراق والجزيرة وفارس؛ يزداد مُلك معاوية في الشام ارتباطاً. «الباس يأكلون على موائد معاوية لأن طعامه أدمم، ويُصلّون وراء علي لأن صلاته أسلم». هكذا يقال. معاوية يأمر جند الشام فيطيعون، وقد بايعوا على الموت دونه، هذا دون أن يبذل لهم المال، وهو يتألف جند العراق بكل عالٍ ورخيص، وهم يتناقلون عنه حتى صار بعض بناته مدمدماً.. «أعصى ويطاع معاوية!»..

أين.. متى... وماذا كان الخطأ؟

«نصحتك فعصيتني! نصحتك حين أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فلا يُقتل وأنت بها فأبيت! ثم نصحتك بعد قتله ألا تُبايع بالخلافة حتى

تأتيك وفود العرب والأمصار فلا يقطعون أمراً دونك؛ فأبيت! ثم
بصحتك حين خرجت هذه المرأة - عائشة - وهذان الرجلان - طلحة
والزبير - أن تجلس في بيتك حتى يصططحوا، فإذا كان فساد لم يكن من
قبلك؛ فأبيت!

هكذا قال له ابنه الحسن يوماً، في لحظة مكاشفة تخفف فيها من رهبة
أبيه عنده..

«هذه فتنة صباء! النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من
القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير
من الساعي! فأغمدوا السيوف واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد
حتى يلتئم هذا الأمر وتسجلي هذه الفتنة!»

بهذا نصحه أبو موسى الأشعري حين ورد جيش عليّ على العراق
يطلب من أهله نصرته..

«يا أمير المؤمنين، إنه لا يصلح هؤلاء إلا رجل يدنو منهم حتى يصير
في أكفهم، ثم يعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً
فاجعلي ثانياً أو ثالثاً، فإن عمرو بن العاص لن يعقد عقدة إلا حللتها،
ولن يحل عقدة عقدتها لك إلا عقدت أحكم منها»

وهذا الأحنف بن قيس - خير أكره عليّ على قول طلب معاوية
التحكيم - يسعى لإقناعه بإرساله ممثلاً عنه بدلاً من أبي موسى الأشعري،
في مواجهة عمرو بن العاص داهية العرب وممثل معاوية..

«إنك رجل شجاع ولكن لا إرب لك في الحرب! ألم تسمع رسول الله
يقول: الحرب خدعة؟»

قأها له عبدالله بن عباس محاولاً إثناءه عن قراره عزل ولاية عثمان وتعيين ولاية من قبله.. نصحه أن يتروى حتى تستقر له الأمور، وتؤخذ له بيعة الأمصار، حتى لا يستفص هؤلاء الولاية وأنصارهم فيمزقون الأمر عنه. ثم أصبح قول ابن عباس كالمضغة في أفواه الناس.. «عليّ رجل شجاع لكنه ليس حبيراً بالحرب»!

كلهم يلومونه، يُحمّلونه مسئولية انحلال الأمر من بين يديه، وصولاً لذلك الوضع المأساوي.. ألم يرّد على كل قول لهم بقول فيه الكفاية من الأعداء؟

فأما ترك المدينة حين أحيط بعثمان؛ فإن كل من بالمدينة كانوا محاصرين معه في داخلها لا يستطيعون معادرتها، بالذات هو.. وأما البيعة بالخلافة؛ فإنه كان يحشى أن ينفلت الأمر منه، وهو يرى أنه الأجدر به والأقدر عليه منذ وفاة الرسول، ولم يكن ليترك المسلمين دون خليفة. وأما أن يقعد في بيته حين خرجت عائشة وممها طلحة والزبير؛ فإنه لم يكن يقبل لنفسه أن يكون كالضيق المتربص في داره، ينظر ما تذهب إليه الأمور..

وأما ما نصحه به أبو موسى فلم يكن ممكناً. كيف يترك الخليفة قوماً يحملون السلاح ويطلبون الثأر بأيديهم، ولو كانوا روج الرسول وصاحبيه؟ لو فعل لخرج أهل كل ثأر فقتلوا وعم الفساد الأرض!

وطلب الأحنف أن يجعله حكمه.. نال له ألم يكن الأحنف حاضراً إذ حمل بعض الجند السلاح وهددوه أمرين بقبول التحكيم؟ ألم يقل لهم «فاجعلوا حكمتنا ابن عباس»، لعلمه أنه كفء لمواجهة دهاء ابن العاص؛

فمعضوه وأبوا إلا أن يكون أبو موسى الأشعري، الذي إن كان تقياً فإنه مع ذلك ساذج يسهل خداعه؟

وأما اتهامهم إياه أنه «شجاع لكن لا علم له بالحرب» فبلى والله، هو العليم بالحرب والخدع، ولو شاء لكان من دهاة العرب، ولكن الدهية يفجر. وقد ابتلاه الله بأخبث الجنند. بأمرهم فيعصونه. ينصحهم فيهدّدونه. يستمرهم فيثاقلون عنه.. أخيراً يصبق مرارته في وجوههم صارخاً «يا أشباه الرجال ولا رجال! أجسام البغال وعقول رنات الحمال (الطفلة التي تمجّل)! لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله جرت ندماً وأعقبت سدماً قاتلكم الله، لقد ملأنم قلبي قبحاً، وشحنتم صدري عيظاً، وجرعتموني المر أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. ولكن لا رأي لمن لا يطاع!»

مثل يوماً عما تغير بالدنيا.. كيف صارت الأحوال إلى ما هم فيه؟ كيف تهاوى العالم من حوله، وقد كان منذ سوات قليلة متماسكاً؟ رفت على شفتيه بسمه مريرة وأجاب «كان من قلبي أئمة على من هو مثلي، واليوم أنا إمام على أمثالكم!»

* * *

تذكر رؤياه الرسول في نومه منذ أيام. شكاً له ما كان من قومه معه، فقال له «ادع عليهم»..
«اللهم أبدلني خيراً منهم، وأبدلهم شراً مني!»

* * *

كن من كان يستند إليهم في مواجهة العواصف قد صاروا بين راحل
 إلى المشوى الأخير، أو هاجر إلى عدو مقيم، أو شريكاً له في انعدام الحياة.
 أطلق سراح ضيق صدره في زفرة ملتفة. رفع إلى السماء عينان نظراتهما
 الكثير مما يُعجز الفصحاء - وهو أميرهم - عن النيان.. ألم يحبره رسول الله
 أن راحلاً يصربه بالسيف على رأسه حتى تبثل لحبته من الدم؟ «يا لله ماذا
 ينتظر؟»، كثيراً ما سُمع يقولها متململاً. قد استوحش كل شيء واستثقل
 الحياة نفسها. آه من قلة الراد، وبُعد السر.. ووحشة الطريق!

أخرجته خطوات من ثقيل أفكاره، التفت ملاحظاً مؤذن القوم يستعد
 لرفع الأذن، فقام متجهاً إلى داخل المسجد ليوقف اليام فيه توطئة للصلاة
 دُف عبر الباب وهو يستحضر بشاطأ يطرده وهو الهم عن جسده، منادياً
 «الصلاة الصلاة»..

فور عبوره الباب شق سمعه صغير يعرفه جيداً من كان مثله خبيراً بوقع
 السيف.. لم يكذب تلتفت حتى صافح النصل الحاد جهته وحامله يصرخ به
 «الحكم لله يا علي! لا لك ولا لأصحابك!»

تسكت الأصوات.. تسكن الحركات.. حتى ريح فجر الشتاء الكوفي
 يكف عن هز أغصان الشجرة القريبة. تتجمد كل الموحودات حتى يربتها
 دوي سقوط قطرة الدم، تلك التي تسلت عبر حجاب الوجه إلى اللحية،
 ثم هوت أرضاً، لتسائر في دوي تردد في أذنيه كقرع عنيف على طبل يهتك
 سكون ليل صحراء مهجورة..



نظر الطبيب في شعرة العير التي دسها في الجرح بقيس عمقه، فوجدها
 قد تلوثت ببادية بيضاء.. نظر صامتاً إلى الإمام المسجى في فراشه، فابتدره
 هذا قائلاً بابتسامة واهنة «هلم.. قلها».

أطرق الطبيب متمنياً «اعهد يا أمير المؤمنين، فإنك ميت»

- «لو قلت غير ذلك لكذبتك»، قالها وأسل جفنيه هنيهة، ثم رفعها

ملتفتاً للحسن وقال «أدخلوه علي»

لم تعصي ثوانٍ إلا والقاتل مائل بين يدي قتيله . تعرض بصر قليل يتفحص وجهه المتورم مما ناله من الضرب بأيدي الموتورين في خليفتهم .. عرفه سريعاً .. هذا أحد الخوارج الذين كان كلما صاحوا به في المسجد «الحكم لله يا علي» قال لهم بهدوء «كلمة حق يراد بها باطل»، وأردف «ومع ذلك، لا نمنعكم المسجد، ولا العطاء من بيت المال حتى ترفعوا علينا السيف» ..

كانوا كلما اشتطوا في العداء قائلهم بالحسنى، حتى اقترف بعضهم جريمة بشعة بحق عبد الله ابن الصحابي خباب بن الارت؛ فذبحوه وقتلوا امرأته وبقروا بطنها عن جبينها، فقط لأنه أظهر الرضا عن علي وعثمان ومن قال الخوارج بكفرهم . طلب منهم تسليم القاتل، فأجابوا بتحدٍ صفيق «كلنا قتلنا فانظر ما تفعل» . لم يعد من يد من امتشاق السيف، فلا قاهم في أرض حروراء وأنحهم قتلاً . هنا أصحابه بالنصر، فایتسم بمرارة مجيئاً «كلا بل هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء!»

«يا عدو الله ألم أحسن إليك؟»

- «بل والله»

«فما دفعكم أن تصنع ما صنعت؟»

«شعذت سبفي ودعوت الله أن يقتل به شر خلقه!»

- «ما أراك إلا مقتولاً به»، ثم عاد يلتفت للحسن آمراً «أحسنوا

إليه .. فإن حييت نظرت أمره، إن شئت اقتصصت وإن شئت عفوت . وإن أنا ميت فآلحقوه بي، ولا تمثلوا به ولا تسفكوا الدم تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين .. إنما هو رجل برجل» .



لم يمض يومان إلا وصاح النافع أن انعموا أمير المؤمنين. اختلف الناس في مآل الجثمان الكريم، قيل وُضِعَ على بعير، فنفر وانطلق، فلم يدركوه، ولم يعرفوا له قبرًا.. وقيل بل عُيِيَ على قره كيلا تشبه الخوارج.. وقال بعض آخر بل حمله الخسر فدفنه في المدينة. الله أعلم..

أَجَدَ الْقَاتِل - عبد الرحمن بن ملجم - لِيُقْتَلَ قِصَاصًا، فتقدم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب يتناول السيف صائحًا «دعوني أشعي نفسي منه».. أو ثقبوه وقطعوا يديه ورجليه. والقاتل لا يتأوه، إنما يُسَبِّحُ ويشتم بذكر الله (١١). حتى عندما كوا عينيه وسالتا على وجهه، لم يقطع عن التسبيح. لم يضطرب إلا حين حذوا لسانه ليقطعوه قبل ذبحه. قال «لا أحب أن أموت وقد انقطع ذكرى لله» أخيرًا قتلوه وأحرقوا جسده.. اتضح الأمر بعد ذلك. تعاهد القاتل مع بعض رفاقه على قتل من وصغروهم «رؤوس الفتنة». فكمن ابن ملجم للخليفة، وحاول رفيق له قتل معاوية في سجوده للصلاة، فأخطأ السيف رأسه وأصاب إتيته ليدركه الطبيب، وتوجه آخر لمصر مستهدفًا وإليها عمر بن العاص، الذي تصادف توعكه في اليوم المحدد لقتله، فخرج نائبه المدعو خارجة بدلًا منه، وحسب القاتل أنه عمرو، فضربه وأرداه، فقال عمرو «أرادني وأراد الله خارجة»

تبي كذلك أن القاتل كان قد حطب امرأة من خوارج الكوفة، فقدت بعض أهلها في معركة حروراء - مذبحة الخوارج الشهيرة - فطلبت أن يكون مهرها قتل علي بن أبي طالب، ليكون أغلى مهر عرفته العرب..

عرف الناس بذلك أن دابر الخوارج لم ينقطع يوم حروراء، وأنهم - ومن على شاكلتهم في تكفير خصومهم، وإهدار دمائهم، واستباحة قتلهم ونزويهم - باقون إلى يوم الدين، وإن اختلفت دعاواهم وتوعدت أسماؤهم

ونعوتهم.. وأن الإمام كان بعيد النظر حين قال «هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء»



إن كان حسد الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب قد قُتل في ذلك اليوم؛ فإنه كان قد داق الردى قبل ذلك مرارًا ..

قُتل عليّ يوم أقحمه قتلة عثمان في فستهم، ويوم كاد جيشه وجيش عائشة وطلحة والزبير - أصحاب الحمل - يصطلحان؛ فدفتر المتآمرون اشتباكًا عارضًا أسد الصلح ونسب في موقعة الجمل المأساوية..

قُتل يوم خاضه جند جيشه، فأذاقوه مرارة العصيان والتناقل، وتركوه وحيدًا في مواجهة الأنواء - يوم دفعوا عليه السلاح يأمرونه بقبول التحكيم، ثم في اليوم التالي رفعوه يأمرونه برفضه، وفي المرتين قالوها في وجهه بوقاحة غريبة «لتطيعنا أو لنقتلك كما قتلنا عثمان».

قُتل يوم انمض عنه أصحابه واحدًا تلو الآخر، يتوجهون لمعاوية يصبرونه عليه.. ومنهم من كان يمدحه من قبل قائلاً «لا فتى إلا علي!»

ويوم صرح الخوارج بوجهه في قلب المسجد يأمرونه أن يقر بالكفر ثم يعلن إيمانه من جديد، وهو الذي ربما كان يومًا ما رُبِع أو حُجِس الإسلام . لم يقتل السيف عليّ بن أبي طالب - بل قتلته وحشة الطريق ..

الحسن بن علي من قتل آخر الراشدين

دمشق.. ٦٦٢م

من رأوا الرسول محمد، كادوا يقسموا إن الرجل الواقف بمنزلة مسجد دمشق هو أشبه الناس به.

بين يديه جلس الناس، وفيهم معاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص ومروان بن الحكم وأوليد بن عتبة بن أبي المعيط

مال الأخير على أذن صاحبه هاشمًا «أويكون ما تريد؟»

انتسم مروان هازنًا وقال بثقة «لنرى» قد أعيت الأحداث لسابه. فالآن

يرى الناس حرقه ورثاة قوله فيصمر في أعينهم»

عادا يظن أن الحسن بن علي بن أبي طالب واقفا يحطب في الناس، بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقًا للدماء المصفون يعمدون أنه لم ينزل عنها صممًا أو خوفًا، بل صمًا بالمسلمين أن يقتلوا فيعني بعضهم بعضًا، وبعضًا لأهل العراق الذين لم يكفهم حد لانهم أماء فخذلوا الاس وتمددوا، فأهانوه إلى حد سرعة انفضاضهم عنه، لمجرد أن صائحًا جال بمعسكره يندركهم بوصول جيش معاوية، وقيامهم بنهب خيمته نهبًا فاحشًا بلغ حد

ضربه وانتزاع البساط الذي كان يجلس عليه. ثم بلغت بهم الصفاقة أن
عضوا عليه لتزوله عن الحكم لابن أبي سفيان فصاروا يصيحون به إذا مر
بهم «يا مدلل المؤمنين!» يتهمون به بالخين والتخاذل عن القتال لأحر رفق ضد
العثة الباغية ثكلتهم أمهاتهم. أي قتال ييغون وقد لمس بنفسه معنى قول
معاوية فيهم إنهم «أحبب الخلد»؟

اشترط على معاوية ثلاثة أن يقضي ديونه، وألا يمس من ناصروه
ضده، وأن يعود الحكم للحسن إذا مات معاوية في حياته. قبل معاوية
الشروط، واجتمع كبار الصحابة ورؤوس الناس يبايعون أول حلفاء بني
أمية، فيما حمل اسم «عام الجماعة» الذي انتهت فيه حرب ضارية فقد كل
بيت من العرب فيه أمة، وذاق منها مرارات.

«كانت بيدي جماجم العرب، فأبيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً
تشخب أوداجهم دماً، يحاجوني إلى الله فيم قُتلوا» أندروه بالعار فقال
بهذوه «العار خير من النار». استوقفه بعضهم وطعنه بفأس في فخذه فلم
يزده ذلك إلا حلاًماً. يتذكر قول جده عمه «لعل الله يصلح به بين فتيين
عظيمين من المؤمنين»

اتكأ على جانب المبر توطئة لأن يخطب في الناس، فتدثر الجمع بالصمت.
ذكر الله وأثنى عليه، صلى على جده والصحابة أجمعين. ثم ..
«أيها الناس. قد هُديتُم بأولنا، وحُقِّنت دماؤكم بأخونا»
صار للصمت دوي يُسمع. رفق مروان الوجه الممتقع للوليد وقد
أدرك فشل خطته.

نظر الحسن لمعاوية طويلاً، ابتسم وقال مشبهاً نظره عليه «ومن بدري.
لعلها فتنة ومتاع إلى حين؟»

مال معاوية على مروان والوليد قائلاً بسخرية «قد أذرتكما معصيتكما
هذا الذي أعجب لسانه؟!»

وبينما عرف له معاوية الفضل وأحسن معاملته، صار مروان بن الحكم وعصاته في استمزاز عشي مستمر له، كلما حصر بمجلس الخليفة.

- «قد أسرع الشيب إلى شاربك، وإنا نرى ذلك من الخرق!» يلقيها مروان فيردها الحس بالدع منها «بل نحن بني هاشم طيبة روائح أفواهنا، فنساؤنا يخبين تقيل الأفواه، فيصيب النحر شواربنا فتشيب، أما أنتم معشر بني أمية ففي أفواهكم بخر - رائحة كريهة - فنساؤكم يرغن من أفواهكم ويقبلن أصداعكم، فيشيب منكم حيث قلن»

يحاول مروان مذاكرة حرجه، فيطاهر بالتمخّط ويمسح وجهه بيمينه، فيتلقي القارعة من الحسن الذي يقول «أف لك! أما تعلم أن اليمين لمسح الوجه والشمال لمسح الفرج؟»

فلا يعرف ابن الحكم أين يذهب من هذا الذي يجلد بالكلام بلا هوادة، دون أن يعلو وجهه ولو عبوس سيّطاً!

يحاول ردها للحسن في مرة تالية، فيقول له في حضرة معاوية «إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء هي الغلظة» (الرغبة الحسية المفرطة) فلا تهنّز شعرة من رأس الرجل لأذع المنطق، وهو يجيب من فوره «بلى. جُعِلَت الغلظة في رجالنا، ونُرِعَت من رجالكم وجُعِلَت في سائكم، فلا يقوم لأمية إلا هاشمي»

يرمق معاوية الحسن محاولاً توقع رده هذه المرة. وبلاغة سي هاشم وقدرتهم العدة على سرعة الرد لا يجهلها أحد.

فيردد الإيوان ضحكات معاوية الذي يحترم اللعبة البارة، وهو يرمق مروان وقد ذاب في عرقه.



ويسمى لا يزيد الإفحام مروان إلا حماقة وعنادًا، يعرف معاوية للحسن بن علي قدره، فيصله بالأموال ويستقبله بمجلسه ولا يرد له طلبًا.

ويزيد هذا حاشية معاوية عيظًا، فيحاولون توجيه الإهانات للحسن الدين لا يتحل عن حلمه في مواجهتهم ويتحدى أحدهم - زياد بن أبيه - إلى العراق - فيرتكب حماقة بالغة حين أرسل له الحسن كتابًا، يشتم فيه عنده لبعض أصحابه ممن نالهم اضطهاد زياد، فيغضب هذا الأخير لأن الكتاب يبدأ به من الحسن بن علي إلى زياد، فيرد بغطرسة «إلى الحسن بن فاطمة قد بدأت بنفسك قلبي، وأنت من السوقة وأنا من أهل السلطان» فلا يزيد الحسن على أن يرسل كتاب زياد إلى معاوية الذي يعنف واليه لوقاحته، ويأمره بتنفيذ ما أرسل الحسن في طلبه.

وينصم يريد من معاوية للحاقدين على الحسن، فيلوم أباء لإكباره إياه وإرساله إليه بالأموال، فيرد عليه «أي بني. إن الحق حقهم، فإن حاؤوك فأحث لهم» (فأعظمهم).

ولا يقدر يزيد ومروان وعصبة هذا الأخير أن يفهموا كيف يفكر معاوية، فقد كان من قبل ينال بالقول من علي، ثم يعضب إذا ما أساء إليه البعض في حضوره، فإذا سألوه قال «أنا أكل لحمي ولا أركله». وربما أحده بعض الغرور فعمث مع الحسن بعض الكلام، فإن رد عليه الحسن سكت ولم يسمح لأحد أن يتناول عليه وكلما راجعه يريد رد كلام عن حق الرّجيم والعمومة والقرابة من رسول الله

وكل هؤلاء يخشون أن يموت معاوية فيصبح الحسن بن علي خليفة، وتزول دولتهم وسطوتهم.

لم يكن عريياً إذ أن يتعمسوا الصعداء عندما جاءهم النبا من المدينة
إن الحسن يحضر.



المدينة - ٩ مارس ٦٧٠ م

طستُ يُرَقَّع من تحت الرجل المربص لبوصع آخر. الإسهال يعتك بأمعائه
والدم يعلب على قيته يستوقف الحسين رجلاً يخرج من عرفة أخيه حاملاً
طستاً تفوح منه رائحة حبيثة، وينظر فيه محاولاً إقناع نفسه أن تلك الكتلة
لدامية فيه ليست قطعة من كبدي!

يدخل على شقيقه محاذراً إحداث صوت يزعجه يحاول الحس
الاعتدال فيهرع إليه أخوه راداً إياه للقراش، يحنان يشوبه ألم يمرق نفسه.

«لفظت قطعة من كبدي.»

عاق بأصابعه كف أخيه متمتاً «فذاك نفسي»

حاول الحس استدعاء انتسامة لطمأنة أخيه، إلا أن الألم الهادر بجوفه
جعل انفراج أساريره يكشف عن جزء العنيف على أسنانه، كاتما النار
المستمرة ببدنه السقيم. استسلم لعلامات الاحتضار واسترخى في فراشه،
وقد علت وجهه الذي كان مشرباً بحمرة الصحة صفرة منبثة بالضيغ
الثقيل الذي يحوم في سماء العرفة، لينزع السر الإلهي في الوقت المحدد مند
ما قبل بثه في الجسد الفاني.

أشار الحسين لمن حولها بالخروج انتظر وحيل آخروهم، ودنا من أخيه
وقد بدا السؤال جلياً في عيناه المقرورتين بهاء الحزن.

قرأ الحسن السؤال في النظرات الملتهبة لوعة وغصاً فقال «بلى»

عض الحسين شفتيه. «السُّم؟»

- «سقيته مرارًا من قل. ولكن هذه أقساها»

اعتصرت يد الأخ المكلوم كف الشقيق المحتضر، وهو يقول من بين

أسنانه «من؟» فابتسم بمرارة مجيئًا «القتله؟»

- «بلى!»

أشاح الحسن استهانة بكفه المرتعدة، وهو يقول «إن يكن من أظله
قاله أقدر عليه. وإن لم يكن هو فلا يُقتل بي مظلوم»

ولأن الحسين يدرك عباد أخيه فإنه لم يلح في السؤال ريت رأس
الحبيب هامسًا ببحان «هل تخاف؟»

صمت الحسن لحظات ثم أجاب ببرة واجلة «أجل»

- «ولم؟ إنك ترد على رسول الله صل الله عليه وسلم وعلى علي

وهما أبواك، وعلى خديجة وفاطمة وهما أماك، وعلى القاسم والطاهر وهما

خالاك، وعلى حمزة وجعفر وهما عمك»

لم تنزل ابتسامة المريض عن وجهه الغارق بالعرق، وهو يجيب «يا أحمي.

إني أدخل على أمر من أمر الله لم أدخل في مثله، وأرى خلقًا من خلق الله

لم أر مثله قط»

ألقى الصمت غطاءه عليها. سكنت الموجودات إلا من الأنفاس المثقلة

بسكرات الموت أخيرًا قال الحسن «إذا أنا مت فادفني إلى جوار رسول الله

وإذا منعك القوم - وهم مانعوك - فلا تراجعهم»

اعتصرت الكلمات قلب المكلوم في شقيقه ورفيق حياته لم تسمح له

الغصة إلا بأن يقول «إما لله وإما إليه راجعون».



وكأنها يأبى مروان إلا أن ينقص على الحسن في موته، كما بعض عليه في حياته. فما أن علم بتوجه الحسين لندفن أخيه إلى جوار الرسول وأبي بكر وعمر، حتى ثار ومعه أتباعه قاتلاً باستكار «أيدقن عثمان في جوف الليل ويدفن الحسن إلى جوار النبي؟ لا يكون هذا أبداً!»

حاول الحسين التمسك برغبة أخيه، إلا أن أبا هريرة تدخل كيلاً يقع دم بين القوم، وتشبث عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بان عمه الحسين قاتلاً بالحاح «عزمت عليك بحقي وقرابتي ألا رحمت!»

ومُحِل الجنان العظيم إلى البقيع ليدفن هناك

وفي الجنارة، وبينما الحسين يمشي حاملاً جسد أخيه، وخذ من يسند بكتفه الحبل الخليل إلى حواره. ومن بين دموعه فوحى بأنه مروان من الحكم يتقدم ليحمل الحسن بن علي إلى مشواه، وقد أغرقت وجهه الدموع.

يتمتم الحسين ذاهلاً «أتحمله وتسكي عليه وقد كنت تجرعه الصبر؟!»

ولدهشته، خرجت نرة مروان صادقة وهو يجيبه «لى. أفعل هذا مع من كان حلمه يزن الجبال!»



عندما تقع جريمة قتل فإن أول سؤال يطرحه المحقق على نفسه هو «من له مصلحة في قتل المجني عليه؟»

فلنطرح هذا السؤال إذن على أنفسنا من له مصلحة في قتل الحسن بن علي؟

يقودنا هذا البحث دائرة علاقات الحسن، تحديداً علاقات العدا والحصومة

سيقودنا هذا للمتهمين الآتين:

- أولاً: بنو أمية بطبيعة الحال. فهو رجل قد حاربهم ثم سألهم عن أن يكون الأمر له بعد وفاة معاوية، ما يهدد «مُلْكهم»، وإن كان في ذلك دافع للأمويين بشكل عام للسعي للتخلص من الحسن، فإن منهم من يعيه الأمر بشكل شخصي، كيريد بن معاوية الذي يدرك القارئ لأحداث تلك الفترة أنه كان يتطلع لأن يرث الخلافة، حتى قبل أن يعلن معاوية أخذ البيعة له من بعده، ومروان بن الحكم لما فيه من عداوة للحاشمي، وهو ما يظهر في التراجم عداوة الحاشميين منذ ما قبل مقتل عثمان بن عفان، مروراً بالحروب بين علي ومعاوية، وانتهاءً بالخاحه على وإلى المدينة أن يقتل الحسين لرفضه مبايعة يزيد.

- ثانياً الخوارج الذين اغتالوا أباء ويرون تكفير وإباحة دم من سواهم، أي المجتمع كله بمختلف طوائفه وتوجهاته فإن كانوا قد قتلوا علياً، فإن هذا لا يخلق باب عداوتهم لكل من المعسكرين «العلوي» و«الأموي»

- ثالثاً: الناقمون على الحسن لتسليمه الحكم لمعاوية، فهم يضمرون الكراهية له ويتهمونه بأنه «مدل المؤمنين» كما قال له بعضهم في وجهه، وهؤلاء قد يرى بعضهم مصلحة في موت ذلك الذي يمنهم من الخروج على معاوية. خاصة أن الحسين لم يكن راضياً عن هذا الاتفاق، وكان - بعكس أخيه - ميالاً للثورة والمواجهة أيما كانت النتائج، ولكنه لم يكن يستطيع تجاوز الحسن، فهو أريج هذا الأخير لا تنقلت رعاية المشايخ لعلي وأبنائه إلى الحسين، ولوجود احتمال لإظهار سياسة مختلفة إزاء بني أمية

لسنظر إذن للعرضيات الثلاث، في ضوء ما لدينا من معطيات تاريخية. فأمّا بنو أمية فهم بين من يرى أنهم غير مضطرين للتخلص من الحسن، وقد

يتخلص من ماله الأثر - الحليف الأقوى لعلني من أبي طالب - حين أرسله
 هذا الأخير والياً على مصر قبل أن تقع في يد معاوية، فوضع له الرجل السم
 في شربة عمل فمات الأثر، وقال معاوية معلقاً «إن لله جوداً من عمل».
 بل واتهموه كذلك بأنه وضع السم لسعد من أبي وقاص - رضي الله
 عنه - وفسروا ذلك بأن معاوية كان يبيع البيعة من بعده لابنه يريد، ولم
 يكن يخشى سوى الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص.

تعالوا ننظر هذا الافتراض.

فمن ناحية الدافع، فإن معاوية بكل ما له من سلطان الحكم والمال
 والجاه، إضافة لشعبيته التي رادت، ومن أبحاروا له من لباس بعد عدم
 الجماعة، في مقابل انقضاخ جزء كبير من أنصار الحسن عنه واستوحاشه
 من أهل العراق، ورعته القوية في إقرار السلام بأي ثمن، كل ذلك لم يكن
 ليعي معاوية عن الخيل ليقيي الحسن عن خلافته له بعد موته، حتى يضطر
 لأن يفس له السم.

كذلك فإن معاوية ليس من الغفلة أن يكلب زوجة الحسن بالذات -
 من دون كل من يحيطون به - أن تفس له هذا السم. فقد كانت ثمة طرق
 كثيرة ليضمن بها وصول السم إلى حسده، أبسطها أن يضع في طريقه من
 يديه بعض الطعام أو الشراب، ومن المعروف أن سي هاشم يأكلون الهدية
 ولا يترفعون عن قبول هدية الطعام، بل ومن آدابهم قول دعوة الطعام،
 بالذات لو كانت من فقير تطييباً لخطره. فكان من الممكن أن يفس
 للحسن من يدعوه إلى طعام مسموم وهو ما يتوافق مع «المط الحثاني
 لمعاوية» - لو سمحتم لي بالتعير - مثلما كان مع ماله الأثر
 أما من كلف حدة ست الأشعث هذا - إن صح تورطها في الجريمة -
 فإنه شخص أروع متسع، يخاطر بأن يكشف نفسه ويستجلب عليها غضب
 الكثيرين إن انكشعت مؤامراته.

مصر عود من اللداع، فان التامل على طرؤوسنا العلوية والدينية حريصة وأحد كان
 بحرية التحصيل من بني محمد أنفسهم في أوقات طلبة شخص آخر كمن يحرقان على مطلق
 أمراء أو من اصحابه من الخاضع والمصلح وصبة معاوية لانه قبل الموت
 ومعاوية كان آخره، وكان ابنه الذي استشهد من أقبس قد كبر عتبة الأئمة
 العلوية الحسين بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبيه كونه لا عبد لله
 بمحمد تلك الفترة فحسب، بل منذ عهد الرسول محمد، إذ أعلن الأشعث
 إسلامه بعد أن دخلت قبائل العرب في الدين، ثم ارتد بعد وفاة الرسول،
 ثم أسير محمد بن أبي بكر، ثم وقع في الأسر وأهل بن أبيه، وهناك
 فإن لم يجر عنه لم يسمع من يدعيه سيد محمد من دأب الانتماء من أبيه يكون حل
 أظهر العلوية من مسلمة ففما حقه الحقيقة من دأب الانتماء من أبيه يكون حل
 قد انشغل بالسوء، وأن الحسين بن علي بن عبد الله بن أبيه يكون حل
 أبي طالت في حروقه، وربما كان كرواج الحسب بانه لا وأجملها شيئا فإن
 خرج من طهره أبو بكر فليصحب عنه ومعاوية فليصحب عنه ومعاوية فليصحب عنه
 وحاول ما في الدنيا، وعقد عواصم معاوية فليصحب عنه ومعاوية فليصحب عنه
 عاشت معاوية في التجبر منه، وقد في ذلك، لم تختلف سنة أن تاريخ في
 المقربين من علي، وكان من أشدوا في ذلك، لم تختلف سنة أن تاريخ في
 وفي رواية جري أنه يصح أنه بأن يعمر عن عبد الله بن أبيه، ولا يخرج مع
 الحارثية وتشير بعض أصابع الاتهام له في إيوان القائل لخارجي الذي بعد
 اعتيال الخليفة علي في كل الأحوال فإن من الواضح أن لأشعث كان كمن
 ومع يوعه أروا أن حوث وصبة معاوية لابنه، فإن تنفق في أمر من ابنة
 يقال لكعة الحارثية ألبس بحساب نفسه فليس من المستبعد أن تكون ابنة
 قد شهدت على نفس المهج، بحكم الجفوة التي قامت بين علي وأبنائه من
 - الأول هو المعصية عن الحسين مذهب فعل، ومراعاة حرمة وفراة
 ناحية، والأشعث وأبناؤه من ناحية أخرى
 - الثاني هو الحد من عهد بن أبيه، باعتباره أحسن معارصين،
 إذن فليعطيات الموازنة لا تقوى أن تستند عملية الاعتقال هو الجفوة
 وهو ما صدقته الأحداث التالية، فقد أثبت بحق أنه أخطأهم، إذ استمرت
 بيت الأشعث بن قيس
 مقاومته للأمويين حتى استشهاده في مكة في عهد عبد الملك بن مروان، أي
 أنه أقصر مضاعف أربعة خلفاء (وكتبت معاوية بن يزيد لأنه عمليا لم
 يتولى الحكم)

أما معاوية، فإن المتهمين له يفسرون موقفهم بأنه المستفيد من موت الإمام
 الحسين، ليضمن أن يرث ابنه يزيد أحكم وهم يؤكدون قدرته على ارتكاب
 أفلم يكن عبد الله بن الزبير إذن أول من أحس بأن من على قتله أو
 الجريمتين ببيت له من عمره أحد أهل الجراح في مصر، على أن
 الحسن وسعد بن أبي وقاص في بعض الروايات

اعطاهم الميراث والملك والعتق والطلاق والنفقة والطلاق والطلاق والطلاق
 الهدايا والهدايا والهدايا والهدايا والهدايا والهدايا والهدايا والهدايا
 التي تشرعها الله من غير ان يشعروا بالهدايا والهدايا والهدايا والهدايا
 من نواحيها وحقوقها من نواحيها والهدايا والهدايا والهدايا والهدايا
 منهم ما يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون
 بكره او غش او شح او غش او شح او غش او شح او غش او شح او غش او شح
 والاشهر والاحتمال من متعلق الفخر به النصر والغلبة في ردع المحالين
 منهم لعلوا كحظهم لعلوا كحظهم لعلوا كحظهم لعلوا كحظهم لعلوا كحظهم
 عدو ظلمه لا عيبه لهم في حصيلته كحل ما له من سلطان الحكم والمدن
 والاولاد والبنات والبنات والبنات والبنات والبنات والبنات والبنات والبنات
 ياكلون طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 ليس الحق الا الحق الا الحق الا الحق الا الحق الا الحق الا الحق الا الحق
 ينجون من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 لانهم يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون انهم لا يظنون
 لا والله الا اهل الامانة الذين اتيهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 الى حقن كل الموضوعات في كل ما في حقن كل الموضوعات في كل ما في حقن
 الظلمة في موضوع من الموضوعات في كل ما في حقن كل الموضوعات في كل ما في حقن
 ويؤيد بعض العلماء في النجاسة من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 ولا يقرقونية غير قولهم في النجاسة من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 الى الله تعالى في كل ما في حقن كل الموضوعات في كل ما في حقن كل الموضوعات
 الفوضي من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 لمعانيهم في الامور من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 لحياتهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 الفوضي من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم
 يزكوا من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم من طينهم

مصاهرة آل بيت رسول الله فإن تغوز بالمال والزواج بيزيد - كما وعدت فإنه أضمن لها من أن تعبد نفسها يوماً مطلقة للحسن، الذي كان كلما طلق امرأة أرسل لها بعضاً من المال والعسل

ومن ناحية أخرى، فإن أباها الأشعث بن قيس - كبير قبيلة كندة القوية - كان رجلاً متلاعباً زثيقاً بصعب تحديد اتهامه وولائه. ليس منذ تلك الفترة فحسب، بل منذ عهد الرسول محمد، إذ أعلن الأشعث إسلامه بعد أن دخلت قبائل العرب في الدين، ثم ارتد بعد وفاة الرسول، وحاول مقاومة حبوش أبي بكر، ثم وقع في الأسر وحُجِّل إلى المدينة، وهناك أظهر العودة للإسلام فعفا عنه الخليفة ثم دارت الأيام وانضم لعلي بن أبي طالب في حروبه، وربما كان زواج الحسن بابته «زواجا سياسياً» كما كان مألوفاً آنذاك، وعند عرض معاوية التحكيم سارع بالموافقة بعكس المقربين من علي، وكان عمر اشتدوا في ذلك، ثم تختلف كتب التاريخ في تحديد اتهامه بعد ذلك؛ فيضعه البعض مع الخوارج والبعض الآخر مع معاوية وتشير بعض أصابع الاتهام له في إيواء القتاتل الخارجي الذي نفذ اعتيائ الخليفة عبي في كل الأحوال فإن من الواضح أن الأشعث كان كما يقال بلغة الحاضر «يلعب لحساب نفسه». فليس من المستبعد أن تكون ابنته قد سارت على نفس المنهج، بحكم الجعوة التي قامت بين علي وأبنائه من ناحية، والأشعث وأتباعه من ناحية أخرى

إذن فالمعطيات المتوافرة لنا تقول أن منفذ عملية الاعتقال هو «جمعة بنت الأشعث بن قيس».

إذن فالروايات تتراوح بين متهمين، هما معاوية أو ابنه يزيد، فأيهما أجدر بالاتهام؟

أما معاوية، فإن المتهمين له يفسرون موقفهم بأنه المستفيد من موت الإمام الحسن، ليضمن أن يرث ابنه يزيد الحكم وهم يؤكدون قدرته على ارتكاب مثل تلك الجريمة، بما تُسبب له من تحريض أحد أهل الخراج في مصر، على أن

من حياته ومماته تنفيذًا للنبوءة المسبوبة للرسول محمد «لعل الله أن يصلح
به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين».

وقد كان!



الحقيقة أنني لا أرى ما يمنع ذلك، بالعكس، فإن بشخصته وتاريخه ما يؤهله لذلك. فضلاً عن عداوته للحسن بن علي وليي هاشم بشكل عام، فإن مروان من ناحية «جريء على القتل» وهو ما ظهر في إباحه علي وإلى يريد أن يقتل الحسين من فوره، إذا رفض أن يبايع ابن معاوية، وكذلك فإن له مواقف في الاتهام بالقتل أو تديره، سواء في واقعة مقتل طليحة بن عبد الله في موقعة الجمل عندما أراد الانسحاب وأصابه سهم مجهول أكد الكثيرون أن مروان هو الذي أطلقه، أو في اتهامه بتلقيق رسالة على لسان عثمان بن عفان يأمر والي مصر بقتل المتمردين حين عودتهم تلك الرسالة تقودنا لمساحة الأخرى من شخصية مروان وهي جرأته على الامتناع على أعمال السلطة، والتصرف من تلقاء نفسه بما يراه مناسباً ولو أُمِرَ بعكس ذلك. فلا يوجد مانع أن يكون قد قرر أن الأصلح لني أمية ولدولتهم أن يُقتل الحسن، بصرف النظر عن رأي معاوية هذا يلائم شخصية مروان جداً.

ولكن تبقى لدينا مشكلة، أن كل ما لدينا هو قرائن لا ترتقي لمستوى الأدلة لاتهام هذا أو ذاك.



على أية حال، فإن التأمل في سيرة الحسن بن علي، يشعر كأنها جاء هذا الرجل إلى الدنيا لتففيذ مهمة ورحل عنها بعد إتمامها. فقد أغلق أبواب الحرب الأهلية بقراره الذي يمكن أن نختلف عليه لكننا نتفق على نبل دوافعه. ثم رحل في هدوء، بل وحرص قبل رحيله أن يقتني أثر أبيه حين اعتيل بالآلا يفتح موته نانا للحرب، كما جرى بعد مقتل عثمان، ليكون كل

من حواشي المدقق أن الإلهاء قتلوا في قتل مطهر محمد بن علي عليه السلام
 الحسين بن علي عليه السلام في الخندق كان أكثر مرونة ومروعة من أخيه الأصغر،
 سيما كان طبع الهدوء والمسالمة يغلب على الحس، كان طبع الثورة وحرارة
 الدماء يكثر على الحس، فكيف سعى معاوية لقتل الأخ الأقر خطورة،
 ويوصي بحسن دماء الأكثر ميلاً للثورة؟ *

المطفي أن من برع في إراحة منافس له أو لعقبه في الخلافة، أن يسعى
 لتخلص من كل المنافسين وليس من واحد منهم محسب.

كل ما سلف يؤكد أن من ارتكب تلك الجريمة هو إسد يتقصه
 لدهاء وبعد النظر، والحكمة في وزن الخصوم وتقييمهم، وأنه يميل
 للاندفاع والرعونة وقلة الخدو. وهو ما بعدنا كثيراً عن معاوية، ويقودنا
 مباشرة لبريد، لو أن في مجال لإدانة أحدهم لا محالة

وبما بعدنا التحليل المطفي عن اتهام معاوية، فإن يريد يصلح شدة
 هذا الموقع، خاصة أن المدقق في كتب التاريخ يلاحظ أنه كان قد بدأ يلعب
 دوراً في الأحداث، من وراء الستار، قبل موت أبيه، بل قبل «نفس» قضية
 التوريث بل وثمة حادثة هامة تسبق مباشرة قرار معاوية بتوريث
 لابنه ألا وهي توجه المعيرة من شعبة إلى دمشق والتنازع بريد قبل أن يلتقي
 معاوية، ثم نصيحته لمعاوية في لقائهما أن يجعل هذا الأمر في بعض ولده، ما
 يسهل عليها استتاع ما دار بين يزيد والمغيرة

ماد عن مروان بن الحكم؟ ماذا لا تذكره تحليلات جريمة اغتيال الحسن
 بن علي كمتهم محتمل؟

الحقيقة أنني لا أرى ما يمنع ذلك، بالعكس، فإن شخصيته وتربيته ما يؤهله لذلك. فضلاً عن عدائه للحسن بن علي ولبنني هاشم بشكل عام، فإن مروان من ناحية «جريء على القتل» وهو ما ظهر في إلحاحه على أبي يزيد أن يقتل الحسين من قوزه، إذا رفض أن يبيع ابن معاوية، وكذلك فإن له سوابق في الاتهام بالقتل أو تديره، سواء في واقعة مقتل طلحة بن عبد الله في موقعة الجمل عندما أراد الانسحاب وأصابه سهم مجهول أكد الكثيرون أن مروان هو الذي أطلقه، أو في اتهامه بتلفيق رسالة على لسان عثمان بن عفان يأمر والي مصر بقتل المتمردين حين عودتهم. تلك الرسالة تقودنا لناحية الأخرى من شخصية مروان وهي حرأته على الاقتات على أعمال السلطة، والتصرف من تلقاء نفسه بما يراه مناسباً ولو أمر بعكس ذلك فلا يوجد مانع أن يكون قد قرر أن الأصلح لسي أمية وتداولتهم أن يُقتل الحسن، بصرف النظر عن رأي معاوية هذا يلائم شخصية مروان جداً.

ولكن تبقى لدينا مشكلة، أن كل ما لدينا هو قرائن لا ترتقي لمستوى الأدلة لاتهام هذا أو ذاك.



على أية حال، فإن المتأمل في سيرة الحسن بن علي، يشعر كأننا حاء هذا الرجل إلى الدنيا لتنفيذ مهمة ورحل عنها بعد إتمامها. فقد أغلق أبواب الحرب الأهلية بقراره الذي يمكن أن يحتلف عليه لكما نتفق على نل دوافعه ثم رحل في هدوء، بل وحرص قبل رحيله أن يقتني أثر أبيه حين اغتيل بالأ يفتح موته باباً للحرب، كما جرى بعد مقتل عثمان، ليكون كل

معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (معاوية الثاني)

سحابة صيف عابرة بسماء بني أمية

دمشق - ٦٨٤ م

كسحابة صيف عابرة، كحللم مار بقلولة قصيرة في نهار طويل، كانت أيام خلافة معاوية الثاني.
صدق من قال إنه لو عاش لاستحق الانصام لمن وُصفوا بالراشدين من الخلفاء.

لكن «لو» تشي بوقوع ما هو ضد المرغوب.
فالشباب الصالح الطيب؛ الذي كان يؤمل منه أن يبرد حبهات الدم والنار المفتوحة في أنحاء الدولة، وأن يؤلف القلوب بعد أن تحاجرت بها صنع الحدّاد، يختصر ولم تمض ثلاثة أشهر على مبايعته، ولم يمض من عمره هو نفسه سوى عشرين ربيعاً.



عندما مات أبوه، يريد من معاوية، كانت الأرض تنفض بحمي الحرب
 فأبصار الحسين وعلي وآل البيت ينادون بثارات الحسين الشهيد في العراق،
 والمدينة المنورة تلعق جراحها بعد أن استباحها جيش يريد قامماً تمردها،
 والحجاز يبايع عبد الله بن الزبير حليفاً، ومصر تراقب الموقف بحذر،
 والخوارج يعيشون فساداً ها وهناك

وسط كل هذا دهم الموت يريد الذي خلف ثلاثة أبناء، كانوا على عكس
 أبيهم معروفين بالصلاح والتقوى والنسك، هم معاوية وحالد وعبد الرحمن
 فتوجه نحو أمية لمعاوية وأجذت له البيعة وتلقى الخليفة الجديد بيعة الناس،
 وهو يظمر أمراً يرحو أن يحسم به أمر تمرق أمة المسلمين بين الرعامات ها
 وهناك.



سمع أهل دمشق صوت المادي أن «الصلاة جامعة» فاحتشدوا في
 المسجد يرون ما الأمر صعد إلى المر شاب طويل أبيض وسيم الملامح
 كثيف الشعر مستدير الوجه إنه الخليفة. معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي
 سفيان، أو أبو ليلى كما يُكنى.

تأكد من إنبات الجمع وتلاشي أثر لعطهم ذكر الله وأثنى عليه وعلى
 رسوله، ترصى على الصحابة سكوت يستجمع أنفاسه ويُسكين قلناً يكاد
 صدره يشق عنه انفعالاً.

أخيراً قال «أيها الناس، إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عهد، فإن أحسنت
 تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر، وإن شئت تركتها شورى في
 ستة منكم كما تركها عمر من الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك،
 وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم»

معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (معاوية الثاني)

سجادة صيف عارية لسماء بني أمية
 تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٦٦١م، انتهى
 عصر دولة الخلفاء الراشدين، وبدأ عصر الدولة الأموية الأولى، التي اتحدت
 من دمشق عاصمة لها، حتى سقوطها في العام ٧٥٠م، على يد الأسرة العباسية
 وانشقاقها وتفتتها، لتقوم الدولة الأموية مجددًا ولكن عرتًا في الأندلس،
 وتتحدر قرطبة عاصمة لها من العام ٧٥٦م وحتى سقوطها في العام ١٠٣١م.
 كونه حجة على عصر الراشدين، في طيلة قرونه العديدة، ولولا ذلك، لكانت حق
 أبا جعفر محمد بن علي بن محمد من أن الخلافة بعده ٣٠ عامًا ثم مُدَّتْ عَصَاها،
 وجعلت من عفاها لعلها لا تتركها إلا لغيرها، ثم لا يتركها إلا لغيرها، ثم لا يتركها إلا لغيرها،
 من الملوك.

لكن «لو» تشي بوقوع ما هو ضد المرغوب.
 فالشباب الصالح الطيب، الذي كان يؤمل منه أن يبرد جبهات الدم
 والدار المفتوحة في أنحاء الدولة، وأن يؤلف القلوب بعد أن تحاجزت بها
 صنع الحداد، يختصر ولم تمض ثلاثة أشهر على مبايعته، ولم يمض من عمره
 هو نفسه سوى عشرين ربيعًا.



الأموي أن من يفترض به أن يمثلهم ويجمعهم ويرعى مصالحهم قد خرج عن الوظيفة المنوط بها، بل وأصبح يمثل تهديدًا على ما جاؤوا به لكرمي الخلافة لأجله، فقررُوا «إهاء خدمته» بشكل لا يثير اللفظ، مثلما قد يفعل الخروج المسلح؟

إن هذا الاحتمال يبدو شديد المنطقية، خاصة أن وفاة معاوية الثاني قد أدت لانتقال الحكم من البيت السعيفي - سبة لأبناء أبي سفيان - إلى البيت لمرواني - نسبة لمروان ابن الحكم - بتولي هذا الأخير الخلافة وتوريثها بعد ذلك لعقبه كما سيأتي لاحقًا . لكننا نقرأ من يبين السطور أن القيادة الأموية قد أدركت أن دور البيت السعيفي قد انتهى، وأن المرحلة التالية تتطلب حلماً من نوع مختلف.

للأسف فإن المصادر لا تقدم لنا ما يحسم تلك التساؤلات. فلا يبقى لنا إلا محاولات التكهن والاستنتاج. فقط يمكننا أن نتفق أن هذا الخليفة الشاب الحريء لو كان قد امتد به العمر لتغير شكل التاريخ، ولكن هذا التاريخ ليس مجالاً لفرضيات الـ «ماذا لو» بقدر ما هو خاضع فقط للأمر الواقع.



أحدقوا بنراشه في حلقة محكمة، وهم يرقبون أنفاسه المترددة عبر ثقب
إبرة. يود بعضهم لو جثم على صدره، فعجل بإيهاء تلك الأزمة التي حلقتها
لهم هذا الشاب من حيث لم يحتسبوا.

يعرفون أن موته لن يحل المشكلة تمامًا، فلا عقب له لوراثة الخلافة،
وأخوه خالد وعبدالرحمن نعد صغيران. أي أن وفاته ستؤدي إلى فراغ،
والفراغ - بطبيعة الحال - يؤدي للصراعات كلها يعلمون ذلك ولكن
ويبدّر هذا الأمر بعد أن يُقرّغ من أمر ما أحدث من أمر أحل وأثقل. قرب
قضاء أخف من قضاء غيره.

تقدم بعضهم منه بعد تردد، ومال يسأله إن كان ثمة من يرع في استخلافه
من بعده. وسؤال كهذا هو خطوة بها الكثير من المجازفة، فمن يصمن ألا
ينطق باسم بعض من لا يتنمي لبني أمية؟

رفع بصره إلى السائل وألقى آخر كلماته باصقًا ارداءه الأمر كله في
سمة هازقة لم أذق حلاوتها، فلم أتحمّل مرارتها بعد موت^{١٩}



عندما يمرض شاب في العشرين من عمره بهذا الشكل المفاجئ، ثم يموت
بتلك السرعة، دون سبب منطقي، وعقب موقف صادم شديد الخطورة
كالذي اتخذه معاوية بن يزيد، فإن من العبث ألا يقفر احتمال الاعتقال باسم
إلى دهن المتأمل في تلك الأحداث

ولأن قائمة المستفيدين من موت الخليفة الشاب لا تضم سوى عشيرته
الأموية - تحديدًا كبارائها - فإن هذا يقودنا للسؤال هل قرر كبار البيت

الأموي أن عن يده أن يتعلمهم ويجمعهم ويظهرهم مصداقهم هذه معراج
 سبعين غلو وتطرفة التي لو كمل مثل سوا الصنعة لمثل بالأيدي على حيلة جاورا به لكرسي
 الخلافة لأجله، فقرروا «إسقاء حذته» بشكل لا يثير اللطع، مثلما قد يفعل
 خروج المسلح؟

إن هذا الاحتمال يبدو شديد المظنفة، خاصة أن وفاة معاوية الثاني قد
 أدت لا تنقل الحكم من البيت السجاني - نسبة لابن أبي سفيان - إلى البيت
 أنصت في أمة على مشهد من الناس، من كثر لرعيه بجناحهم هذه الصورة
 المروان - نسبة مروان ابن الحكم - تنوي هذا الأخير الخلافة وتورثها بعد
 فإن يصعد الخليفة الأبيح رسمه على المهر في عاصمة دولته، ويعمل بحمله
 ذلك لعنه كمن سبواي لا خطا كتاب تقرأ من غير السطور إن القيادة لا مؤنة
 عن مصبه ورد الأمر للناس في نفس الذي تتم في مع الأمانة عطية من
 فقد أدركت أن دور البيت السجاني قد انتهى، وأن المرحلة التالية تطلب
 «حزب صعب» وبالنسبة مع إعلان أس الزبير أمير المؤمنين بالخيار، لا
 حلفاء من نوع مختلف
 نصب لافي صالحي هذا الأخير، وبسبب السامع من تحب في أمة بعد أن
 للأنت فإن المصداق لا تقدم كما ما يحسم تلك التساؤلات. فلا يبقى لنا
 دينا قد نرى هذا دور أن يتغير، خلافة وما يسهم كباقي الكثرة
 إلا محاولة التكهّن والاستنتاج فقط يمكننا أن نتفق أن هذا الخليفة الشاب
 وليت الأمر يقف عند بقدر الخلافة، بل ولم من شأنه أن يتعداه كغيرهم
 الحزبي لو كان قد امتد به العمر لغير شكل التاريخ، ولكن هذا التاريخ
 رؤسهم لم يستحلف ابن الزبير سيأتي وقت حساب الخليفة حساب
 ليس على الأمر صيات الزنادقة بقدر ما هو حاضرم فقط للأمر الواقع
 تحويل الخلافة إلى ملك، حسب كبرلاء، حساب مذبحة المدينة بحق

المعارضين والحصار العاشل لاسيما الربيعي مكة
 النجاة النجاة إذن. فالأمر قد تعدى أن يكون أمر رجل واحد - الخليفة

- بن به أمر عشيرة بأكملها، بمصالحها وتحالفات وتكتلاتها
 تتقارب الرؤوس وتتباعد يتراور كبار البيت الأموي، يتدبرون الأمر،
 فالخليفة منذ ألقى صاعقه قد دخل بيته وأعلق بابه وزم شقيقه عن الكلام
 في ما يتخذ من قرار..

أخيرا يسمعون ما يثلى صدورهم ويفتح فرجة في ما شد أمام أعينهم
 من أفق
 الخليفة الشاب. يختصر.



أحدقوا بفراشه في حلقة محكمة، وهم يرقنون أنفاسه المترددة عبر ثقب
إبرة يود بعضهم لو جثم على صدره، فعطل بإنهاء تلك الأزمة التي خلقها
هم هذا الشاب من حيث لم يحتسبوا.

يعرفون أن موته لن يحل المشكلة تمامًا، فلا عقب له لورثة الخلافة،
وأحواه خالد وعبدالرحمن بعد صغيران أي أن وعاته ستؤدي إلى فراغ،
والفراغ - بطبيعة الحال - يؤدي للصراعات كلها يعلمون ذلك. ولكن
فيُدبّر هذا الأمر بعد أن يُمرّع من أمر ما أحدث من أمر أحل وأثقل. قرب
قصاء أخف من قضاء غيره.

تقدم بعضهم منه بعد تردد، ومال يسأله إن كان ثمة من يرعب في استحقاقه
من بعده. وسؤال كهذا هو خطوة بها الكثير من المجازفة، فمن يصمن ألا
ينطق باسم بعض من لا يتسمي لبني أمية؟

رفع بصره إلى السائل وألقى آخر كلماته باصقًا ازدراءه الأمر كله في
بسمه هازئة لم أدق حلاوتها، ولم أتحمّل مرارتها بعد موتي؟



عندما يمرض شاب في العشرين من عمره بهذا الشكل المفاجئ، ثم يموت
بتلك السرعة، دون سبب منطقي، وعقب موقف صادم شديد الخطورة
كالذي اتخذته معاوية بن يزيد، فإن من العبث ألا يقف احتمال الاغتيال بالسم
إلى ذهن المتأمل في تلك الأحداث

ولأن قائمة المستفيدين من موت الخليفة الشاب لا تضم سوى عشيرته
الأموية - تحديدًا كبارها - فإن هذا يقودنا للسؤال هل قرر كبار البيت

مروان بن الحكم

نهاية عبثية لرجل مغامر

- سوريا - مرج راهط - يونيو ٦٨٤م

شد مروان بن الحكم قامته على صهوة حواده، متأملاً جند جيشه المستعد لخوض معركة حاسمة، صد جيش الضحّاك بن قيس ومن انحازوا معه لعبد الله بن الزبير تلك المعركة التي لم تكن مجرد صراع بين رجلين، بل بين أحزاب تشابهت علاقاتها وتعقدت حيوط روابطها.

فالضحّاك - الذي كان والياً على دمشق من قبَل الأمويين - زعيم حرب القبائل القيسية (القيسية هم عرب الحجاز)، ومناقبه حسان بن مالك هو سيد اليمنية (عرب اليمن)، والصراع القيسي اليميني يرجع لما قبل الإسلام، بل وربما كانت حروب الردة وادعاء النبوة من بعض حلقاته.

وإن كان الأمويون - بحكم الانتهاء القرشي - قيسيين، فإن اليمينيين هم قوتهم الضاربة، خاصة وقد غضبت القيسية من اجتراء يريد على مذاهمة المدينة، منذ أقل من عامين، لقمع المتمردين ضده، وما جرى في تلك الحملة من تدييع وتدمير بل وهتك للأعراض. فكان انحراف الضحّاك بن قيس عن مساندة بني أمية وانحيازه لابن الزبير بعد موت معاوية الثاني وأخذ

البيعة لمروان بن الحكم، أمرًا طبعيًا. كذلك كانت مراعاة القيسيين على ورقة عبد الله بن الزبير، محاولة منهم للتفوق على منافسيهم اليميين. كان الصحاك وحزبه يراهمون على أن يتمرق أمر بني أمية بعد موت الخليفة، وألا يمر انتقال الخلافة من بيت إلى بيت آخر بسلام.

إضافة لذلك، فقد أبدى مروان - بصفته كبير بني أمية - رغبته الصريحة في التوجه لمكة ومبايعة عبد الله بن الزبير، بعد أن رأى أن البيت الأموي الكبير يكاد يتمرق بين ماديين به حليفة، ومطالين بمبايعة خالد بن يزيد بن معاوية، وأحرين همتموا باسم عمرو بن سعيد بن العاص.

هل كان هذا القرار الغريب مناورة من الرجل الذي تشهد مواقفه، في الأزمات والأحداث الحليفة، أنه وصولي انتهاري مغامر يتشبث بكل فرصة للاقترب من مواقع الصدارة؟ الحقيقة أن القراءة لشخصيته قد تؤدي لترجيح ذلك. وأن إظهاره نية مبايعة خليفة مكة والحجار إنما هو بمثابة الرسالة المبطنة لفرقاء بني أمية، أن اتحدوا وإلا أخذها غيركم.

تؤكد ذلك سرعة إعلانه تعيين موقعه، بعد لفاته عبيد الله بن زياد - الوالي السابق ليزيد على العراق، والموجه للحملة العسكرية التي أوقعت مذبحة كربلاء بالحسين وأل بيته - حين مر ابن زياد من العراق لتعرضه لمطاردة المتأدين بالثأر للحسين، والمتألين لعبد الله بن الزبير، ووصل إلى الشام والتقى مروان، ولأمله بقسوة على ما بلغه من رغبته مبايعة ابن الزبير. ففورًا أعلن مروان رجوعه عن ذلك مكرًا «معات شيء بعد».

وفي مؤتمر بتل الحاية سوريا، اجتمع بنو أمية وتناقشوا، ثم خرجوا بقرار يرضي كل الأطراف أن يكون مروان الخليفة، ومن بعده خالد بن يزيد، ومن بعد خالد، عمرو بن سعيد بن العاص.

وأخيراً، نال مروان بن الحكم ثمرة «كفاحه» لسنوات ليست بالقليلة. سد قربه عثمان وجعله كاتبه وصاحب سره، ثم نهوضه في شأن «طلب دم عثمان» مع أصحاب الحمل، فانتقاله بعدها لئلاط معاوية بن أبي سفيان، وتحركه في المدينة ضد الحسين بن علي، في عهد يزيد وسعيه في دهاليز وأروقة السياسة الأموية لنقل الخلافة من البيت السيماني، لتسقط الكرة في حجره، وصولاً لتلك اللحظة العارقة في مرج راهط.

استدعية مروان بن الحكم بى أبي العاص بن أمية أمير المؤمنين تدوق اللقب على لسانه بتلدد، وهو يسترجع تعاصيل طريقه الطويل إليه

فرحى الصحاك هذا التطور الدرامي، فمحض دمشق وتحرك للقاء الجيش الأموي، وقد انضم له - الصحاك - بعض ولاية مدن الشام وفلسطين، وطمان نفسه بأن المصريين قد بايعوا ابن الزبير بعد وفاة معاوية الثاني. ما يعنى أن مروان ومنه معه قد وقعوا بين فكّي الأسد

ولكن حسابات ابن قيس لم تكن دقيقة، وبالتالي فإنها لم تكن صائبة فقد تقدم مروان أولاً فاسترد دمشق، ثم عسكر شرقها بمرج راهط مريضاً بعدوه وحلفائه. وللدهشة، تنقل كتب التاريخ أن مروان بن الحكم حين نظر لحنّده بكى وقال «الآن وقد رق العظم مني وصرت في ظمأ حمار - كناية عن اقتراب الأجل - صرت أصرب الكتابب بعضها ببعض». وهو قول غريب ممن عاش حياته موقّداً ميران الفس والصراعات هما وهناك منذ أزمة محاصرة وقتل عثمان، مروراً بموقعة الحمل، ثم الصراع بين علي ومعاوية، فالوقوف من الحسن بن علي. كان دائماً اسم مروان يُذكر في سياق تسعير الحرب.

وأخيراً «ضربت الكتاب بالكتاب» لتسحق القوة الأموية وحديقتها
اليمية حزب القيسيين، ويلقى الضحاك حتفه، ومن بعده قدة حلفائه
واحداً تلو الآخر. ودخلت الشام وفلسطين في طاعة الخليفة، ثم تبعها
مصر التي كانت بيعتها لابن الربيع مدسوبة. وبقي العراق والحجاز في قبضة
هذا الأخير.

عاد الخليفة لعاصمته دمشق، ينظم أمور الدولة، ويرسل الجيوش لقرض
السيطرة على الحجاز والعراق، ومطاردة ذبول الحزب القيسي.
إضافة لذلك، فقد كانت ثمة مسألة تؤرقه: رعبته في نقص ما عاهد
عليه في مؤتمر الحابية من استخلاف خالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن
العاص، طمعاً منه في تعيين ابنه عبد الملث وعبد العزيز لولاية عهده.



سرعان ما أسعف مروان دهاؤه الشهير فأما عمرو فقد استغل الخليفة
ما تردد من قوله «أنا أصير يوماً خليفة»، فصادف حصوره - عمرو -
بعض مجالس الخلافة، فأشار مروان لأحد رجاله فقام يقول للناس «إن
أبائنا يتمنون أممي» ونظر لابن سعيد معرضاً به نظرة المشكك في ولائه،
فاضطرب هذا، فاستغل الرجل اضطرابه وصاح بالحضور «بايعوا لعبد
الملث وعبد العزيز بولاية العهد» فقاموا جميعاً وبايعوا ولم يستطع عمرو
أن ينطق باعتراض.

وأما خالد، فقد قيل لمروان «تزوج أمه فيصمر عند الناس ويهون أمره»
فتزوج مروان بأم خالد - أرملة يزيد - وبقي يتحين فرصة لإهنته أمام
الناس ليسقطه من أنظارهم.

وكانت هذه هي الزلة التي أدت بمروان بن الحكم إلى هلاكه.



بيما الخليفة في مجلسه، دخل عليه خالد بن يزيد وهو يمشي بين صفين من الحضور. ألقى السلام على خليفته وروح أمه، فالتفت هذا إليه وبقي يتمحصه صامتاً، وقد رقت على شفقيه سمة متهكمة.

أخيراً أطلق صيحة مختصرة وافعل إشارة استهانة وهو ييصق إهانة للعتى «والله إنك لأهق. أقل يا بن رطة الإست» (الإست = الدُّر)

احتاح المسكين للحظات لبذر أنه قد أهين أمام من يُفترض أن يكونوا يوماً رجال دولته. أحس خيوط عرق الحرج المسال على ظهره سيّطاً تنفذ بذوائبها إلى روحه. الضحكات التي ترددت من حوله أكدت له أن ما جرى منذ قليل لم يكن عفوي المشأ استحضر عذراً واهياً وانسحب من المجلس هارعاً إلى أمه يخبرها أمر الإهانة استمعت إليه صامتة، وقد قرأ في عينيها إدراكها أن المسألة تتجاوز مجرد قول عابر في لحظة سحافة تتب العص من حين لآخر. أخيراً قالت «لا بأس عليك.. أنا أكفيك» ثم أردفت «ولا تخبر أحداً أنك قد حدثني بما جرى»



ألقى عنه ثيابه وأسلم بدنه المرهق لعراشه الوثير مسيلاً جفنيه. فتحهما بغتة وقال كمن تذكر شيئاً «أحدثك خالد بأمر اليوم؟»

ابتسمت أم خالد مفتعلة لامبالاة كاذبة وأجابه «أي أمر؟» ثم عدلت من العطاء فوق جسده، ورتت كتمه مردفة «لأنت عند خالد أكبر من أن يبلغني أمراً عنك».

عاد إلى استرخائه معمضاً عينيه، بيما جلست المرأة إلى جواره ترقب وجهه، وصعود ونزول صدره. أخيراً لحظت انتظام أنفاسه، فسرت على أطراف أصابعها تستوثق أن لا أحد إلى جوار باب المدح عادت تجلس

إلى جوار زوجها. تناولت وسادة كبيرة وبلا أدنى قدر من التردد وصعتها على وجهه، وألقت بثقل جسدها عليها.



مروان بن الحكم، شيطان السياسة ومسرع الحروب واللاعاب على كل الحبال.. أفلت من القتل على يد المتمردين ضد عثمان في دار هذا الأخير، أو في موقعة الحمل على يد بعض حدة علي، أو خلال الحرب بين هذا الأخير ومعاوية، أو حتى في أثناء حصار ثوار المدينة لبني أمية في عهد يزيد، وخرج سالمًا من واقعة مرج راهط، ليموت على فراشه مغموماً بوسادة وضعتها على وجهه امرأة عاضة من إهانتها وإبها أحياناً تكون سخرية القدر لادعة أكثر مما يتوقع البعض

ارتج الفصر للبا الرهيب. اندفع عبد الملك ثائراً نحو زوجة أبيه يبغي قتلها، لولا أن قيل له «لو قتلها لعرف الناس أن أباك قد قتلته امرأة» فكف يده عنها وهو يكاد يحترق غيظاً

بايع الناس عبد الملك بن مروان أميراً للمؤمنين، بينما اعتزل خالد شأن السياسة - الذي لم يكن به ميل له من الأصل - واتجه للاشتغال بالعلم والسعي لترجمة كتب الدول التي فتحها العرب، بادئاً بذلك حركة الترجمة الشهيرة التي استمرت لقرون.

هكذا انتهت، بشكل عشوي عريب، حياة رجل مغامر ازدهمت أيامه بالصراعات والصدامات ومراهنات السياسة والسلطة. لم تكن فترة تحقق حلمه بأن يرتقي أعلى سلالم الحكم بالطويلة لكنها كانت مقدمة لحكم سلسلة من أبنائه وأحفاده لعقود تالية ليست بالقليلة.

شباك على مشهد مكي

عبد الله بن الزبير

ويل للناس منك. وويل لك من الناس

مكة - سبتمبر ١٩٩٢م

تهذر المجانيق، فترد عليها صواعق السماء المعصى في جوفه مرعبة.
تهوي صاعقة على بعض جند الشام فيرتعون أن يكون قد نالهم بعض
غضب الإله، فيتناول قائداهم الحجاج بن يوسف الثقفي حجراً بيده
ويلقمه المنجنيق، وهو يصيح فيهم أن اثبتوا، فليس هذا بغضب الرب، إنما
هي صواعق الحجاز التي يألفها أهل الجريرة
تبار بعض الصواعق من بعض جند ابن الربير المحاصرين في مكة،
فيظفر الحجاج لجنوده أن «هل رأيتم؟ إسم ينالهم ما ينالنا».

تشند قلوب حد الشام وتملكهم الحماسة، فينشطون في قذعهم الحرم
المقدس بالحجارة واللهب.

مكة. مسقط رأس النبي. منزل دعوة الإسلام تُقَصِّف الكعبة. قدس
أقداس المسلمين. تُضْرَب بحلّاميد الصخر

منذ أيام في موسم الحج المنصرم كان الشيطان يُرْجَم بالحصى.
واليوم شيطان الإنس يرجم الكعبة بالحجارة!



إيها المعركة الأخيرة من صراع تسع سنوات مريبة، بين بني أمية وعبد
الله بن الزبير. بدأت في عهد يزيد من معاوية بعد مقتل الحسين، واستمرت
في عهد مروان بن الحكم، والآن قد قررا ابنه عبد الملك حسم الأمر، ووضع
هاتية لذلك المتمرد عليه، وتلك الشر ادم الملتفة حوله، والتي بايعته خليفة
للمسلمين على العراق والحجاز.

بدأ عبد الملك بقطع جناحي ابن الزبير. انتزع بخصه منه الكوفة وسائر
العراق، وقتل أحماء وواليه عليهما مصعب. ثم أرسل الحجاج بن يوسف
يتوغل في جزيرة العرب، ويمزق عنه سلطانه على الحجاز حتى يحصره في
مكة. والحجاج موقن من النصر

«رأيت في نومي أني قد سلخت جلد ابن الزبير، ولست أرى ذلك إلا
أنني أهرمه وأقتله، فابعتني إليه»
قلها له الحجاج بإصرار، فبادر عبد الملك بإرسال من قبل إبه يمدحه
قائلاً «الحجاج هو جلدة ما بين عيبي».



بين فوضى المرتدين خلف سواترهم، والباحثين عن عاصم من جحيم
قذائف جيش الحجاج، وقف هو.

شيخ ستيبي، بحيف الحمد مشدود القامة تكاد الخلائد تطيح، وتمر الشظايا من حوله بل ربما يمسه بعضها. فلا يهتز. يرقب ما يجري بعينين لا تطرفان. وبطر يحرق حاجز الآن متقللاً بين الآونة بحرية طائر لسماء. يرى نفسه طعلاً يحمله أبوه أمامه على صهوة فرسه في بعض الغزوات، حتى يعتاد ابنه أصوات قعقة السلاح ودوي صنابك الخيل على الأرض، فيألفه حين يكبر. يشعر ببرد عرق كف يده القابضة على سيفه أمام باب عثمان، وإلى جواره الحسن والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة، في دفاع عشي ضد جموع المتمردين. يسمع صوت نفسه وهو في موقعة الحمل في جيش عائشة وطلحة والزبير، يصارع باليد مالك الأشتر. أحد قادة جيش علي - ويلقيه أرضاً صارخاً «اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي» يشم رائحة الحسين في عناقها الأخير قبل انطلاق هذا الأخير إلى مواعده مع المنية في كربلاء.

أحداث تترادف على باطريه، راسمة على صفحة وجهه الشارد بسمة عائرة، عوس مباغت، وجل حفيف. أحيراً احتل الندم قسماته مريحاً كل ذلك

والندم إذا حل ووضع عصاه، فاعلم - يا عافاك الله - أن السيف قد سبق العذل.

امتشق الندم سياطه وصار يهوي على روحه بلا رحمة أنت تسرعت في قبول لبيعة قل أن تستوثق من أمرك. فرحت بمبايعة أهل الحرمين لك؟ وما أهل الحرمين أمام جند بني أمية؟ أحسبت أن لهم هبة تعصمك؟ انظر نرى بنفسك مقدار هبة الكعبة نفسها في نفوس هؤلاء الطغاة!

وحين هلك يريد وتبعه ابنه، صارت بني أمية كالغنم الشاردة، ألم يأتك قائد جند الشام يعرض عليك الخلافة، ويلح عليك في التوجه معه لتسلم دمشق لتكون عاصمتك، فأبيت رغم أنه تبين لك صدق وعده، حتى برم بك وصاح في وجهك «قبح الله من رأى أن لك رأياً!»؟

والناس الذين يابعونك. ألم توحشهم منك بتشكيلك بمحمد بن الحنفية
(ابن علي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة) وأصحابه، وتهديدك إياهم
بالحرق والقتل إن لم يبايعوك؟

والآن أنت وحدك. فقدت كل مؤيد. تسلب الناس عنك لم تبق لك إلا
تلك الشر ذمة البائسة. فإن كان الظفر في الدنيا قد فاتك، فليكن آخر عهدك
بها ثباتاً عند الحنف!

اذهب فودع أمك أسماء اطلب منها أن تدعوك ألا تكيك عندهم
يأتيها نأ مقتلك. ألا تُشمت بك وبها سي الأجلاف. أن تحفظ بصبرها على
المصيبة سيرة آل أبي بكر وآل الزبير.



قادوها حيث الجثمان المصلوب منكس والرأس الدامي منصوب على
رمح إلى جواره.

أعناها شم ريح الابن الحبيب عن النصر الفقيد. اصططعت من قوة
روحها قبضة خفية أسدتها كيلا تميد بها الأرض، وقالت بصوت غلب
حرمة مابه من شروخ «أما لهذا الراكب أن يترجل؟»

التقطت أذناها خطوات تقترب، وأحسن قلبها حضوراً ثقيلاً على
النفس يحتم فوق المكان. ساد صمت مترقب، ثم سمعت الحجاج يسألها
غير مبالٍ بإخفاء شامتته «ماذا ترى قد صرع الله بأسك؟!»

أجابت من «ورها دور أن تلتفت «أي بأس؟ قد أفسدت عليه دنياه،
وأفسد عليك آخرتك!»

انصرف الحجاج، وبقيت واقفة مكانها عبد البدن العزيز المصلوب.
مس أذنيها حس عبد الله بن عمر بن الخطاب يلقي عليها السلام، ويقول

بصوت رقيقه الحزن والإشفاق «إن هذه الحثث غائبة، وإن الأرواح عدد الله، فأتقي الله واصبري»

التفتت إليه وافترت شفتاها عن ابتسامة، لو ورع ما فيها من ثقة بالله على أهل الأرض لكفاهم، ثم قالت «أبي نأسى وقد حُبل رأس يحيى بن زكريا لبغي من بني إسرائيل؟»



لأن رواية القديم من الأحداث يهوى القصص ذات «الدلالات»، والتي تصفى بعداً أسطوريّاً على أبطال تاريخهم، بالدات من «ششهدوا» منهم، فلم يكن عبد الله بن الزبير بن العوام استثناءً

تقول القصة الأولى إن الرسول محمد كان يحتجم (فصد الدم)، وكان عبد الله في بيته، وكان بعد صبيّاً فأعطاه الرسول طست دم الحجامه وأمره أن يلقي بها فيه بعيداً. فحرج وعاد ولم يعجب فسأله السي «ما صنعت بالدم؟» أجاب «عمدت إلى أخفى موضع علمتُ فجعلته فيه» فنظر الرجل في عينيه وهو يسأله «لعلك شرته» فلما أجاب العنى بالإيجاب صمت النبي قليلاً، ثم مسح رأسه قائلاً بإشفاق «ويل للناس منك. وويل لك من الناس!»

أما القصة الثانية فتذكر أن أول ما تفتق عنه عم ابن الزبير طفلاً كان كلمة «السيف». ولم يكن يدعها من لسانه كأنها حلوى يستلدها، فكان أبوه - الزبير بن العوام - يقول له «والله ليكون لك من يوم ويوم وأيام» وقد تحقق مضمون القصتين. فكان ويل منه وويل عليه، وكان له مع السيف يوم ويوم وأيام.

يعلم الله مدى صدق أو كذب القصتين. ولكن في كل الأحوال، فإن
عبد الله بن الزبير إن لم يكن قد ظفر بالخلافة والحكم، فقد ظفر بنهاية
تستحق ألا تُنسى.



عمر بن عبد العزيز حلم كان أجمل من أن يتحقق

دمشق - ٧١٧م

«أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ألا وإنني لستُ بقاصي ولكنني متعد، ولست بمتدع ولكنني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً. إن الرجل المارب من الإمام الظالم ليس نظاماً، إلا إن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

إن كانت خطبة توليه الخلافة قد أثلجت صدوراً فلها قد أوعرت غيرها. فإن كان المعروف من السيرة الطيبة لعمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، يُصدّق كلامه عند العامة ويدفع عنه شبهة الرياء والاصطعاع، فإنه يثير عليه أمراء بني أمية ممن كانوا يتطلعون لخلافة ابن عمه وسلفه سليمان بن عبد الملك، أو على الأقل كانوا يأملون أن يستخلف هذا الأخير رجلاً منهم، يسير فيهم مسيرة من سبق من خلفاء الأمويين. ولكن عمر بن عبد العزيز؟

يقولون إن «العرق دساس»، وإن أمه المنحدرة من نسل عمر بن الخطاب

لا بد قد ورثته بعضاً من شدة هذا الأخير في أمور الدنيا والدين، يتوجسون حيفة، وقد هم بعضهم أن يرفض البيعة حين خرج عليهم رجاء بن حيوة - وزير الخليفة الراحل - بينما كان هذا الأخير في سكرات موته، يرفع لهم عهداً يأمرهم بمبايعة من فيه على السمع والطاعة، قل أن يعرفوا اسمه وحين أعلن اسم عمر بن عبد العزيز وحاول بعضهم إثارة اللغط، صاح به ابن حيوة «أضرب عنقك والله أقم ضارباً!». والوزير القدير لا يمزح، فهو من نصيح سليمان أن يختم حياته بعمل صالح، وليس أصلح من أن يتخلف ابن عمه وصديق عمره، الشاب الثلاثيني الذي تلهج الألسنة بطيب ذكره واستقامته وعدله، مد كان والياً على المدينة، بل ومد كان يقيم بها طالباً للعلم في خلافة عمه عبد الملك بن مروان.

أخيراً يموت اللغط في مهده، حين يكمل رجاء قراءة العهد ويعلم تضمنه أن يحفظه يزيد بن عبد الملك

وتؤخذ البيعة للرجل الصالح فلا يتسم فرحاً، بل يعلو وجهه عبوس، ويسأله حادمه عما به فيجيب «ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه، غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني!»

يعود إلى بيته فينادي زوجته وابنة عمه - فاطمة بنت عبد الملك - ويخبرها محرّجاً أنه قد صار إلى أمر ثقيل، لا يعرف إن كان سيقدر معه على أن يوفيهما حقهما من الاهتمام وأنه يعذرها مسبقاً إن رأت الانفصال عنه لتستمتع بحياتها، فهي بعد شابة مقبلة على الحياة.

تطرق فاطمة. الفتاة الحميلة ربيبة العمة والعيش المرفه التي يقول فيها الشعراء «كنت الخليفة والخليفة جدّها. أحت الخلائف والخليفة روجها». ويطول إطراقها.

ويحسب الزوج أنها قد سكنت حرّجاً عن الموافقة على ما عرض، فيستطلع

وجهها الذي يرتفع إليه وفيه نظرة عتاب أن خطر الفراق على ذهنه. وتعني
نصتها على يمينه عن كثير من الكلام.



يرتج البيت الأموي بها جرى. تسخ العروق غضباً وتسخ الألسنة سموم
لكلام. ترتعد المئات على الرؤوس وتغذب اللحى والشوارب غيظاً وحنقاً.
ثروات بني أمية، نقدية كانت أو عيبية، كل غالٍ ونفيس من صامت
وماطق ومدوس ومحمول ومركوب، صُمت بأمر الخليفة إلى بيت المال تحت
مسمى «المطالم». حتى محوهرات زوجته، ومحصات الخليفة من ركائب
وأزياء وأموال، حتى عطاؤه هو من بيت المال أنقصه إلى حد لا يُصدق أن
يعيش به رجل من أدنى العامة.

يعلى أن تلك أموال الرعية ويجب أن تُرد إليها يعلى كذلك أن لا حباية
لدايعر حق. وأن من له مظلمة فإن حقنا عليه أن يلعلناها وإلا فقد حان!
رجل يعمل من إحقاء المظلوم مظلمته عنه حباية له!

ترتفع أصوات الناس إلى السماء تسابق بالدعاء أصوات لعنات بني
أمية على ذلك الذي لا يدرون متى انشق عنه القدر لينقص عليهم حياتهم،
ويسلبهم نعمتهم.

وما أن أفاقوا من أول ضربة حتى أدارت رؤوسهم التالية.

قد أرسل الخليفة لولاته أن يوقف مظلمة أموية شهيرة، وهي الاستمرار
في أخذ الجزية ممن أسلموا حديثاً، وذريعتهم في ذلك أنهم «قد أسلموا هرباً
من الجزية».

وحاول بعض الولاة مراجعته بأن هذا من شأنه إفقار الخزنة، فرد بأن

الله قد بعث محمدًا هاديًا وليس حايًا ولما عاد الوالي يلح مفترحًا اختار
صدق إسلام من أسلموا بالختان، عاد الخليفة يحيب «إن الله لم يبعث
محمدًا خائنًا»

وأرسل إليه آخر يشكو انعدام الأمن في ولايته، ويطلب السماح له
بأخذ المشتبه فيهم بالرماية، فجاءه الرد صارمًا برفض ذلك

واستمرت صربات الممول العمري لأركان الطغيان الأموي
أوامر للولاة، أن تجنبوا المسارعة للحكم بعقوبة فيها قتل أو قطع، فلا
تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة

سحب للجيش المحاصر للقسطنطينية واتفاق تهدئة مع السلطة البيزنطية
وقرار بعدم إرسال الجند إلى أطراف الأرض حيث المحاطر والتهلكة.

إقصاء لآل المهلب - وهم الخلفاء والأعوان العسكريون للبيت الأموي
- عن الوظائف، فقد كان عمر يقول «هؤلاء حيابرة وأنا لا أحب مثلهم»
وكانوا بالفعل قد تسلطوا على ما بأيديهم من ولايات، وقمعوا أهلها ونهبوا
الأموال الطائلة. فطعنهم عمر برد ما أحدوا، بل واعتقل يريد بن المهلب
لإنكاره ما وضع يده عليه.

إلغاء لسب ولعن علي بن أبي طالب من فوق المنابر، وأن يحل محل
ذلك قول «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى»

تقريب آل بيت علي وتأمينهم من المطاردات والاصطهاد.

احتصار. فقد كان عمر بن عبد العزيز يحو كل ما خطبوا أمية من مظالم ومظاهر للتسلط والقمع.



تربوا أن تنقص الأموال فتفتقر الدولة ويشور الناس، فلم يحدث ذلك بالعكس، أمن الناس فباعوا واشتروا وتناصفوا فعم الرخاء. تنظروا أن يعدر البيروطيون فيحدثوا ما يبرر الحرب، ولكن إمبراطورهم المتدين ليون التزم الهدنة.

توقعوا أن يغصب الشعراء المداحون من جبههم عن مقام الخليفة ومنعهم أعطياتهم، فلم يجد هؤلاء ما يؤذون به ابن عبد العزيز، إما لعجزهم عن وضع أيديهم على نقيصة مدمومة له، وإما لشمول عدله إياهم مع باقي الرعية. بل إن شعراً خرج من عنده ولم يتل إلا دراهم قليلة من حر مال عمر فلما سأله إن كان قد استاء أجابهم بصدق «رجل يمنع الشعراء ويقرب الفقراء، ولاني عنه لأرضي»

حتى الذئب، تناقل الناس أنها قد صارت ترمي مع الغنم وإن كان الخبر غير مطقي فإن لا تنساره دلالات تقول الكثير

والخليفة لا يرضى فيركن للراحة؛ وقد أحس بأنه قد أدى ما عليه ما دامت الرعية راضية. بل يصل الليل بالنهار ينظر شأناً للناس هنا ومصلحة للرعية هناك. يتأكد أنهم ينعمون بما حُسن عنهم طويلاً من خير، بينما يخلو بيته إلا من علبط الطعام. يسترجع الناس ذكرى أيام كان يشتري فيها الثوب بالآلاف فيقول ما أحسنه لولا غلظة فيه، ثم هو بعد خلافته يشتري ثوب الرث بدراهم قليلة فيقول ما أحسنه لولا لين فيه. تراه زوجته باكياً، تسأله عما به فيقول لها «يا فاطمة، إن تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله

عليه وسلم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع
والعاري المجهود والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير ودي
العيال الكثير والمال القليل، وأشاههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد،
فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، فخشيت ألا تثبت لي حجة
فبكيت!

ويطوف بالشوارع على بغله ينظر أحوال الناس، ثم يلتفت إلى حادمه
فيسأله «هل الناس مستريحون؟» فيجيبه «كلٌ مستريح إلا أنت وأنا وهذا
البغل!»

بُرِذَت كل الحبهات، وسكنت كل الفتن ولم تنق إلا جبهة واحدة
الخوارج.



انتقل الخبر كالبار بين أبناء البيت الأموي: عمر بن عبد العزيز يلتقي
الآن رسولين من قائد الخوارج. فقد أرسل له يقول إن كنتم قد خرجتم
عنا غضبًا للدين فأرسلوا من يتأظرونا، فلما أن تدخلوا فيها دخل فيه الناس،
ولما أن تغلب حجتكم فننظر في أمركم.
كان مسًا من جنون قد اجتاحتهم. بالأمس يسالم آل علي بن أبي طالب،
واليوم يحاور الخوارج! وهل كانت من ذريعة لتسلط سي أمية على الناس
وما يمارسونه من قمع إلا خطر شيعة علي والخوارج!

وبعيدًا عن اللفظ. في مكاني هادئ، كان عمر يستمع إلى محاوريه وهما
يقولان إنها لا ينقمان عليه لتحريه العدل، وإنما ينقمان على آله من نبي أمية

تسلطهم على الناس، وعملهم بما يخالف ما جاء في كتاب الله.
أخيراً استجمع أحدهما جرأته، وطلب من الخليفة أن يثبت صدق
نبرؤه من ظلم عشيرته بأن يلعنهم.

استسم عمر بهدوء ثم قال «إني قد سميت أعمالهم مظالم وكفى بهذا ذمًا،
وإن الله لم يبعث محمدًا لعائنًا، وليس لعن أهل المعاصي بفريضة، وإن كان
فريضة فقل لي متى آخر عهدك ملعن فرعون؟»
أرتج على الرجل وهو يحجب «لا أذكر» فأكمل ابن عبد العزيز «أويسعك
ألا تلعن فرعون ولا يسعك ألا ألعن أهلي؟»

استمع الرجلان إليه وهو يكمل الرد على ما جاء به. أخيراً قاما وقد بدا
فيهما بعض الميل إليه. طلبا مهلة لعرض الأمر على قائدهما، فوافق الخليفة
على أن يلتقوا مجددًا بعد حين.



دير سمعان - بين حماة وحلب - سوريا
يناير ٧٢٠م

لماذا يتقطع جميل الحلم بغتة دائما؟

نظر الخليفة المسجى لزائره سائلاً «ماذا يقول الناس؟»
- يقولون مسحور

ضحكته تحولت لحشرة مؤلمة، بصق في وعاء بجانبه وقال «لست
بمسحور. وإني لأعلم الساعة التي مُقِيت فيها السم»
بعد لحظات كان متعرجاً بغلام من العيد. نظر له طويلاً ثم سأله بلوم

خرج - للعجب - رقيقاً «ما حملك على أن تسقيني السم؟»
أطرق العبد متمنياً «ألف دينار أعطيتها. وأن أعنت»

مد الخليفة يداً واهنة إلى الفتى، فأحرج صرة المال من ثيابه وباوفا لضحيته،
دون كلمة واحدة.

وصح عمر الصرة إلى جواره قائلاً «هذه تذهب إلى بيت المال» ثم التفت
للمجاني مردفاً «وأنت انطلق بعيداً عن هنا كيلا يفطن إليك أحد ويعلم
ما فعلت فتقتل»

بقي الفتى ينظر إليه بعدم تصديق، فأشاح الرجل يديه قائلاً بالحاح
«ها قلت لك!»



بأمره تركوه وحده في حجرته. وبالسبب قعد مسلمة بن عبد الملك - ابن
عمه - وزوجه فاطمة، تحسباً لأن يتاديبها لعص شدمته.
فجأة سمع من الدار صوته من الداخل يقول نبهة متهلفة «مرحباً
بتلك الوجوه، لا إنس ولا جان». وانتابهم قشعريرة باردة وصوته يعلو
بتلاوة «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا
فساداً والعاقبة للمتقين».

ثم سكث الصوت.



استقبل بنو أمية خلاصته فسقوه سباً. هكذا فسّر المؤرخون موت عمر

من عبد العزيز، وهو بعد شاب لم يبلغ الأربعين، ولم يقض من خلافته إلا
ثمان وبضعة أشهر.

ومشكلة القتل بالسهم أنه الأكثر صعوبة في الإثبات، سواء إثبات هوية
القاتل أو حتى إثبات طريقة القتل نفسها!
هذه في حال الجريمة حديثة الوقوع، فما بالنا بتلك التي وقعت منذ
قرون؟!

في مثل تلك الحالات لا يكون أمام الناحث إلا الطر في القرائن،
ومحاولة قراءة ما بين السطور.

مبدئيًا فإن قائمة المستعبدين من مقتل عمر بن عبد العزيز قصيرة جدًا،
وهي لا تضم سوى الناقمين عليه من بني أمية، وآل المهلب الذين أزيلت
عنهم السطوة بتولية الخلافة.

يمكننا بسهولة استبعاد المهلبين من قائمة الاتهام، ورسم دائرة حمراء
على بني أمية، فأولاً، لم تكن علاقاتهم طيبة بيزيد بن عبد الملك لمصوص
في عهد الخلافة على أنه يخلف عمرًا، والدليل أن يزيد بن المهلب حين علم
بمرض الخليفة، سارع بالفرار من محبسه وأرسل إليه يعتذر عن ذلك،
ويقول إنه لو رجي حياة عمر ما كان ليهرب، ولكنه يعلم أنه ميت وأن
خلفه سينكل به لا محالة. وهذا يستبعد آل المهلب من الاتهام، ولا يبقى
لدينا سوى بني أمية.

ثانيًا فإن وعد القاتل بالعتق بعد إتمامه المهمة لا يأتي إلا بمن يملك
رقبته. وهو عبد للخليفة، فمن يمكنه أن يعتقه إلا من يرث الخلافة أو
بعض خاصته؟

ثالثًا فإن من السديهي استبعاد أهل بيت عمر - زوجته وأبنائه - ففضلاً
عن انتفاء لدافع فإنهم لا يحتاجون لرشوة خادماً لدس السم لرب بيتهم!
للاسف فإن كل ما لدينا هو قرائن، والمشكلة أيضاً أنه يمكن بسهولة

أن يقوم أحدهم هدم نظرية القتل بالسم من أساسها، فحوار عمر بن عبد العزيز مع زائره الذي أخبره أنه سُقِيَ السم أو مع خادمه، كان مع كل منهما منمردًا على جذة، ولم يشهده شاهد، فمن نقله؟

إن نظرية اغتيال الخليفة بالسم إذن لا تستند على قوله بقدر ما تستند على غرابة ملابسات الوفاة، وسرعتها المريعة، وارتباط شحوص المتوفى بعداوات من جانب عشيرته.

على أية حال، فإن رجلاً مثل عمر بن عبد العزيز ليس مستغرباً أن تنتهي حياته مقتولاً.

وقوم مثل بني أمية، ليس مستغرباً أن يدبروا قتل من كان مثله والغاز التاريخ، على قدر ما هي مستفرة، بل ومغیطة أحياناً، وإما ما يعطي هذا المجال عمقه ومتعة البحث فيه.



الوليد بن يزيد الخليفة المنحل!

دمشق - ٧٤٤م

مُحِلُّ الرَأْسِ الْمُخَصَّصِ بِالْدَمِ عَلَى قِمَّةِ رِمَحٍ، وَدِيرِيهِ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ
بَيْنَ تَهْلِيلِ الْجُنْدِ وَتَكْبِيرِهِمْ. نَظَرَ شَابٌ إِلَى الرَأْسِ وَمَالَ عَلَى آخِرِ بَجْوَارِهِ
قَائِلًا بِنَفْسٍ «أَعَدَّهُ اللَّهُ! قَدْ كَانَ فَاسِقًا شَارِبًا لِلْخَمْرِ، وَقَدْ رَاوَدَنِي عَنْ
نَفْسِي وَأَنَا أَخُوهُ!»

مَطَّ الرَّجُلِ شَفْتَيْهِ مَمْتَعَصًا وَهُوَ يَسْتَمِعُ لَسَلِيَّانِ، أَخِي صَاحِبِ الرَأْسِ
الْمَرْفُوعِ عَالِيًّا: الْخَلِيفَةُ الْمَقْتُولُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ
الْحَكَمِ

رَقَبَ الرَأْسِ وَحَامِلَ الرِّمْلِ يَرْفَعُهُ عَالِيًّا مِنْ قَاعِدَتِهِ وَيَذِيرُهُ بِمَهَارَةٍ، فَتَنَاقِرُ
بَعْضُ نَقَاطِ الدَّمِ الَّتِي مَا رَأَتْ طَارِجَةً مِنْ أَسْفَلِ الْعِقِّ الْمَجْتَثِ مِنْ قَاعِدَتِهِ.
أَنْصَتَ لَصِيحَاتِ رِجَالِهِ «هَلْكَ الْعَاسِقُ. هَلْكَ الْعَرِيدُ. هَلْكَ الدُّوَاطُ نَاكِحُ
نِسَاءِ أَبِيهِ!»



عندما حصر أبوه يزيد بن عبد الملك الموت، أوصى أن يحلفه أخوه هشام بن عبد الملك، على أن يخلف الوليد هشامًا. وبالفعل بويع الأخ وضم ابن أخيه لأبنائه وقد عزم على تنفيذ وصية أخيه وإعداده للخلافة.

لكن الفتى الذي تميز بقوة بدنية عالية وشخصية متمردة، كان خييه حقيقية للأمل فقد انكب على الملذات واللهاو ومجالس الخمر حتى صارت عريذته حديث المجالس.

حاول العم إصلاح ربيبه بإرساله على رأس بعثة الحج، على أداء الفريضة يهذه، وزيارة المواضع المقدسة ومخالسة فقهاؤها ترقق روحه.

ومن مكة جاءت الأخبار العاصحة - فالفتى حمل معه في سفره كلاب صيده خفية، ثم حين انكشف أمر ذلك اتهم سائق الإبل وصره لذلك طلبًا وعند إشراف الركب على الكعبة أخرج الأمير آلات العزف وأدوات شرب الخمر، واقترح بساطة شديدة أن يُعَمَل له مجلس خمر وطرب على سقف البيت الحرام!

وبصموية بالغة أقنعوه أن ذلك لا يصح

وعاد الفتى من رحلته أسوأ مما كان، فتواترت أخبار عريذته على عمه الخليفة الذي أرسل له يعنه كاتبًا إليه «والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم عن أي دين!» فسارع بالإحابة بشعر لادع يقول فيه «يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكِر شرها صرفاً وممزوجةً بالسحر أحياناً وبالعاتر» و«أبي شاكِر» هي كنية الأمير مسلمة ابن الخليفة نفسه، فهذا الأخير لم يكن يعلم أن الوليد قد جر ابنه إلى «أجوانه»، فسارع هشام بإبعاد الابن إلى المدينة لينقذه من تأثير ابن أخيه!

ولأن جعبة فضائحه لا تفرغ، خرج الوليد على الناس بفعلة جديدة،

فقد شغف بفتاة مسيحية حتى ارتكب فعلة جوفية، إذ استغل عيدًا
للمسيحيين يجتمعون فيه في كنيستهم، وتسلك للكنيسة لقضاء العيد مع
فتاته، ثم خرج وهو ينشد

«ألا حبذا سفري وإن قيل إنني.. كلفت بنصرانية تشرب الخمر»
يهون علينا أن نظل نهارنا. إلى الليل لا أولى نصلي ولا عصرا»

أسقط في يد الخليفة، فبدأ يفكر حديثاً في حلع ابن أحمه من ولاية العهد،
وتهدده بسوء العقاب إن لم يرجع عن انحلاله، فصر الوليد إلى لبادية مع
رفاقه، وهو يفكر في ما يؤول إليه أمره، وسرعان ما جاءه خبر وفاة عمه، ما
يعني أنه قد صار الخليفة الجديد.

ومن فوره توجه إلى دمشق، ودخل دار الإمارة متلقياً «لبعة»، ثم قبل أن
يصرف إلى شؤون الحكم أمر بمصادرة ممتلكات عمه، مطهراً الشبهة بمن
أراد حرمانه «حقه» فعاجله الله بالموت!



معكس ما هو متوقع، فقد كان الخليفة الشاب محسناً للرعية حسن
السيرة فيهم. فقد جعل للمجذومين والعاجزين وأصحاب الأمراض
المرمىة خدماً ونفقة من بيت المال، وأحسن للفقراء والأيتام. ووسع من
النفقة والعطايا لأهل الشام وكان يقول إنه يحب المال من مصادره كأنه
يعيش أنداء، وينمقه عن آخره في حقه كأنه يموت غداً.

ولكن...

لم تكن أحبار الكرم والعدل تصل وحدها إلى الناس، بل كانت ترافقها

روايات مثيرة عن انحلال وفسوق الخليفة، واستهتاره الفاحش بالمقدسات

فانتشر خبر استفتاحه المصحف - أي فتحه للتفاوض بأول آية يقع عليها النظر - فكان قول الله «واستفتحوا وخاب كل جبار عييد». فما كان منه إلا أن رفع المصحف وصاح به «أتعودني!» ثم ألقاه وصرب عليه بالشاب حتى خرقة، وأنشد يقول:

«تهددني بجبار عييد. . . فما أنا ذاك جبار عييد

إذا ما جئت ريث يوم حشر. فقل يا رب مرقتي الوليد!»

وأضاف البعض أن سبب فتحه المصحف، كان اقتحامه على ابنة له نغدعها ومحاولة إزاله بكارتها، فصاحت به مريبتها «هذه أفعال المجوس»، فأجابها:

«من راقب الناس مات هماً . وفار باللدة الحسورا»

فرفعت المصحف في وجهه تخوفه بالله فكان ما كان مما سلب ذكره.

ونقل آخرون عنه شعراً تهديفياً «تَلَعَبَ بالخلافة هاشميّ بلا وحي أتاه
ولا كتاب. فقل لله يمعي طعامي. وقل لله يمنعي شرابي!»



بصرف النظر عن صحة أو كذب تلك الفظائع الدينية المسبوبة إليه، فإنها لم تكن السبب المباشر في الثورة العاتية التي احتلت حكم الوليد بن يزيد، بعد أقل من عامين من مبايعته

فرغم محاسنه مع عامة الناس، فإنه كان على العكس تمامًا مع «خاصة» الدولة من زعماء التكتلات القبلية، بل وكبار رجالات البيت الأموي والبيوت الخليفة

فقد اعتقل خالد بن عبد الله القسري، كبير اليمية واليد الباطشة لبني أمية، وعذبه حتى الموت، فأوغر صدور الحزب اليميني ودفعه للانشقاق عنه، ومطالبة ابن عمه يزيد بن عبد الملك بن مروان بخلعه.

وضيق على أهل عمه الخليفة الراحل، حتى صار بعضهم يزور قبره، ويكي شاكياً ما صارت إليه الحال ونجاهل مشيخة بني أمية من أهل الكفاءة، فعقد ولاية عهده لابنه الحكم وعثمان، وهما بعد حدثان.

وأما الطرش بني عمومته فحدث ولا حرج فقد جلد سليمان ابن عمه هشامًا وحلق لحيته ونفاه لعمان، وحس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد بن عبد الملك وزوجته عتوة، واستولى على جارية لآل الوليد ورفض ردها وصار ينكل بني أمية نكال من لا يعرف لهم رحماً ولا قرابة. حتى قيل إنه قد جعل عمه ١٠٠ جامعة (قيد حديدي يجمع اليدين للعنق) على كل منها اسم واحد من أقاربه الأمويين.

باحتمار كان نموذجاً قوياً للتدمير الذاتي. فلم تمهد الخلافة من قبله رجلاً يعتمد خسارة كل حلفائه المحتملين، وتحويلهم إلى أعداء موثورين يطلبون رأسه، وأن يتواتروا على ابن عمه يزيد بحرضونه على خله، فينهض في ذلك نهوضاً نشطاً.



استغل الثائرون غياب الخليفة في عمان، فذاهموا العاصمة دمشق وقضوا على رجاله بها. وتقدم الوليد يحاول يائساً إنقاذ ملكه، تارة بالتفاوض وتارة بالقتال. ولكن كان الأوان قد فات وتمزق الأمر عنه، فانتهت به الحال محاصراً

في بعض قصور دمشق، وقد رحمه الجند حين رأوه وهم يصرخون أن «اقتلوه
قتلة قوم لوط!»



سار في أروقة القصر ذاهلاً عن المرح والمرج بين رجاله، حتى بلغ
معدنه أحكم إغلاق الباب ودار بنظره الرائع يبحث عن شيء ما، حتى
وجد مصحفه، فتاوله وحلّس ناصراً إياه بين يديه وهو يتمتم بنفس الشroud
«يوم كيوم عثمان».

انفصل عن العالم من حوله واستسلم لذهوله، حتى لم يعد يسمع صراح
أهل الدار، ولا تلك القبصات الهائجة التي اجتشت باب الغرفة من مكانه
غاب عن الموجودات فلم يعيده لكيئوته إلا برودة البصل الخاد وهو يمس
عنقه. اجتثته قصة عاتية من مجلسه وتسانقت الأيدي على انتهاك حرمة
بدنه برغم قوته الدنية الهائلة لم يحاول رد صافع أو لاكم أو دافع له من
قفاه. ترك جسده لر قصة الصرب المميت، حتى وضع السيف هاتفاً مرقاً
عنه



حُمل الرأس ليزيد يسيراً هو يتناول غداه. نظر له ملياً ثم أمر برفعه على
رمح وعرضه على الناس.

اعترض البعض على عرض الرأس بهذا الشكل، معللاً اعتراضه بأن
العادة قد جرت ألا تعرض إلا رؤوس قتلى الخوارج، ولكن يزيد بن الوليد
من عبد الملك - الخليفة الجديد وابن عم الخليفة القتيل - أصم أذنيه عن تلك
الاعتراضات.



أجمع كتاب التاريخ الإسلامي على أن الوليد بن يزيد قد استحق مصيره، ولكنهم أوردوا كذلك روايات تنفي عنه التطاول على القرآن أو نكاح نساء أبيه. أقروا أنه كان بالفعل سكيراً عريداً، لكنهم رووا عنه أنه كان إذا حصرته الصلاة بذل ثياب عريته بثياب بيض وتوضأ وصلى، ثم عاد لما كان فيه من اللهو والشرب.

قل آخرون بأنه سواء صدق أو كذب ما نُسبَ للوليد بن يزيد، فإن ثورة بني عمومته عليه لم تكن لانحلال ولا لعريته، وإنما كان دفعها الطمع في مصب خلافة، وما كان من الوليد من تطاول على «مراكز القوى» دولته - وهو رأي أرجحه - لأن بني أمية لو كانت بثورون على فاسد أو عريدي، لمجرد كونه كذلك، لكان يزيد بن معاوية أولى بأن يثوروا عليه.

في كل الأحوال، فإن ممقتل الوليد كان العد الثناري لدولة بني أمية في المشرق يقترب من نهايته.. أو كما قال أحد أمرائهم - العباس بن الوليد بن عبد الملك - وهو يرى اقتتالهم فيما بينهم «يا بني مروان! إي أرى الله قد أذن في هلاككم!»



مروان بن محمد

لسان الخليفة في قم هر!

جنوب الشام - معسكر الجيش العباسي - ٧٥٠م

متشعًا بالسواد، شعري العباس، جلس عبد الله بن علي - عم الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح وقائد جيشه - يتأمل الهر القابع عند قدميه يلتهم مصفة دامية توتر القط لدحول بعض الرجال إلى الخيمة، هال القائد عليه وريت ظهره مطمئناً، وقد علت شفثيه سمة عاتة

جلس الحضور صامتين، وقد بدت الدهشة على وجوههم، للاهتمام لغريب من قائدهم بمراقبة القط رفع الرجل عييه إليهم وقال «أرايتم أعجب من ذلك؟» فلما أجابته نظرات التساؤل رفع من جوار مقعده رأساً مقطوعاً، مَحَّن إليه خصيصاً من «بوصير» بفيوم مصر، حيث هوى جيشن صاحبه.

مد إصبعين فاتحاً الفم الدامي للوحة المحنط، وهو يردف صاحتاً: لسان مروان بن محمد في قم هر. غفلت عن الرأس لحظة ثم عدت لأحد هذا الصغير الخائف قد انتزع اللسان وجاهد في تمزيقه والتهامه.



مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص. آخر خلفاء بني أمية بالشرق.

كان عارفاً بالسياسة أكثر مما كان خبيراً بالسياسة. اشتهر بالشجاعة والشجاعة والشجاعة الشديدة في ميادين القتال، حتى عُرف بـ «مروان الجبار»، ولم تكن تلك سبة، بل كناية عن عياده الشهير في مواطن الناس.

كانت مواهبه تؤهله لمصير مختلف، فقط لو كان قد جلس على كرسي الخلافة في زمن آخر، ولكن لا مكان له «لو» في الواقع التاريخي. فقد شاء القدر أن يكون مروان آخر خلفاء أسرته الحاكمة.

كان مروان يحكم أقاليم الجزيرة المراتية (إقليم يقع بين شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق ويعتبر شمال الرافدين دجلة والفرات) وأرمينيا وأذربيجان، من قبل السلطة الأموية في دمشق. وعندما بلغت الثورة على الوليد بن يزيد، أعلن رفضه حكمه وانحاز إلى حانبه، إلا أن تسارع الأحداث لم يمنحه فرصة التدخل.

كان مقتل الوليد بداية تمزق البيت الأموي، ورغم أن كثيراً من بني أمية قد تنصّبوا الصعداء للقضاء على هذا العاصد، إلا أن ترشح يزيد بن الوليد بن عبد الملك على العرش قد أغضب من كانوا يرونه أقل من هذا شأنًا، فانتفض صده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك في دمشق نفسها، وصار يسه ويتهمة بالكفر، وهبت حمص بقيادة يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، بحجة طلب حق دم الخليفة المقتول، وثارت فلسطين وقد نادى أهلها ببيعة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، بينما خرج أهل الأردن يتهنون باسم محمد بن عبد الملك بن مروان أميراً للمؤمنين.

وانضم مروان للرافضين الاعتراف بحلابة يزيد، ولكن هذا الأخير نجح في إقناعه بالتفاوض وصولاً لحل وسط. إلا أن الوفاة المعاجئة للحليفة أوقفت أي تقدم في الموقف.

سارع إبراهيم بن الوليد - أخو الخليفة التوفي - للاستيلاء على الحكم، ولكن أمره لم يتم، حتى إن الناس كانوا لا يعرفون أيسلمون عليه بالخلافة أم بالإمارة. وسعى الرجل للاستقواء باليمينية، يساً خرج مروان صده مستقوياً بالقيسية، ومتادياً بحق الحكم وعثمان أبي الوليد - الخديفة المقتول - في الخلافة، وتقدم جيش مروان بن محمد نحو دمشق، هارماً القوات لتي أرسلها إبراهيم لإيقاعه، فاضطر هذا الأخير للفرار من العاصمة بعد أن قتل كلا من الحكم وعثمان، ظاناً أنه يفسد بذلك ذريعة مروان للتمرد صده. وتوارى إبراهيم عن السلطة ليلقى حتفه بعد نحو ست سنوات، ولدي اختلّف في ما إذا كان قد مات عرفاً في بعض المعارك اليائسة صد القوات العباسية، أم في المذبحة الدامية التي دبرها أبو العباس السفاح لأسراه من بني أمية.

ودخل مروان دمشق، وبويع بالخلافة سنة ٧٤٥م، ثم انطلق إلى حران - حو ب تركيا قرب الحدود مع سوريا حالياً - وجعلها مقر حكمه، وقد حسب أن الأمر قد استقر أخيراً له.

لكن كرة اللهب كانت قد دارت، وانطلقت لتأكل ما يواحيها، ولم يعد من سبيل لإيقانها.



كان نقل عاصمة الخلافة، من دمشق إلى حران، سبباً في اشتعال عصب الشاميين على الخليفة الجديد. فصلاً عن أن حران كانت مركزاً للقيسية، ما جعل اليمينية تحس أن في تلك الخطوة إقصاء كاملاً لها عن دوائر الحكم، وشقوا عن مروان، وألقوا بدعمهم للدعوة العباسية التي كانت قد انطلقت

في فارس وخراسان، يحمل رايتها أبو العباس بن عبد المطلب، وآل علي بن أبي طالب، وجموع العناصر الفارسية، تحت شعار «الرضا من آل محمد» وعشًا كان نصر بن سيار - والي بني أمية على خراسان - يبعث بالاستغاثات إلى العاصمة طلبًا للعدو لإيقاف المد العباسي، لكن القائمين على الأمر كانوا يكتفون بإرسال الوعود والصائح دون تدخل فعلي، لاسيما أنهم في محاربة بعضهم بعضًا.

تبع ذلك تمرد المدن والمناطق الهامة، مثل حمص والعوطة في سوريا، فصلًا عن إقليم فلسطين، فسارع الخليفة بقمع تلك التمردات بقسوة بالغة أهت التمرّد الوقتي، لكنها لم تقص على الصعبة المتعاطمة في صدور أهلها.

وصعد الخوارج من نشاطهم العدواني في الشام والعراق، وقد استغلوا تمزق الأمويين في صراعاتهم الداخلية من ناحية، وتكاثر المصميين لصفوف الخوارج، لا عن اقتناع بفكرهم بل لمجرد الكاية في بني أمية لا أكثر فأصيبت لجهة التمردات جبهة الخوارج المفتوحة، لترعرع حكم مروان.

وهب سليمان بن هشام بن عبد الملك نائراً في الشام، وخرج كذلك عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على سلطة الخلافة التي صارت في حيص بيص، لا تكاد تعلق بابًا للشر حتى تتمتع عليها أبواب أخرى غيره

وبينما صار مروان بن محمد في شد وحذب هنا وهناك، كانت الرايات العباسية السوداء تشق جسد دولته، وقد جهر العباسيون بدعوتهم واتخذوا الرايات ورسوم الحكم وما كاد الأمويون يميّقون من هزيمة جيشهم في موقعة «الراب» على يد جند بني العباس، حتى كانت مدن وأقاليم فارس

والعراق والشام - عدا دمشق التي دخلها العباسيون عنوة - فتفتح أبوابها
مرحبة بالسادة الجدد.

وحاول الخليفة المتربح من هول ضربات أعدائه أن يصمد في وجه
الطوفان، لكنه وجد نفسه يتقهقر فأرًا مستقلًا من مدينة لأخرى حتى استقر
في بوسير بالفيوم المصرية، ليلحق بموعده مع معركته الأخيرة



بوسير - الفيوم بمصر - ٧٠٠م

كقطع من الظلام كانوا شياءهم المصبوغة بالسواد. «المُسودة» هكذا عرفوا
تمرق رداء الليل عن جمع منهم، تقدموا بركة نحو ثلث الكنيسة المتوسطة أرضًا
دنية وسط الزراعات، متدثرين بالعممة كيلا تُرى قلة عددهم، فتعري من
مع مروان من رحاله بالمقاومة ارنفع على سور الكنيسة مشعل ثم تلاه ثاني
ثالث. قد أحسن القوم بهم إذن لم يعد هناك يد من الالتحام
كسروا أعهاد سيوفهم، وتقدموا وقد عزموا على أسر مروان أو قتله، أو
الموت دون ذلك اجتاحتهم حالة إصرار هائل على إنقاذ أمر أمير المؤمنين
أبي العباس في عدوه، فاستسلوا وانهالوا على المدافعين صرًا بكل صارم
بتار. فجأة تردد الصراخ «سقط أمير المؤمنين» فعلموا أن مروان قد اقتحم
المعركة وأصابه بعضهم وهو لا يعرفه أحيرًا أفتوا مبارريهم وداروا يتحصون
الوحوه بالمشاعل، حتى عرفوا جثة آخر حلفاء بني أمية مما وُصف لهم.
تقدم أحدهم وأخرج سكينًا وحز العنق ثم صر الرأس في قماش بحمله،
وتقدم مع رملاته نحو الكنيسة يفلذون الشق الآخر من أمر سيدهم، بحمل
البيت مروان إليه، ليظهر على من تبقى من بني أمية ويستحق لقبه «الساح»

تناقلت الأيدي رأس «مروان الحمار» حتى استقر بين يدي أبي العباس
 السفاح، الذي سجد شكراً وقد تيقن من استقرار الأمر له ولآل بيته، ما
 دام قد تخلص من هذا المقاتل العنيد، الذي لو كان بجا لصار شوكة في
 جنب بني العباس تقض مصاحمهم، لما عُرِفَ من بأسه وعناده الذي نبذ
 في نهايته، حين أصر أن يستقل القتل واقفاً وسيفه في يده



دهليز إلى ساحة أندلسية

في لعام ٧٥٠م انتهى أمر الدولة الأموية في المشرق.
قام العباسيون بتسُّع أفراد البيت الأموي تفتيلاً وتكيداً، فمر منهم من
فر وداب منهم من داب في جموع الناس
وبين من سحر من بطش السباح، كان شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية
بن هشام بن عبد الملك بن مروان شق طريقه وصولاً إلى بلاد المغرب،
حيث مستقر أحواله من قبيلة بفرّة البربرية. وفي العام ٧٥٤م عبر «در»
- لخادم الأمين لعبد الرحمن - البحر إلى الأندلس. مسرح الاضطرابات
والصراعات بين مراكز القوى.
التقى بدر موالي بني أمية بالأندلس، وحثهم على الاجتماع تحت إمرة
سيده، محاطاً فيهم الولاء والوفاء للبيت الأموي، وكذلك الرغبة في إطفاء
در الفتنة المستعرة بالأراضي الأندلسية.

وبالفعل، عبر عبد الرحمن «الداخل» المضيق بدوره، ودخل الأندلس
في استقبال أنصاره الذين قادهم لإسقاط المدينة تلو الأخرى، حتى دانت
له البلاد بأكملها، وأصبح سيدها في العام ٧٥٦م. ولقَّه أعداؤه العباسيون
«صقر قریش» اعترافاً منهم بدهائه وبراعته ومثابرتة حتى في مواجهة
مؤامراتهم الرامية لإسقاطه تلك المؤامرات التي نجح في فشلها وقمعها
بقسوة بالغة حتى قال فيه أبو جعفر المنصور - ثاني خلفاء بني العباس -

«الحمد لله الذي جعل الحريتنا وبين هذا الشيطان»

لم يقم عبد الرحمن بإحياء الخلافة الأموية وإبنا انتهى وخلعاه بلقب
الإمارة حتى قام حفيده عبد الرحمن الثالث المعروف بـ«الناصر لدين الله»
بإعلان بعث الخلافة الأموية في العام ١٢٩م، وحكم الناصر لسحو نصف
قرن ثم تبعه ابنه الحكم المستنصر بالله، والذي خلفه بعد موته ٩٦١م ابنه
هشام المؤيد بالله، تحت وصاية الوير القوي محمد بن أبي عامر «المصور»،
لتبدأ شمس دولة بني أمية الغرب في الميعب..

هشام المؤيد بالله الخليفة الذي مات ثلاث مرات!

الأندلس - قرطبة - ٢٨ مايو ١٠١٣م

قديمًا وُصِفَت الدنيا فقيل «إن أُقْبِلت ماض الحماهم على الوند. وإن أدَّتْرت
بال الجهار على الأسد»
بعد أن كنت أعتاب خلعا بني أمية في قرطبة قبلة جياه سادات
الأندلس لمحبة تأدياً أمام سادة ملاد الأندلس وعدوة المغرب، صار أمير
المؤمنين وخليفة المسلمين، هشام المؤيد بالله، اس الحكم المستنصر بالله،
وحفيد العظيم عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر لدين الله، سيقه لكل
معاصر أفاق وكل متسلط بالسيف على البلاد.

خمسون عامًا - هي عمره - قضاها يتنقل من حَجَر إلى آخر، من حصار
الغنيان الصقالية إلى قيد المصور بن أبي عامر وابنه، ثم إلى أيدي كل من
هب ودب عن تداولوا الخلووس على كرسي الحكم، فهوا أمواله وحريره
وحددوا إقامته، أو من أجلسوه على العرش ومنحوه من الخلافة الاسم لا
الرسم وحكموا من وراء ستاره وصولاً إلى محسه في بعض زنارين قصر
الحكم ينتظر مصيراً يقرره المالك الجديد لرقته «المستعين بالله»، أحد أبناء

عمومته من بني أمراء البيت الأموي، الذي تمزق شر تمزق ورفع أساؤه
السيوف بعضهم في وجوه بعض.

ففر الباب فاه عن بضعة طلال تقدمت بحوه بثقة، راسمة نصف دائرة
حول الحدار عطن الرائحة الذي ألصق به ظهره، كأنها يستجديه ابتلاعه
افصل ظل عن رفاقه وابحنى بحوه. عرف في ملاحه محمد - ابن المستعين
بالله - وكذلك عرف جيدًا ما الذي يعنه ذلك الحبل السميك، الذي
أخرجه من عاءته وأمسك طرفيه وهو يشير لعص رحله بتقييد حركة
السجين.

أشيع بعد ذلك أن هشامًا المزيد لم يمض، وإبما تم نقله إلى حدرج السحر
- بمعرفة محمد بن المستعين - وتهربه على ألا يظهر له أثر أو ذكر بعد ذلك
إن كان يريد أن يحتفظ برأسه على كتفيه فتوجه إلى بعض المدن الصغيرة
بالبلاد وعاش متحفيًا في فقر شديد، حتى إنه اضطر للعمل كسقاء، يسما
أكد البعض أنه قد قُتِل بالفعل ودُفِنَ سرًا.

لم تنمق كتب التاريخ على نهاية عديدة هشام المؤيد، ولكنها اتفقت على
أنه لو كان قد لقي حتفه في الواقعة المذكورة، فإنها لن تكون المرة الأخيرة
التي يموت فيها، خاصة أنها - كذلك - لم تكن المرة الأولى



كان في الحادية عشرة من عمره، حين مات أبوه الحكم المستنصر بالله في
فبراير ٩٧٦م سرعان اصطدمت الأثقال بالأثقال، فحاول الثقيان الصقالة
(عيد من أصول أوروبية استكثر الأمويون منهم واتحدوهم قوة ضاربة
حتى أصبحوا مركز قوة دأشان) أن يجعلوا عمه المعيرة خليفة، لميلهم إليه

ومعهم أن خلافة هشام متعي أن الحكم في حقيقة الأمر سيكون بيد
ثل من أمه «صبح الشكشبية»، والوزير الأول جعفر المصحفي، ووكيل
أعمال الخليفة الفتي الطموح محمد بن أبي عامر.

لكن سرعة تصرف الثلاثي سالف الذكر أجهضت مؤامرة الصقلنة،
وانتهى الأمر بهم بين معي ومطروود بل ومقتول، عدا من انصروا بعد ذلك
بمحت حجاج محمد بن أبي عامر، وترجع هشام على كرسي الخلافة وحوله ملأه
أمره الثلاثة، الدين سر عدا ما اختصره إلى اثنين - أمه صبح ووكيله ابن أبي
عامر - بعد تعويها على الإطاحة بالمصحفي وعشيرته، ثم انفرد محمد بن أبي
عامر بالتسلط عليه بعد أن سيطر بأمره على أركان الدولة وصار لوزير
الأول والقند الأعلى، وصاحب الأمر والسهي الملقب بـ «الملك المنصور»
بل وراودت المنصور فكرة حلع هشام والتلقب بالخلافة لولا أن أنشأ بعض
العقلاء - وعلى رأسهم الإمام ابن حزم - عن ذلك خوفاً من أن يؤدي ذلك
لأصحار موالى بني أمية ومن يرتبطون عاطفياً بحلافهم من العامة
كل هذا والخليفة محصور عليه في قصره بين محظياته وخدمه، بديعة
حمايته من المؤامرات ومساعدته على التمرع للمعادة

ذلك، لتعقل الذي أدهاه المنصور ومن بعده ونده وورثه عبد الملك «المطر»
فيما يخص حياة منصب الخلافة، لم يتحل به حليتهما عبد الرحمن بن المنصور،
الذي كان شأنه مستهتراً فاسداً، وطاغية فاحشاً، فاستخدم القوة لإحلال
الحليعة على تعيينه ولياً لعهد، متفرداً بأن المؤيد لم يكن له ولد يرث الخلافة

كان هذا التصرف - كما تنبأ ناصحو المنصور قديماً بتجنيبه - بمثابة كسر
قفل العنة والقشة التي قصمت ظهير البعير عدا من كانوا يغنون سحقاً
من حكم العامريين، سواء من بني أمية أو البيوت العربية الكبيرة أو عامة
الشعب، فاضجرت الثورة في ١٠٠٩م وأسقطت حكم آل ابن أبي عامر،
وأنت بأحد الأمويين - محمد بن هشام بن عبد الحار بن عبد الرحمن الناصر

الملقب بالمهدي - خليفة جديدًا بعد أن أُجبرَ هشام على خلع نفسه لصعده وهوانه، وصودرت ممتلكاته وأُلْزِمَ الإقامة الجبرية.

كان «المهدي» حية أمل حقيقية لمن ساندوه، فقد كانت حاشيته من السوق والعاسدين، وقد أطلق لهم العنان فأهانوا كبار مشيخة قرطبة وأساءوا للبربر - الذين كانوا يمثلون قوة مسلحة يُحَسَّب لها حساب - وصايقروا العامة الذين سحَبوا دعمهم له.

كذلك تصرف الخليفة بعباء متقطع النظر حين أقصى «الفتيان العامرين» - وهم فئة من الصقالبة كان ولاؤها للمصور بن أبي عامر - وقام بتسريح سبعة آلاف جندي من الجيش بحجة توفير النفقات، فتحول الصقالبة إلى كتلة مناثرة له، وقرر المقاتلون المُسَرَّحون أن يصحوا شوكة في جنبه.

عادت أصوات التدمير ترتفع وتذر الثورة تحوم في سماء قرطبة، ويدعو أن المهدي قد خشي أن يتخذ المعارضون له من خلعه هشامًا المؤيد ذريعة ويطالبوا بعودة المحلوع، فاستغل فرصة وفاة رجل من أهل الدمة يشبه الخليفة، فأحضر جسده وعرضها على قصاته ووزرائه الذين شهدوا أن المتوفى هو هشام فأعلن المهدي رسميًا في ٢٦ أبريل ١٠٠٩م وفاة الخليفة السابق هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، ودفعه في مداخل القصر بقرطبة، بينما أخفى هشام الحقيقي في عياض سجنه.

كانت هذه الميتة الأولى لهشام المؤيد!



انضمام بعض بني أمية لجانب المعارضة أغضب المهدي، فتصرف برعونة كعادته وقض على بعضهم، ومنهم أحد مشيخة بني أمية سليمان بن هشام بن عبد الرحمن الناصر - فثار ابن سليمان هذا وانضم له المتمردون وبدأ التحرك

السلح ضد محمد المهدي الذي انتصر في الجولة الأولى وتمكن من قتل عدوه، ولكن قائد الثوار المقتول حلفه ابن أخيه «سليمان» الذي بادى به أنصره حلقة ولقبوه «المستعين» وانضم له البربر وراح يحرص سطوته على مساحة كبيرة من البلاد، حتى صارت الأندلس مقسمة بيه اثنين من الأمويين، محمد المهدي وسليمان المستعين.

ولأن الحماقة أعيت من يداويها، فقد بدأ كل من العريقين البحث عن حلفاء «حارحين» له، فراسل كل منهما ملك قشتالة يحثه على التحالف معه ضد حصمه

و بصم القشتاليون لمريق «المستعين» بعد أن اشترطوا عليه تسليمهم بعض المدن والقلاع ثمًا لذلك¹

وبدأت العمليات الحربية، وتلقى المهدي الخزيمة تلو الأخرى حتى حوصر في قرطبة، فحاول أن يقد شرعية بوسيلة يائسة، إذ أخرج هشام المؤيد من سجنه وعرضه على الناس باعتباره الخليفة الشرعي المتنازل له الذي يضمن عليه الشرعية في مواجهة سليمان المستعين وكان يحاول بذلك استمالة البربر الذين سحروا منه وبقوا على موقفهم صده، وصافت به الدنيا فهرب من قرطبة متكرًا، ودخلها من عمومته المستعين وقد أمر بالحفاظ على حياة المؤيد، ووجد على قرطبة الملك سادشو جارثيا - ملك قشتالة - يطلب ثمن تعاونه، فوعده الخليفة الجديد بذلك فور استقرار الأمور لأن الولايات الأندلسية كانت قد تفرقت بين معترف به وبإق على ولاته للمهدي.

وكان الحياة ساق، فقد سارع المهدي لتقليد حصمه بالتحالف مع أعدو، وطلب عون الأمير رامون الثالث أمير برشلونة والأمير أرمجو أمير أوفلا، اللذين أرسلوا له عشرة آلاف مقاتل صممهم ثلاثين ألفًا من أعوانه وهاجم قرطبة مجددًا واستطاع المهدي طرد سليمان من العاصمة وعاد للترجع على كرسي الخلافة.

كل هذا وهشام المؤيد في مقعد المتعرج²

ولكن عودة محمد المهدي سيرته الفاسدة واعماله في المجون - كأبام
ينعلم من الدرس السابق - أدت هذه المرة لاصفاص أقرب رجاءه عنه.
واتفاقهم على التخلص منه.

وبالفعل في ٢٣ يوليو ١٠١٠م اقتحمت مجموعة من المسلحين قصر
الخلافة ومزقوا سيوفهم المهدي، وأعلنوا تنصيب هشام المؤيد بالله
خليفة للأندلس، ليدخل في مرحلة جديدة من كونه ممعلاً به!



بما كان المؤيد يمارس - للمرة الأولى في حياته - حريته في الحرر
والتجول في العاصمة قرطبة، كان «المستعين» يستجمع قوته لاسترداد ما
يراه حقاً له في الحكم.

وعاد البربر - حلفاء المستعين - يرسلون سانشو ملك قشتالة ويعرضون
عليه التحالف، لكنه هذه المرة فضل مخاطبة المؤيد وطالبه برد الحصون الشمالية
التي كان أبوه الحكم وحاجه المصور قد فتحها، فاضطر لتسليمها له مقابل
رفعه الاصنام للمستعين، وهذا فقدت الأندلس تحصيناتها الشمالية!
تقدم الحند البربر من أسوار قرطبة وضربوا عليها، وحصر، وكان هذا
لم يكف الخليفة البائس؛ الذي لم يكذبها بحره ولو صليل من خلافة، فقد
هجمت السيول على محيط المدينة وحرفت دورها وحلحت أسسات سورها.
كذلك فقط قُذِّدَ الأمس داخلها وتصارع المحيطون هشام على امتطاء مقاعد
السيطرة عليه، فقتلوا بعضهم بعضاً وقمعوا أهل قرطبة فكان من الطبيعي
أن تهزم قرطبة أمام القوة البربرية، وأن يحتاج البربر العصمة ناشرين فيها
الرعب والسلب والنهب. وأن يُجْلَع هشام المؤيد بالله مرة ثانية ويعتقله
سليمان المستعين، ثم يُعلن موته للمرة الثانية، ويشوب مصيره العموض



أحداث كثيرة شهدتها الأندلس قبل أن تشهد «العتش» لأخير هشام المؤيد، ثم ميته النهائية.

فالمستعين لم يبا بحكمه حتى خرج عليه علي والقاسم إبا حمود، من أسرة «الأدارسة» أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، والدير حكموا المغرب الأقصى حتى أسقط المصور حكمهم فذاؤوا في جموع البربر وتغلغلوا في الحسد الأندلسي، حتى وانتهم الفرصة لانتراع الملك مجدداً

تقدم علي من قرطبة واستطاع هزيمة المستعين وأسرته، فحاكمه سريعاً بتهمة قتل الخليفة هشام ثم أعدمه، وأعلن للناس أن هشاماً كان قد أعطاه عهداً بالخلافة من بعده، وأعلن نفسه خليفة وتلقب بـ «الناصر لدين الله» ولأن التمردات والامقلابات كانت تعطى المرحلة، فقد رفضت بعض المدن الأندلسية مبايعة ابن حمود، ونادت بأحد رجال بني أمية - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر - خليفة لتلقب «المرتضى»..

وبسبب كان كل من الناصر والمرنسي يستعد لمواجهة الآخر، لقي كل منهما حتفه، فالمرتضى انقاد لما يمكن وصنع بالفتح لمواجهة بعض القوات البربرية الخليفة لاس حمود، فقتل في المعركة. أما علي بن حمود فقد اغتاله ثلاثة من الخدم النصفالبربر وهو في الحمام، وكانوا من موالي بني أمية لدين أعصمهم استيلاء بني حمود على «حقهم».

دخل القاسم بن حمود - أخو علي - قرطبة وبويع بالخلافة وتلقب بالمأمون، وأعدم قتلة أخيه، ولكن يحيى وإدريس ابني هذا الأخير اتبها عمهما بالاستيلاء على حقهما في خلافة أبيهما، فاستعد الطرفان للحرب، ولكن القاسم أثر السلامة فاستحب من قرطبة وتركها ليحيى بن علي بن حمود لذي بويج خليفة يتلقب المعتلي بالله، بسبب توجه القاسم لإشبيلية وتلقى فيها البيعة بالخلافة وغير لقبه إلى المستعلي. وتفاهم الخليفان على حسن الحوار، الأمر الذي أثار سخرية المؤرخين من وجود خليفتين يسبها مسيرة ثلاثة أيام فحسب!

ولأن أهل قرطبة اشتهروا بتقلب الأهواء، فسرعان ما انقلبوا على يميني
 المعتلي وخلعوه وطرده، وعادوا لمبايعة القاسم، ثم عادوا للثورة وخلعوه
 وطرده حيث وقع في قصة ابن أخيه يحيى الذي حبسه ثم قتله حتفًا!
 استغل بعض أمراء بني أمية إقصاء بني حوود عن الأمر فوثب أحدهم
 - عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر - على كرسي
 الحكم، وتلقب بـ«المستظهر».

وكانه لم يتعلم من أخطاء أسلافه، فقد ارتكب نفس الخبايا من قمع
 واستمرار للعامة، فثاروا عليه واقتحموا القصر، ما اضطره للاحتباء في
 الحمام.

ورفع القرطبيون أمويًا آخر للخلافة هو محمد بن عبد الرحمن - من أحفاد
 عبد الرحمن الناصر - وبايعوه وتلقب بـ«المستكمي» (وهو أبو الشاعرة الشهيرة
 ولادة) واستطاع هذا القمض على المستظهر المحلوع وقتله.
 ولكن كان المستكمي كهلاً في الخمسين، فاسدًا سكيرًا عريضًا مشهورًا
 بالفحش والحس فكان ملقبًا بين الناس بـ«الخواف» و«السمين» بقي لمدة
 عام ونصف تقريبًا يتحط في شؤون الحكم حتى اضطرت الاضطرابات
 للفرار من العاصمة متكرًا في زي امرأة، ليلقى حتفه على يد بعض مرافقيه،
 ظنًا منهم أنه يحمل ما يمكنهم سرقته!

أخيرًا سئم القرطبيون من محاولاتهم الحفاظ على خلافة بني أمية، فانتصروا
 حول الوزير أبي الحرم بن جهور - عميد العائلات القرطبية انعريقة - والذي
 تميز بالحكمة والصلاح، وقرروا إلغاء الخلافة الأموية نهائيًا، بعد أن بذلوا
 بعض المحاولات الأخيرة الفاشلة، فأعلن الملام من المدينة ذلك سنة ١٠٣١ م
 وبالفعل كانت السلطة المركزية قد انهالت تمامًا، وحارت كل عائلة
 كبيرة أو فئة مسلحة قوية على مساحة من الأندلس وأعلنتها مملكة مستقلة،
 في ما يُعرف بعصر ملوك الطوائف

وفي هذا العصر. كان المشهد الأخير هشام المؤيد. أو بمعنى أدق: لمن
أذيع أنه هو!



كانت إشبيلية - آنذاك - تحت حكم «آل عباد». وهم عرب من أصول
بغية، حيث كان قاضيها إسماعيل بن عباد من كبار رجال السياسة
والحكم الأندلسيين، وحين اعتزل مناصبه ورثها ابنه محمد، الذي ترأس
مجلس إدارة المدينة بعد انهيار مركزية الحكم من قرطبة

تفق ذهن محمد عن فكرة شديدة الدهاء لإضعاف الشرعية على حكمه،
ولتبرير توسعه على حساب جيرانه. فقد خرج يومًا على الناس برجل
عجوز، وأدعى أنه الخليفة المحتفي هشام المؤيد. صاحب الحق الشرعي
في حكم الأندلس

وفي قرطبة - التي كانت آنذاك حليمة لإشبيلية - بويغ المدعى كونه هشامًا
بالحلاقة، وهو جالس خلف ستار، وسمع الحضور صوته وهو يعلن تفويضه
محمد بن إسماعيل بن عباد لحكم المملكة وتوحيدها تحت رايته. كان هذا
في العام ١٠٣٥م

بقيت هذه الحال لمدة سبع سنوات من عمر محمد بن إسماعيل، ثم في العام
١٠٤٢م توفي ليحلّقه ابنه المعتضد، الحاكم الرهيب الذي اشتهر بـ«حديقة
الحماجم» التي كانت أصص ورودها مصنوعة من حماجم أعدائه، وكذلك
يقتله ابنه إسماعيل بيده إثر تمرده عليه

مارس المعتضد نفس لعبة أبيه مع «الخليفة». حتى العام ١٠٥٨م حين
أعلن قطع الخطبة للخليفة هشام المؤيد بحكم وفاته، والتي قال إنها وقعت
منذ فترة، إلا أنه أخفاها مراعاة لظروف البلاد.

بهذا يكون هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر قد

ذاق ميتته الأخيرة. لتكون «ميتاته» مأساة في كل منها كما كانت كل حبة له.. ولتكون نهايته.. أو لنقل نهاياته.. هي من الأغرب بين نهايات الخلفاء!



ايوان عباسي

في أكتوبر ٧٤٩م، بمدينة الكوفة العراقية، بويع عبد الله بن محمد بن علي العباسي - المعروف بـ «أبي العباس السفاح» - أميراً للمؤمنين، معلناً قيام الخلافة العباسية، التي امتد عمرها نحو ٨١٠ سنة.

اتخذ السفاح عاصمته مدينة «هاشمية الأبار» - على ضفاف نهر الفرات - وعاش بها حتى وفاته سنة ٧٥٤م، وفي العام ٧٦٢م أسس خلفه «أبو جعفر المنصور» مدينة بغداد، التي ارتبط اسمها بتاريخ دولة بني العباس، حتى قيام الممولى باقتحامها وتدميرها وإسقاط الخلافة العباسية بالعراق سنة ١٢٥٨م.

وفي العام ١٢٦١م استحضر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أحد أبناء البيت العباسي، ممن نجوا من مذبحة بغداد، إلى القاهرة بمصر، وأثبت سسه بحضور القصاة والعقهاء، وبإيماء حليمة للمسلمين، لتدخل الخلافة العباسية مرحلتها «القاهرية»، حتى دخول العزاة العثمانيين بقيادة سليم الأول سنة ١٥١٧م، وأسرهم الخليفة واستيلاء سلاطين بني عثمان على اللقب الخلفي.

موسى الهادي.. هل قتلت أم الخليفة ابنها؟!

بغداد - قصر الخلافة - ٧٨٦ م.

«لا بد من إيجائي إلى ما عرصت عليك من الأمر»
قالت لها الخيزران - أم الخليفة الهادي - لابنها بإصرار، ثم أردفت «قد
صمنت قضاء تلك الحاجة لعبد الله بن مالك»!

انقذت عينا الهادي غصًا وهو يرمح «ويل مني لابن القاعة! قد علمت
أنه صاحبها! وقد علم ما شاع من أن من كانت له حاجة فعليه بباب أم
الخليفة! هو الله ما أقصيتها لك!»

هبت معضبة «إذن والله لا أسألك حاجة أبدًا»
فترجع في مقعده قاذفًا غضبه عبر نظرات التحدي «وأنا والله لا أبلي!»

قامت مندفعة إلى خارج القاعة فصرخ بها: «مكانك!»

لم تعد تلك الصرامة من الثنى المتروك الذي لم يحاوز بعد بدايات العشرينات

من عمره. غزت ظهرها قشعريرة باردة والتفت ببطء وأردف هادراً «مكانك والله! وإلا أنا نقي من قرابتي من رسول الله!» قام عن كرسيه واقترب منها حتى أحست أنفاس ثورته تكاد تحرقها وقال مكتملاً «لش بلعي أنه وقف سانك أحد من قادي وحاصتي لأضربن عنقه ولأقصن ماله! ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بانك؟» أما لك معزل يشعلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟! ليالك وليالك أن تفتحي بيتك لمسلم ولا ذمي!» قالها ثم أولاهها ظهره معتلياً كرسيه، وهو يتن بعينه أثر قوله على وجهها المحمر من فرط الصدمة والعصب اضطنع هدوءاً ظاهرياً وارتداه على صفحة وجهه، ثم أشار لها بتعاضم أد لك أن تنصري فانطلقت تعادر بخطى عاصفة وقد أدهلها الغضب عن التطق بنت شفة.



أشار بيده أمراً فقطع انهماك وحال دولته في نقاشهم اعتدل في مجلسه سائلاً: «أيها خير، أنا أم أنتم، وأمي أم أمهانكم؟»

تبادلوا النظرات وقد أدركوا مرمى السؤال. قال أحدهم بحفوت «بل أمير المؤمنين وأمه خير»

مال نحوه وقال من بين أسنانه «فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بغير أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت؟» فأجابه وقد شاب نبرته وجل. «لا نحب ذلك».

أرجع ظهره مسترخياً في مقعده وحال نظره في وجوههم مردفاً بصرامة شديدة: «فيا بالكم تأتون أمي فتحدثون بحديثها؟!»

أرتج عليهم فلزموا الصمت. وأدرك هو أن سهمه قد أصاب مرماء فبسط عبوس وجهه وعاد لنقاشهم السابق كأن لم يكن له من انقطاع.



أسد رأسه لقضته واتسم بتهكم وهو يسأل الجارية المائلة يحضرته
رسولة عن أمه الخيزران: «تقولين إنها قد أكلت من الأرز واستطاته؟!»

استرجعت الجارية مشهد موت الكلب الذي أداته بعض حوار
الخيزران من الأرز التي قد أرسلها لها الهادي، شكًا مهن أنه قد دس فيها
سمًا لأمه!

خفصت الفتاة نظرها نصطنع التأدب في الطاهر، وتحمي اضطرابها
لإدراكها كشمه كذب ما جابت به في الحقيقة، ثم أجابت «بلى. قد أمرتني
أن أبلغ أمير المؤمنين ذلك»

أطلق صيحة متورة، وأشار لها أن تدنو منه ففعلت دون أن ترفع عينها.
رفع وجهها إليه بسابته وقال سابراً عينها سطراته الحادة «قولي لها إذن
يقول لك أمير المؤمنين بل لم تفعلي. فلو فعلت لاسترحت منك!»
لم تعرف المسكينة إن كان مسب الرعدة القاسية التي مرقت بجسدها
نفثة هو تأكيد الخيفة أنه قد حاول قتل أمه، أم هذوؤه المحيف وهو يعلن
ذلك.

لم تبت حتى تمتت طلب الإذن في الانصراف، وهي تراحم بظفرها
مغادرة حضرة هذا الرجل الرهيب.
كل ما تذكره هو قسوة الجليد في صوته، حين سمعته يقول وهي تنسحب
من القاعة «متى أُلح خليفة له أم؟!»



لم يكفه أن حجر على أمه ما تراءى حقها في مشاركة الخليفة إدارة الدولة، حتى قام في أمر خلع أخيه هارون - الأثير منها عند أمهما الخيزران - من ولاية العهد.

كان الهادي يطمع في أن يجعل ابنه جعفر خلفاً له في الحكم، فاشتد على أخيه كي يتنازل عن ولاية العهد للطفل الصغير حاصر الهادي شقيقه بالاضطهاد إلى حد المجاهرة بشتمه، وإطلاق السنة الخاشية في التطاول عليه. بل وتهده بالقتل. حتى علم الناس غضب الخليفة على العتي فتحاشوه وتحسوا حتى السلام عليه بولاية العهد تدي فحس يحيى بن خالد البرمكي، صديق هارون وكانه، فترة ثم أطلقه كانت رؤيا أبيهما المهدي تؤرق الخليفة فقد استيقظ المهدي من نومه يوماً ليحبرهما أنه قد رأى في المنام أنه قد أعطى كلا منهما قصيصاً من شجر، فأبى الورق في قصيب الهادي من أعلاه، يسا أورك قضيب هارون - الملقب بالرشيده - كله. ففسر الأب الحلم أن الهادي لا تطول أيامه في الخلافة، بينما تطول أيام هارون ويكون عهده عهد اردهار وعظمة والهادي يحس تحق الرؤيا المشؤمة عليه، المرعوبة للرشيده.

استمر موسى الهادي في نيه على الرشيده، حتى قال له هذا الأخير في مرارة شديدة: «يا موسى إنك إن تجبرت وضيعت، وإن تواصت رُبع، وإن ظلمت قُتلت وإن أنصف سلمت، وإني لأرحو أن يُعْضِي الأمر إلي، فأُصْف من ظلمت، وُصِّل من قطعت، واجعل أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي»

مررت بالهادي لحطات رقة عابرة بأخيه، وأدناه منه فقبَل يده وتودد إليه وأنعم عليه بالأموال.

مرقت تلك الأفكار برأس الخيزران، وقد تمددت على فراشها وشردت في تهاويل السقف، بعد أن بلغت أناة رجوع الهادي من سفرته إلى الموصل،

وقد توعدت واشتد به الوجع إلى حد إطراحه الفراش، وقد أعييت محاولات مداواته الأطباء.

ألحت عليها فكرة مزعجة: لو أن الخليفة توجس من موته في مرضه، فقد يشتد في أمر خلع أخيه من ولاية العهد، وربما اقترف ما هو أكثر عتوًا. تقاذفتها الأفكار الخالكة وهي تحاول الفكاك من أشدها قسوة على نفسها أخيرًا بقيت تلك الفكرة تتعاطم حتى طردت ما سواها. اعتدلت المرأة المشهورة بالصلاة من مرقدتها وقد عقدت النية على ما لا بد منه، وإن تناقص مع ضعفها الأمومي الفطري.



قصر عيساباذ - سبتمبر ٧٨٦م

كان بركانًا يبعث من جوفه فيقذف الحمم إلى حلقه احتشد في إظهار التجلّد في مواجهة عاصفة الألم التي اجتاحتها بعثرت وعيه بالموجودات لم يحس بتلك الأخطاب الخفية التي دلفت إلى مخدعه وأحاطت بعراشه. فقط استروحت أنه ربحًا أشوية عابرة، ثم أحس بغثة أن جيلًا قد أطلق على وجهه وكنم أنفاسه. انشابه يقظة معاجنة بعثتها عريرة البقاء. حاول أن يصرح بالحرس. أن يستعيث بالخدم. أن يزيح ذلك الظل الجاثم على وجهه يجرمه الهواء. زاع منه البصر وهو يتساءل مرتاعًا إن كان هذا واقعًا أم هو من هذيان المرض. لم يخرج جوابًا.

تفجر الحامص كأيًا قرحة بطه التي شحصها الأطباء اندفع عبر حلقومه يحاصر روحه التي بلغت هذا الموضع. والمحيطون بعراشه حيثذ يظنون لم يكن يعرف في احتضاره أن رجاله قد خشوا من أن يموت، فيتولى هارون الخلافة ويتخذ يحيى بن خالد وزيرًا، فيكمل بهم هذا الأخير لمواقفتهم اهادي

في حسه، فكروا في تدبير قتل يحيى، ثم أحجموا تخسًا لأن يبرأ الخليفة من مرضه فيعاقبهم لتصرفهم دون أمره.

كان هذا التردد منهم تدبيرًا قدريًا أصاب سهمه نصيب هرون في كرمي الخلافة، فالخيرران حين توجهت من موت الهادي أرسلت ليحيى من أبلغه الأمر، فكتب رسائل للولاة والقائمين بالأمر يحبرهم بموت الخليفة ويأمرهم بالقيام بأعمالهم، ووضع عليها توقيع هارون الرشيد، ثم انتظر حتى إذا ما توفي الهادي، وسارع بإرسالها حتى يضمن انتقالًا سلسًا للخلافة.



قبل بعد ذلك إن الخيزران، حين مرض ابنها الهادي، استغلت ذلك فدمت عليه بعض جواربها فغمس وجهه بوسادة أو غطاء حتى مات تحتها لأنها كانت تخشى أن يأمر في مرضه الأخير بقتل ابنها الأحب إلى قلبها الرشيد. وحين علمت بموت الهادي، قالت إنها كانت تعلم ثمة نبوءة أن في هذا اليوم يموت خليفة، تعني الهادي، ويتولى خليفة، وهو الرشيد، ويولد خليفة، وكان الرشيد قد ولد له في هذا اليوم ابنه المأمون.

ربما يستعرب البعض توجيه التهمة سالمة الذكر للخيزران، استبشاعًا لفكرة أن تقتل الأم ابنها. ولكن شاعة الفكرة لا تلغي إمكانية وقوع الفعل، فمن دروس التاريخ لسني البشر أن لا شيء مستحيل على الإنسان اقترافه. خاصة في ما يتعلق بالملك، فالملك - كما يخبرنا القول المأثور - «عقيم» وهو القول الذي سأل المأمون يومًا أباه الرشيد عن معناه، فأحابه الخليفة المزدهجة حياته بالتجارب القاسية هذا الصدد، أن معناه هو «لوازعني» - يعني ابنه المأمون - هذا الأمر أخذت فيه عيناك أي قطعت رأسك. وهو المعنى الذي عاشه المأمون بعد سنوات مع أخيه الأمين. كما سنرى لاحقًا.



محمد الأمين

خليفة قتله غدرة

- بغداد - أغسطس ٨١٣م

اشفق على هذا الدائس المرتعد أمامه بردًا وخوفًا، فزاع عباءته وألقاها على
جسده العاري، إلا من سروال وحرقة مهترئة لا تكاد تستر كتفيه المرتجفتين.
أعاد إليه الشاب عباءته وهو يقول من بين أسانه المصطكة «لا هذا
الموقف أدعى لهذه الخرقه من تلك العباءة» ثم بدت نظرة استجداء في عييه
وهو يقول «هل لي أن تصمني؟ قلبي أشعر بالوحشة»

اعرورقت عينا أحمد بن سلام - صاحب النظر في المظالم بالدولة - بدموع
المعطف على عزيز قوم ذل، بل قد كان قبل دله أعر هؤلاء القوم مكانًا قام
وصم الرجل إلى صدره. استشعر خفقانًا عنيفًا ينبعث من صدر المسكين
ويستقل إلى داخل صدره.

بينما هو جالس إلى المستجير به يحاول عمدًا تهدئة روعه، ارتج الباب
مفتحًا بدفعة قدم عاتية، فوثب أحمد يحاول إنشاء أولئك الذين اقتحموا
الدار مشهرين سيوفهم، عن جلسه الذي وثب بدوره وهو يردد يدهول «إنا
لله وإنا إليه راجعون! ذهب نفسي والله!» ثم صرخ بهم في هجة ظاهرها
الزجر وباطنها الاستجداء «أما تتقون الله؟! أما فيكم من يدفع عني؟!»

شقت ذئابة سيف طريقها إلى مقدمة رأسه فشجتها تراجع خطوة إلى الوراء ورفع وسادة يده في محاولة يائسة لاتقاء صرصة أخرى، إلا أن تلك التالية راوعته متحذة طريقها إلى حصره.

اجتاح الألم جده صعداً فاهار على ركبيه.

احتاج ابن سلام إلى لحظات ليستوعب ما تلى من مشاهد. تلك اليد الغليظة التي حذبت الراكع من شعره، معية يداً أخرى هوت بالسيف على مؤخر العنق فاجشت الرأس من موضعه. وعندما شر حامل الرأس الدم المسح من أسفله، وهو يارجح حمله يمياً ويساراً، بشوة من أنمله البصر، وربط أحر الحثة من قدميها بحبل وجرها منه، هافقط أدرك أحمد بن سلام أنه قد شهد القتل والتمثيل بالختان بحق محذومه أمير المؤمنين، وحليفة المسلمين، محمد الأمين ابن هارون الرشيد!



المشهد سالف الذكر - والذي نقله لنا مؤرخو تلك الفترة بأدق تفاصيله - ربما يث في القارئ إشفافاً على الأمين من حاتمته المأساوية. ولكن صاحب تلك المأساة كان في حقيقة الأمر يدفع ثمن جريمة غدره بأخويه المأمون والمؤتمن، وبالعهد الذي أبرمه الرشيد بين الأمين والمأمون كما سيرد الذكر.

فالرشيد كان قد أخذ البيعة بولاية العهد لاسمه محمد الأمين سنة ٧٩١م مقدماً إياه - رغم صغر سنه فقد كان في الخامسة من عمره آنذاك - على أحبه الأكبر عبد الله المأمون، وهذا مراعاة لهاشمية نسب أمه ريذة ثم بايع للمأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة ٧٩٩م، وأعطاه ولاية حراسان وما وراءها حتى نهاية الحدود الشرقية للدولة

وفي العام ٨٠٢م بايع بولاية العهد بعد المأمون لابنه القاسم الملقب
بالمؤمن، وولاه أعمال الثغور - المناطق الحدودية المتاخمة للعدو - وعواصم
أولايات وإقليم الجزيرة الفراتية

ولأنه استشر جفوة وتنافرا بين الأمين والمأمون، فقد اصطحبها إلى
مكة في موسم الحج، وأخذ عليهما العهد المشددة ألا يجوز أحدهما على
الأخر أو أن ينازعه ما له، وألا يجورا على أحدهما المؤمن. وكُتِبَ العهد
وعُلِّقَت نسخة منه في فناء الكعبة لتعليق قدسيته.

وفي العام ٨٠٨م، توفي الرشيد ويبيع الأمين الذي كان قد قال مع
قسمه «خذلي الله إن خذلته» - يعني المأمون - وكررها ثلاثاً، ثم مال على
رجله المقرب «الفصل بن الربيع» هامساً «كنت أحلف وأنا أنوي العذر»
ومن هنا بدأت المأساة.



لم يكد الرشيد يحضر في بعض سفره إلى خراسان حتى بادر الأمين
بالغدر، فأرسل إلى خراسان من يستدعي العتاد والجيش فور وفاة الخليفة،
وبالعمل قام الفضل بن الربيع بتلك المهمة دون أن يكثرث لاعتراض
المأمون - المقيم هناك بمدينة «مرو» - على هذا التدخل في منطقة تقع داخل
نفوذه، كما ينص العهد المبرم.

ثم تمادى في غدره ولم يمض عام على مبايعته خليفة، قدأ يتقصص بما
لأخيه المؤمن، ثم بدأ يضايق المأمون وتحرش به، بينما كان هذا الأخير
ذكياً فالتزم ضبط النفس وظل على مخاطبته الخليفة بالتوقير والاحترام، بل
وأرسل له الهدايا. والأمين يتربص بأخيه ويقول لوزيره «ويلك يا فضل!

لا حياة مع بقاء عبد الله! ولا بد من خلعه!

كل هذا والمأمون يوطد محنته لدى الخراسانيين لعقله واتزانته، فضلاً عن اعتبارهم أنه «مهم» بحكم الدم الفارسي المختلط بدمائه العربية، يسماً الأمين ينفق الآلاف على اشتراء العتيان والخصيان، وعلى بناء مراكب على أشكال الحيوانات والطيور لقضاء أوقات هوه ومرحه وشرائه مع بدمائه، ومع العتي «كوتر» غلامه الحبيب الذي كان يفصله حتى على النساء!

بقي الأخوان في مراسلات وماوشات كلامية حتى العام ٨١١م عندما انتزع الأمين من أحبه المؤتمن كل ما كان أبوهما قد ولاه واستدعاء لبغداد، ثم أمر الخليفة الخطباء بالدعاء لابنه الطفل موسى بولاية العهد بعد ذكر اسمه واسمي أخويه المأمور والمؤتمن فتوتر المأمون وقطع البريد بين خراسان ودار الخلافة فحاول الأمين استدراجه إلى مع في بغداد، بأن طلب منه موافاته بها لأمر برعب في الاستعانة به فيها، ثم لما اعتذر المأمون عن عدم السفر - مذكراً الخدعة - راسله أخوه محدداً، طالباً منه تسليمه مناطق محراسان واستقبال مبعوثين من الخلافة للإقليم لتولي وظائف البريد به (والبريد وقتها لم يكن مقتصر على المراسلات العادية، بل كان يقوم بمهام عدة منها الاستخباراتي كأعمال التجسس والتجسس المصاد، ومنها الرقابي ككتابة التقارير عن الولاة، ومنها الحربي كأسلحة الإشارة بالجيوش الحديثة) فثبت المأمون على رفضه تلك المطالب، ودخلت العلاقة مرحلة العداء الصريح فأمر الأمين بإحضار العهد المبرم المعلق بالكعبة ومرقه ثم أحرقه، وأسقط اسم المأمون من ولاية العهد، ولم يقف هذا الأخير كثيراً عند ذلك، فقد كان يتوقعه مسبقاً، وسارع بقطع العلاقات بين إقليم حراسان وما يتبعه من ناحية، وبغداد وما يتبعها من ناحية أخرى، وتولى وزيره «الفصل بن سهل» عملية مراقبة الطرق والمسالك والقبص على المشتبه في قيامهم بالتجسس لصالح بغداد.

وعلى ذكر «العصل من سهل»، فإن الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون لم تكن حرمها وحدهما، بل إن الوضع كله كان عبارة عن حروب متوازية تدور في نفس الساحات. فثمة حرب ابني الرشيد، ومعها حرب «الفصلين» الفضل بن سهل وزير المأمون، والعصل من الربيع وزير الأمين، وكل من يوريرين يمثل معسكره، فبينما كان ابن الربيع يقود المعسكر «العربي» الممثل في الخليفة عربي الأم والأب، كان ابن سهل يمثل المعسكر «الفارسي» المنحاز للخليفة المأمون فارسي الأم، وقد بدا هذا في التعاف أهل حراسان - المعروفين بالخراسانية - حول أميرهم باعتبار أنهم «أخواله»، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت الحالة كلها عبارة عن حلقة في سلسلة الصراع العربي الفارسي، الممتدة منذ بداية التاريخ الإسلامي وحتى يومنا هذا وقد رأى كل منهما أن مساندته لصاحبه ما هي إلا نصرة للعصر الذي ينتمي إليه كلاهما - بشكل أو بآخر - على العصر المنافس



ولم يفتقر الأمين إلى من ينصحه بالرحوع عن العذر، لكن كل من كان يجرؤ أن يطلق بذلك كان يلقي السخرية أو الرجز أو الإبعاد عن المجلس وقال له أحدهم: «يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كدبت، ولن يفتشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيجعلوك، ولا تحملهم على نكث العهد فيكثوا بيعتك وعهدك، فإن العادر مغلول، ولناكث مخدول!» فلم يسمع منه.

وأصر على المباينة لانه موسى ملفاً إياه «الناطق بالحق».

وانتشر شعر يسخر من الخليفة ورجاله، وعلى رأسهم الفضل بن الربيع

وبكر من المعتمر (الذي كلفه بنقل العتاد من حراسان بعد وفاة أبيه كما ورد)،
مع التلميح لبعض الأمور المشينة المرتبطة بسلوك الخليفة والوزير.

وأصاح الخلافة عش الورير	وفسق الأمير وحهل المشير.
ففضل وزيرٌ ويكرُّ مشيرٌ	يريدان ما فيه حتف الأمير.
لسواط الخليفة أعجوبة	وأعجب منه خلاق الوزير.
فهذا يدوس وهذا يُداس	كذاك لعمرى حلاف الأمور.
فلو يستعفان هدا بذلك	لكابا بعروسة أمر سثير.
وأعجب من ذا وذا أنا	سابع للطفل فينا الصغير.
ومن ليس يحسن غسل استه	ولم يحل من بوله حجر ظير.
وما ذاك إلا بفضل وبكر	يريدان طمس الكتاب المنير.
وهذان لولا انقلاب الزمان	أقي العير هذان أم في النفير.

وبانعدام جدوى المفاوضات، انتقل الفريقان من المداوشات الكلامية للحرب المسلحة الصريحة، فأعلن المأمون إسقاط الطاعة لأبيه وتلقب به «إمام الهدى»، وأعد الأمين حملة ضخمة لتوجيهها إلى خراسان وإحضار أخيه مكللاً بقبض فضي أعد حصيصاً لذلك وحشد المأمون جيشاً من جنده ومؤيديه بقيادة القائد العسكري طاهر بن الحسين وتشدد الفضل بن سهل في إجراءات حماية الجبهة الخراسانية من الاختراق بالجواسيس، سيما استطاع تجنيد عيون له في قلب بلاط بغداد نفسه.

ولأنه كان داهية، فقد لعب ابن سهل لعبة بارعة. فقد أرسل لواحد من عملائه بين مستشاري الأمين، وأمره أن يصحح هذا الأخير بتعيين القائد علي بن عيسى بن ماهان - والي خراسان السابق - قائداً للجيش المرمع إرساله لمحاربة المأمون.

كان الدهاية يرمي من ذلك لإثارة حية الخراسانيين في التصدي لحيش
الأمين، وقد كان، فما أن علموا أنه قد اختار ابن ماهان المذكور إلا وقد
ثارت ثائرتهم، وأقسموا ألا يدخل بلادهم إلا على جثتهم جميعاً. لماذا؟
لأن علي بن عيسى بن ماهان، حين كان والياً عليهم في عهد الرشيد،
أساء لسيرة وأخذهم بالشدة فأبعصوه، وشكوا منه فخلعه الرشيد فلما
علموا يعودته لهم اعتبروا ذلك تحدياً لإرادتهم ورعة من الأمين في التكيل

٣٣

والتقى الحيشان بالفعل، والواقع أن ابن ماهان - فضلاً عن عنفه - كان
يتميز بمرور شديد جمعه يقع في فتح جيش عدوه، ويتوغل في بلاده مظهرًا
لاستهانة به بقوله عن طاهر بن الحسين - قائد حشد المأمون - «ما طاهر
إلا شوكة في أعصابي!» وهكذا بقي يتوغل في بيئة معادية حتى وقعت
المواجهة وجرت مدسحة لحيشه فقد هو نفسه حياته فيها.

وحين جاء الأمين بعض رجاله يئذره بهزيمة جيشه ومقتل قائده، كان
يصيد السمك، فزجر حامل الخبر قائلاً «إليك عني فإن كوثر قد صاد سمكتين
وأنا لم أصد ولا سمكة!»

وكرر الأمين المحاولة مرسلًا حملة أخرى، كان لها نفس مصير سابقتها
وحاول أن يستميل طاهر بن الحسين فأرسل له يقول إن ما من أحد نصر أحد
بني العباس على عدو من أهله، إلا كان مصيره بكران الجميل بمن نصره.
فتجاهده طاهر وبدأ يزحف على بغداد حتى بلغها وضرب عليها حصراً
قاسماً، وقد رافقه قائد آخر هو هرثمة بن أعين.

وبدأت المجانيق تصرب المدينة، والرماة على الجانبين يتبادلون رمي
السهام وقذف الحجارة.

وأصاب حجر وجه «كوثر» فأخذ الأمين يمسح عنه دمه ويواسيه في
جرحه، وهو يقول الشعر يعاتب من رموه!

وانحلت أحوال بغداد، وسيطرت عليها الفوضى وانعدم الأمن فيها، وحُرِّت قصورها ودورها حتى يكأها البعض قائلاً: «نكيت دماً على بغداد لما. فقدت عصارة العيش الأنيق. أصابتها من الحساد عين. فأفت أهلها بالمنجنيق»

ووسط كل هذا كان الأمين يسمر في محالس الشراب والغناء واللهو



كان هذا قبل مقتله ليلة أو اثنتين طبع عمه إبراهيم بن المهدي - وكان مشتغلاً بالغناء والعلرب - فجلسا للشراب والغناء وطلبا جارية تعني. فلما عرفا أن اسمها «ضعف» تشامما.

فلما عنت كان يصادف غناؤها أبيات من النوع الذي يحمل أكثر من معنى، فكانت معانيها ترتبط بالهزيمة والعراق وفقد الملك. فزجرها إبراهيم وطردها فقامت مصطربة وتعثرت في قدح شراب الأمين، وكان قدحاً بلورياً نادراً، فانكسر.

فقال الأمين لعمه ورفيقه «ويحك يا إبراهيم! أما ترى؟! والله ما أرى أمري إلا قد قرب» فسارع العم يرد «بل يطيل الله عمرك ويمزج ملكك» فسمعا صوتاً يأتي من بعيد لرجل يقرأ القرآن ويقول «قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان» فقام الأمين وقد سيطر عليه التشاؤم!

واشتد الحصار عليه حتى اضطر لإذاعة أوانيه وصك عملات منها ليدفع المال للحنده، ثم لم يجده حتى شربة ماء في قصره. فقرر الاستسلام لأخيه. ولأنه يدرك أن طاهر بن الحسين يغضه وسبقت له لو أسره، فقد راسل هرثمة بن أعين - وكان معروفاً أن هرثمة يرى الإبقاء على حياة الأمين مع خلعه من منصبه - وعرض عليه التنازل عن الخلافة مقابل حياته، فوعده القائد بذل الجهد لأجل ذلك رغم صعوبته.

واقتحم القائدان المدينة كل من جهته، ويدو أن طاهر كان قد استشعر اتفاق الأمين مع هرثمة فسارع بإرسال قوة أسرت الخليفة، وحبسته حيث تم قتله وعرض رأسه والتمثيل بجسده، وأرسل طاهر إلى المأمون حاتم الخلافة ومعه البردة والقضيب، وهما شعار الخلافة، وقد كنا للرسول محمد ثم حري العرف أن يحتفظ بهما الخلفاء بعد ذلك.

وتحقق دعاء الأمين في يوم العهد المبرم الذي أحرقه، حين قال «خذلي الله إن خذته»!



كان الأمين يرى في المأمون عدوه، لكن لم يكن للأمين عدو أشر عليه من نفسه فكان كمن يسير مخدراً إلى حتفه، وكانت نهايته من جنس عمله بلمعنى الحربي الكامل للكلمة، فقد حاول سلب أحبه حقه فُسِيتْ مُلكه وهو يرى، وغدر بالعهد فغُديرَ العهد الأمان له ربما لهذا يمكن أن يرى القارئ في حرب الأخوين - الأمين والمأمون - نموذجاً لما يوصف بـ «العدالة الشعرية» كما يجب أن تكون!^(*)

(*) قُدمت بالفعل قصة الأمين والمأمون في مسلسل عربي في العام ٢٠٠٦ بعنوان «أبناء لرشيد الأمين والمأمون» من تأليف كل من غسان ركرما وعازي الدببية وإخراج شوقي الماحري وبطولة إياد نصار وسدر رياحنة ورشيد عساف.

جملة اعتراضية

بمقتل الأمين وتولي المأمون الخلافة، عادت العاصم الفارسية لتُصدّر
المشهد، وتلتعلّق في مؤسسات الحكم وبدأ النفوذ العربي يحسّر تدريجيًا.
وبعد وفاة المأمون، ومبايعة أخيه أبي إسحاق محمد الملقب بـ«المعتصم بالله»،
انتقل النفوذ إلى العصر التركي، تأثرًا من المعتصم بأمة التركية،
وكذلك لأنه قد استوحش من جانب الجند العرب فاستبدّ بهم بجند أتراك
حلّهم من أقايم سمرقند وبخارى وفرغانة (في أوزبكستان حاليًا)، ونسبة
ها اسم فرغاني الذي خُوف إلى فرغلي)، وبدأ يستكثر من المماليك الترك
المسلّحين ليكوّنوا عصبة قوته وعندما ضاق بهم أهل بغداد سعى عاصمة
عسكرية وإدارية له، سمّاها «شُر من رأى» - والتي حين دار بها الزمر
ونخرت سمّاها الناس «ساء من رأى» ثم حُرِّفت إلى «سامراء» - ونقل لها
جنده.

من بعد عهد المعتصم أصبح الرؤوسون الترك رؤساء على الحقيقة،
فتسلطوا على اختيار الخلفاء وتعيّنتهم وعزّهم، ملّ وقتلهم وحسبهم لو لم
الأمر، وصار الحل والربط بأيدي القادة الأتراك، بينما للخليفة اللقب الشرفي
دون السلطة الفعلية. وهذا بدأ ما يوصف بأنه «العصر العباسي الثاني»

المتوكل والمنتصر

قتيلا الحماقة

- سامراء - ٨٦١ م

رددت جنبات مجلس الخليفة أصداء ضحكة رقيقة محلجلة، لا تتأني إلا لإمرأة رباها تُعْهِر في حجره، واتشق الستار عن مصدرها الذي كان - وهو ما صاعف ضحك الجلوس - رحل أصلع ملون الوجه بالأصع، اقتحم المكان راقصًا بحلاعة وقد اصطع كرشًا صحتًا بوسادة وصعها تحت ثوبه صارخ الألوان.

غنى والحقوة تردد خلفه «قد أقلل الأصلع الطين. خليفة المسلمين!»
يعنون «علي بن أبي طالب»، والخليفة جعفر المتوكل على الله من المعتصم بالله، معروف ببغضه لعلي وآل بيته، حتى إنه أطلق فيهم بطشه واصطهده، ويبيع بكرهيته لهم حد أمره بهدم قر الحسين بكريلاء وتسويته بالأرض وزراعة ما حوله، والتشديد في منع زيارته أو ذكره. بل وهدم ما حوله من دور ومنازل.

لم يتمالك الخليفة نفسه من الضحك من مسحة المعروف بـ «عمارة المحش» وقد ارتجمل رقصة هرلية وشاركت أروافه بطه الأداء فاحش الإيحاءات

أمسك مُضحك الخليفة بكرشه الصاعبي وصار يرقص حصره لأعلى وأسفل في حركة بذية، فكاد سيده يخنق ضحكاً اعتدل عمارة ودار يكمل رقصته إلا أنه لمح «المتنصر بالله» - ابن الخليفة - يذلف إلى القاعة وقد علت وجهه المتجهم علامات الغضب، فتوقف عن الرقص وتراجع بيّطاً إلى قرب كرسي المتوكل، وهو ينظر إليه كأنها يحتمي به.

اعتدل الأب وقد زالت ضحكته وتعكرت ملامحه بضيق واضح، وهو يمد يده للابن الذي احس وقلها، فسحبها أبوه بحركة ارداء مقصودة وترددت همهمة حافتة بين الحضور انتقلت الطرقات بين الاثنين، المتوكل في آخر ثلاثياته والمتنصر في نصف عشرياته، ما يجعلهما عمرياً أقرب للأخوين من الأب للابن.

«يا أمير المؤمنين» قالها المتنصر فأستد الخليفة رأسه إلى كفه مصطفاً تقطعية سأم على حبيه. أكمل الفتى «إن هذا الذي يذكر ويضحك منه الناس هو اس عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه حرك!» رفع المتوكل حاجبيه متهمكاً وهو يقول «مه فحري!!» ثم التفت إلى عمارة المخث متسائلاً بسخرية لاذعة. «قل لي يا عمارة أأنا محور بعلي حقاً كما يقول ابننا؟» اتعل عمارة نصف انحناء وأطلق صرطة عالية وقد أكسبه استهزاء الخليفة بأنه جرأة في مواجهة هذا الأخير.

صعط المتنصر أسانه حتى سُمع صريره، عض شفته ثم قال لأبيه «إن كنت لا بد فاعلاً وتريد أن تنال من علي، فكل أنت لحملك» ثم التفت لعمارة مردفاً بصرامة شديدة «ولا تطعم منه هذا الكلب وأمثاله!»

سكتت الهمهمات وساد المكان صمت مترقب لرد فعل الخليفة إزاء

هذه البيرة. بقي المتوكل يتأمل ابنه دون أن يبس بينت شفة. ثم صفق بغثة بحرارة مبالغ فيها وقد اجتاحت نوبة ضحكك احمر لها وجه المنتصر غصبا وحرجا

أحيّرًا كبح جناح ضحكاته فالتفت إلى المعين صانعا هم بمرح وحشي. «إليكم ما تغنون به. ما دام اسلا لا يحب ما كنتم تغنون» ثم أكمل مسغما قوله وصاغظا على محارح العاظه «غار الفتى لابن عمه! رأس الفتى في حِر (فرج) أمه!»



بينما حظي المتوكل بمدح المنحارين للسلعية، بحكم رفعه عمه «خلق القرآن» التي وضعها المأمون - وهي إلزام الناس خاصة القضاة وموظفي الدولة بالقول بأن القرآن مخلوق وليس كلاما مُرثَلاً على الرسول محمد - وإطلاقه سراح أحمد بن حنبل الذي كان محبوبا على خلفية القضية سالفه الذكر، ومحاربه فرقة «المعتزلة» - التي يتحسس منها المتحفظون دينيا - وأمره القصاصة ورحال الدين بالعمل بالسنة والتقليد، حتى وضعه العص في مصاف كل من أبي بكر بن أبي قحافة وعمر بن عبد العزيز في «إحياء السنة»، ووجه بهجوم من رأوا في موقفه المنحاز للتقليد تقييدا للعقل وإغلاقا لباب الاجتهاد في الدين. (وأنا أسجل دهشتي من وصف هذا الرجل بإحياء السنة في نفس السياق الذي تُذكر فيه مجالس مسكره وعريته)

وبينما أحبته العامة لرفعه المحنة المذكورة، وقيامه في الحد من تسلط القادة، التُرك باعتقال كبيرهم إيتاح ومصادرة أمواله، أبغضته خاصة الدولة من التُرك المذكورين لمحاولته التحرر من سطوتهم، وتوليته أثناءه الثلاثة - المنتصر والمعتز والمؤيد - أعمال أقاليم الخلافة وضرب العملة، ما كان يعي

انتفاص التغلغل التركي في جسد المؤسسة الحاكمة. خاصة وقد تقدم عليهم وزيره «الفتح بن حاقان» وقرنه إليه، فصار حليفاً له ضد قادة الحند الترك «بغا» و«وصيف» و«باغر»

بل وأبغضه انه المنتصر. ولأكثر من سب
فمن أسباب الجفوة بين الابن وأبيه ما دُكر من بعض المتوكل لعلّي وأساته
وأحفاده - الطالبيين نسبة لأبي طالب - واضطهادهم وتطاوله على جدتهم
بل وبلغ به الأمر أن أعصر من سقوه من حلفاء العباسيين، واردرأهم لحهم
لعلّي واحترامهم لسيرته!

ومنها محاولات إزاحة المنتصر - وهو الابن الأكبر - عن ولاية العهد
لصالح أخيه «المعتر»، ربما بحكم تأثير أم هذا الأخير، محظية الحليفة الأثيرة
إلى قلبه، والتي سماها نائعها ومربيها الأول «قييحة» لدفع الحسد عنها من
فرط جهاها!

وأفساها كذلك تعمد المتوكل إهانة ابنه الأكبر أمام الناس، وثمة موقف
شهير له، لعله كان الزناد الذي قدح شرارة نار صدر الاس المجروح في
كرامته، فكان منه ما سياتي ذكره.

فقد كان الخليفة قد توقعك فعجز عن الخروج لصلاة الجمعة والخطبة في
الناس، فأمر المنتصر بأن ينوب عنه في ذلك، ثم رجع عن أمره وأمر المعتر
عوضاً عنه، بتأثير من «قييحة»، فاغتاز المنتصر من ذلك لكونه يدل على
نية الأب تقديم المعتر عليه في ولاية العهد.

بل وبلغت الابن أبناء الخليفة يدر مع وزيره الفتح بن خاقان
خطة للتخلص من قادة الترك، ومن المنتصر نفسه، بضربة واحدة، لما أحس
من تقارب بينهم وما يتوجسه من انقلابهم جميعاً عليه

وقد تأكد هذا الشك عند حضور المنتصر مجلس أبيه، فقد أفرط الأب في الشراب ثم بدأ في توجيه الإهانات لانه، وصار يسقيه من الشراب فوق طاقتة. وتنادى فصار ينظمه ويهدده بالقتل ثم أشار لابن حاقان أمراً «برثت من الله ومن قرابتي لرسول الله إن لم تلتطمه» فنفذ الورير أمر سيده ولطم العتي على مؤخر عنقه مرتين!

أخيراً قال المتوكل للحضور بصوت عالٍ: «اشهدوا أنني قد خلعت المستعجل!»

ساد الصمت وشحب وجه الابن والأرض تميد به، فأردف الأب «قد سميتك المنتصر وسماك الناس استطر لحقك والآن صار اسمك المستعجل!» فعامت عيب الفتى بالدموع وأجاب «والله لو أمرت بصرب عقي لكان أهون مما تفعل بي الآن!».

ثم انسحب من المجلس وهو لا يكاد يرى أمامه وجعاً وغيطاً.



سامراء - ١١ ديسمبر ٨٩١م

بعكس ما اعتاده دماء المتوكل من أن تصح مجالسه بالضحك والابسط، حيم وجوم ثقيل على المكان في تلك الليلة. لا يدكرون متى تعير مراج الخليفة، ولكنهم فوحثوا به يقوم، فيتوقف المغنون عن إطرابهم، ويسجد فيعقر رأسه تبادلوا نظرات الدهشة ثم سارعوا بإحفاثها تأدياً حين اعتدل من سجدته. عادوا لطربهم ثم فجأة عاودت المتوكل بوية كآبته فانمجر في البكاء بغير مقدمات.

اقترب منه العتج بن خاقان يتساءل عما به، إلا أن خادماً لقيحة دلف إلى المجلس مقدماً للخليفة وداة ثمياً أرسله هدية لسيدها.

تناول المتوكل الثوب وقلبه بين يديه، وقد شابت ملاعجه الخزينة نظرة إعجاب. ثم بحركة مباغتة مزقه بصميين ورفع عييه لخدم المذهول وقال «أخبرها أنه قد أعجني، ولكنني لا أراي أدرك أن ألبسه، فمرقته لأي أكره أن يلبسه أحد من بعدي» ثم ماوله إياه مردفًا «أخبرها أن تحفظ هذا عندها كفسائي!»

وكما اجتاحت الكآبة فجأة انتباهه حالة جنونية من المرح فعاد إلى طرده وكأس حره، وعاد الحضور إلى ما كانوا فيه، وقد أرادوا أن يدقوا بين الكأس والنعم عظيم دهشتهم من سلوك الخليفة في هذه الليلة العجيبة بقي المتوكل يصب من الشراب حتى ثقل رأسه وبدت عليه الشالة الشديدة وفجأة اقتحم المجلس التركي «باعر» ومعه عشرة ملثمين من الخدم مدفعين نحو الخليفة مباشرة، فأطار إدراك الحضور للمعنى الخمر من رؤوسهم وانطلقوا فرارًا. بينما وثب ابن خاقان إلى سيده يحميه بجسده وهو يصرخ بياعر «ويلكم! مولاكم!؟ تقتلون مولاكم!؟» ففرس أحدهم السيف في بطنه حتى برر من مؤخرته. رعم فداحة إصابته حاول الاستماتة في دفع المعتدين عن مولاه وصديقه، لكن قواه خائته فسقط أرضًا وروحه تسلس من جسده، بينما هوى باعر بسيفه على حصر المتوكل يمينًا ثم يسارًا ليقر بطنه بالجاهين. تراجع القتلة عن مسرح عملهم السريع. مسح قائدهم الدم عن سيفه وهو يشير لهم بلف الختتين في البساط.

غادر القاعة وقد وحده في انتظاره أعوانه ممن احتلوا دار الخلافة، مستغلين انشغال من به بخدمة مجلس الخليفة المقتول. انجبه إلى باب القصر وبقي واقفًا حتى تعالى صوت خيل تقترب. انفصل منها فارس وترجل عن جواده فتقدم منه باغر وانحنى مقبلًا يده قائلاً: «سيدي المنتصر. عظم الله أحر كم في والدكم الخليفة، فقد ناداه ربه فلبى بداءه» ثم اعتدل مردفًا «قد قتله الفتح بن خاقان، فقتلنا الفتح بجرمه!»

نفي المنتصر صامتاً مثبّطاً بطرأته في عيسى بأعر. وبينهما ترددت نظرة تفاهم
تقول الكثير.



رفعه الأتراك على العرش بعد أن تم اتفاقهم معه كان التسلسل المطلق
للأمور يقضي بأن يخلف أباه، فالأتراك يخشون من انتقام المعتز أو المؤيد لأبيهما
لو أن أحدهما بويغ بالخلافة.

هذا فقد أصبح المنتصر بالله محمد - وفي رواية أخرى الربر - بن المتوكل
على الله، أميراً للمؤمنين

حاول إقناع نفسه أن أباه قد استحق منه مشاركة الحشد تدبيرهم هلاكه
ألم يتناول على علي بن أبي طالب وآل بيته؟ واجترأ على قبر ابن بنت النبي..
وبمثل الخلافة بين الكأس والمحنيين؟

لماذا إذن يجابهه لنوم الهانئ وتداهم الكوابيس التي يرى فيها أباه يتوعد
من الله سوء المنقلب؟!

ألم يصلح ما أسد الأب العاق والخليفة الطالم، فرغ البطش عن آل
بيت علي، وأعاد الاحترام لذكرى الحسين، وألف قلوب الهاشميين ورد
مظالمهم؟

ألا يعتبر ما كان منه بحق أبيه بمثابة «تغيير المُنكر باليد»؟!
فلماذا يرى الاتهام في نظرات الجميع وإن أحفوها بالاحتفاء تأديباً؟ القضية،
المقهاء، الخدم، حتى انعكاس وجهه على صفحة المرأة يصبق الإدانة منذراً
بالويل.



حاول الفرار من عتمة أفكاره بتأمل رسوم دقيقة التفاصيل على بساط
يغطي مجلسه، رسم يصور دائرة تحيط بمارس يرندي تاجاً ملكياً، وكتابات
فارسية تحيط بتلك الدائرة.

تشاغل بمحاولة عبثية لقراءة المكتوب ثم رفع رأسه لبعض من حضره
سائلاً «أنت تعرف لغة العرس، أليس كذلك؟» هز المسؤول رأسه بالإيجاب،
فأشار له المنتصر بالاقتراب وتَمَحَّص الباط.

مال الرجل مدققاً في الكتابة ثم اعتدل بفتة وهو يداري توتراً اعتراه
اصطنع انتسامة وقال متظاهراً بالخدوء «هذا لا معنى له، البعض أراد تزيين
البساط فوضع حروفاً لا تعني شيئاً مهموماً» عقد الخليفة الشاب حاجبيه
واستوقف محدثه قائلاً بصرامة شديدة «فلتصدقني القوم لست عافلاً عن
اصطرابك إذ قرأت ما به!»

تردد لثوانٍ ثم عاد ينحني على البساط مترجماً بصوت مسموع «أنا
شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أمتع بالملك إلا ستة أشهر»
مادت الأرض بالمنتصر واجتاحت ظهره برودة مباغتة. هم المترجم
بالانسحاب من أمامه فاستوقفه مستجمعة رباطة حاشيه وسأله مصططاً
لامبالاة بطعنة المغرور الدفين: «وهل تصدق ذلك؟ أعني هي ليست أول
مرة أسمع فيها القول إن من قتل أباه لأجل الملك لم يُمتع به إلا ستة أشهر»
أرتج على الرجل وهو يتمتم «هكذا قال الأقدمون والله أعلم» بقي
صامتاً وقد بث نظراته الحادة تفتش عيناً محدثه بحثاً عن مريد يعسر ما قيل
فلم يجد أشار له بالانصراف فانطلق هدامسرعاً وقد علاه الحرج.
الأحلام، النظرات، حديث الأولين، كتبة العُرس حول نهاويل البساط
الشمين

العلامات تحاصره، تجثم على صدره، تتزعج من روحه مرققة تلو الأخرى
حتى تأتي على نفسه، حتى بات يحسد أباه على فتنته السريعة.

وكان هموم نفسه لا تكفي، فقد دأبه الترك هم جديد
فوغم إقصائهم المعتز والمؤيد ابني الخليفة المقتول عن الحكم، بقي لدى
بعا ووصيف هاجس من أن يخلف أحدهما المنتصر بعد موته فيقتص من
قتلة أبيه المتوكل.

عقد العزم إذن على حل الخليفة على أن يخلعهما من ولاية العهد. فاستدعاهم
إلى دار الخلافة حيث حُسيًا لحين إقرارهما بالتنازل عنها. حاول المؤيد أن يعبد
ولكن المعتز أثنى أخاه عن المقاومة، فأقرا بالمطلوب وتعمد المنتصر إخراج
من حضر وامن الأتراك أن قال لأخويه بشكل صريح إنه كان يجب أن ينجفاه
، لأنه يحشى عليهما من الترك أن يقتلوهما وهي إشارة واضحة لحرارة العاصر
التركية على الاعتداء على الخلفاء. وابتلع الترك الإهانة بصمت إلى حين.

انتهت هذه الروبعة إذن ولكن الخليفة ضاق بتسلط الترك عليه في كل
شيء كان المنتصر يحسب أن أباه قد قلّم أظفارهم بما يكفي، وأهم ما قتلوه إلا
طاعة له، لكنه اكتشف - متأخرًا - أنه هو الذي كان أداة وذريعة لهم لتخلص
من المتوكل، الذي كان شوكة قوية تحول دون ابتلاعهم صلاحيات الحكم.
سرعان ما انقلب التعاهم السابق إلى توجس وتربص متبادلين، خاصة
وقد جاهر المنتصر باحتقاره الأتراك الذين بلغهم أنه يصفهم في محالسه
بـ «قتلة الخلفاء».

منح الخليفة إذن حلفاء الأُمس سببًا لأن يصمروا له الشر. وأن يعبدوا
نحس مقابص سيوفهم الراقدة في أعمادها.
ولكن لا هذه المرة لن تصلح السيوف لأداء المهمة، فقتل الخليفة السابق
بشكل صريح قد أزعج العامة وأثارهم.
على الأمر إذن أن يتم «بتظافة»



تختلف الروايات حول شكل النهاية.

فالعص يقولون إن السم كان محمقاً بشجرة كمثرى، والمتنصر كان معروف بحبها.

غيرهم قال: «بل صب له الطبيب دهناً في أذنه بحجة مداواة علة برأسه، فتورم رأسه ومرض ومات»

وآخرون ذكروا ثلاثة آلاف دينار منحها الترك للطبيب ابن طيمور، فوضع سماً في مبيض (مشرط) واستغل مرض الخليفة فنصحه بالحجامة، وشق جلده هذا الموضع المسموم فأصيب المتنصر بالحمى ومات وكان آخر ما قال في احتضاره «ضاعت مي الدي والأجرة. عاجلت أبي فعرجلت» في كل الأحوال، قد أهد الأمر شكل «الوفاة الطبيعية»، وهو ما يخدم بالتأكيد عرض المعسكر التركي؛ ألا تثار الأقاويل حول موت الخليفة الشاب عشريني العمر، بعد ستة أشهر فحسب من مبايعته!



قبل أن يقتل الأتراك الخليفة المتوكل بمساعدة المتنصر، وقيل أن يقتلوا المتنصر بعد ذلك، قتل كل منهما نفسه بحماقته.

فأما المتوكل، فقد فتح على نفسه جبهات بمعاداته ابنه، والطلبيين، وتصعيده مع الشيعة، في وقت كانت فيه ثمة معركة قائمة بالفعل، ألا وهي معركته مع القادة الترك لتحجيم نفوذهم ورد الهبة لمصب الخلافة ففقد دعم من كان يمكن أن يستقوي بهم سواء من الطالبيين بحكم ما هو متوقع من انحيازهم لعصرهم وبني عمومتهم - أو على الأقل كان يمكن أن يبرد جبهة الخصومة معهم - وفقد أيضاً إخلاص ابنه الأكبر وعونه له وأما المتنصر، فإنه بمبالاة الترك على أبيه إنما طعن نفسه بخنجره، وهو - فضلاً عن الجانب الأخلاقي من مسألة قتله أبيه - قد ارتكب حماقة إعانة

أما هم الخصوم الطبيعيين - داخليًا - للمعكر العربي الذي يضمه، فقد نظر للمشهد السياسي بسطحية فلخصه في صراع أبيه المتوكل مع القائلين بعبا ووصيف، بينما كان الصراع في الحقيقة بين العرب ممثلين في الأسرة عباسية والجد الأتراك ممثلين في القائلين سالمي الذكر.

بل ولا أبالغ لو حملت المنتصر جزءًا كبيرًا من المسؤولية عن كل جريمة قتل وقعت بعده بحق حليفة عباسي، وكانت بيد العنصر التركي، فقد فتح بموافقة على قتلهم أبيه نائبًا لم يُعلّق من احتراء هؤلاء القوم على قتل أو حسن أو تعذيب الخليفة، كما سيرد لاحقًا وأخيرًا فقد حسر فرصة لكسب أرض في مواجهة أبيه، فقد كان يمكنه أن يبلغه أمر تلك المؤامرة، فإما أن يكرس الحصة الموجهة ضده وإما - على الأقل - يُظهر على الملأ صدق إخلاصه للخليفة، ما يجعل هذا الأخير محرجًا من إبدائه والإساءة له.

الخلاصة أن قصة المتوكل والمنتصر تمثل مأساة مثيرة لمحتق، لما فيها من تصدّر الحماقة دور البطولة، بأداء منفرد «فقط» من نوعه!



المستعين. المعتز. المهدي. المقتدر. المسترشد. الراشد. المستنجد.. ييادق القادة والحكام.

ذُبِحَ «المستعين بالله» وعُذِبَ «المعتز بالله» حتى الموت. أما «المهدي بالله» فقد قُتِلَ بعَصْر حصيته بينما قَطَّعَت السيوف جسد «المقتدر بالله». واستُجِرَ قتلة فرقة «الحشاشين» لتمزيق «المسترشد بالله» بطعنات الخناجر. ثم لقي ابنه «الراشد بالله» نفس المصير. ولكن «المستنجد بالله» لقي حتمه بشكل مختلف، فقد أُلْقِيَ في الحمام الساحن وأغْلِقَ عليه حتى أنهكته الحرارة وأجهز عليه البخار!

صار حلفاء بني العباس مجرد ييادق على رقعة شطرنج القادة الترك، التي ورثها من بعدهم الحكام الأصفهانيون، الذين احتفظوا بولاء اسمي للخلافة بينما قلّدوا أنفسهم ألقاب الملوك والسلطنة

أما دار الخلافة فقد أصبحت منذ مقتل «المتوكل» ومن بعده «المتنصر» مجرد سجن كبير. ففص مذهب الخليفة فيه مجرد طائر مطلوب منه أن يغرد كما يرى مالكة، إما أن يطيع وإما أن يُدْبَح ويؤتى بغيره صار الداخل إليها مفقودًا حتى ثبت العكس، والخارج منها إلى قبره إثر ميتة هادئة في فراشه - للعجب - مولودًا!

في ظل هذا الوصف المبهين الخائق، وقعت مسيح حكايات مأساوية أطاها
الخلفاء الستة سألوا الذكر.



- المستعين بالله (٨٦٢م - ٨٦٦م). الخليفة الثالث بالوكالة

لم تكن له من مؤهلات للخلافة عدد ضائع الخلفاء، إلا أنهم قد حشوا
أن يجعلوا في المصب أحدًا من أساء المتوكل أو المنتصر فيحاول المطش هم
«نظامًا لفتيلين فاحتمعوا وقال قائلهم. «ما لها إلا أحد من أستاذنا المعتصم»
فأصبح أحمد المذكور هو أمير المؤمنين المستعين بالله بن المعتصم بالله بن
الرشد ولكن - بطبيعة الحال - لم يكن له من الأمر شيء، بل كانت صلاحيات
الخلافة كرة يتلاقها كل من «بما» (وهو بما آخر غير بن السالف ذكره،
فلسان معروف بـ «بما الكبير» وحلقه المشابه بالاسم معروف باسم «بما
الصغير») و«وصيف» حتى قيل:

«خليفة في قمص بين وصيف وبغا»

يقول ما قالوا له كما تقول البيغا»

واقسم كبار الترك المناصب السيادية، فعين ابن الحصب كائنًا للخليفة،
وأناش وزيرًا، وشاهدت مسؤولاً عن دار الخلافة والحرس الخديعتي واحتفظ
بما ووصيف مكانهما كمستشارين مقررين للخليفة، بشكل رسمي، وحاجرين
عليه، بشكل فعلي!

حاول الخليفة في بداية عهده أن يحرر نفسه من ربكة (قيد) الترك مستعلاً
الصدامات العيفة التي وقعت بينهم من جانب، وعامة بعداد وسامراء من
حاسب آخر، نتيجة رفض هؤلاء الأتخاري طغيان العنصر التركي. وحسب

أن انقسام الأتراك على أنفسهم إثر تفجر الأوضاع بحدمه، وقام بالتخلص من ابن الخصيب بخلعه وبنيه إلى جزيرة كريت، ثم قتل أنامش، وأعاد بغا ووصيف - اللذان أظهرتا الانحياز له - على قتل ماعر.

ولأن من فوائد «الخليفة - الدمية» أن يتحمل هو مسؤولية القرارات الخرقاء، فقد حمل القائدان المستعين مسؤولية قرار قتل «باعر التركي» الذي كان قد قاد عملية اغتيال المتوكل.

واتضح أن المستعين لم يكن يتكلمه بقيادة الترك المذكورين بحدم إلا حرب بغا ووصيف، اللذين كانا يريدان التخلص من أي منافس لهما في السيادة على الجند الترك.

ومؤراً تبين هما حماقة هذه الخطوة، قتل ماعر، فقد ثار أنزع هذا الأخير وأصبحت حياة الثلاثة - الخليفة وبغا ووصيف - في خطر طوال بقائهم في سامراء، التي كانت قد أصبحت عاصمة الخلافة منذ زمن المعتصم، فعروا إلى بغداد لتدبير الأمر ضد هؤلاء، حيث استقبلهم حاكمها محمد بن عبد الله بن طاهر، وانضم لحزبهم ضد النائرين عليهم.

كان رد المتمردين من الترك هو إحصار المعتز من المتوكل - وكان في التاسعة عشرة من عمره - ومبايعته بالخلافة، ثم بدأ لهم أنهم قد تسرعوا في انقراض، فتوجه بعضهم إلى بغداد وأظهروا الاعتذار في حضرة الخليفة، وطالبوا منه الرجوع معهم إلى سامراء وإظهار الرضا عنهم للناس، فلما ماظلمهم وأمين بعضهم من والي بغداد، رجعوا إلى قواعدهم وقد صارت الحرب هي الفاصل بين الطرفين.

وتقدمت قوات ترك سامراء ومعها مقاتلون من المغاربة، تحت شعار خليفة سامراء المعتز، تحاصر بغداد وخليفتها المستعين.

ودارت الحرب سجالاً. ثم بدا أن الظفر سيكون لجيش المعتز، فقرر والي بغداد ابن طاهر أن يتخلى عن المستعين، وجرت المراسلات مع سامراء للاتفاق على الصلح وحلّ المستعين بالله ومبايعة المعتز بالله وتم ذلك بالفعل. ليتوجه المستعين إلى صفاء في البصرة، ثم يُقَلَّ إلى مدينة واسط حيث بقي محدد الإقامة لمدة تسعة أشهر وأخيراً أمر المعتز بقتل سلعه المخلوع فراسل بذلك صاعطاً من الترك هو أحمد بن طولون - الذي سيصبح بعد ذلك سنوات والياً على مصر - فرفض ابن طولون تنفيذ الأمر قائلاً: «أنا لا أقتل أولاد الخلفاء!» فندب أحمد حبابه للقيام بالمهمة، فتوجه سعيد الحاحب إلى المستعين، وأسى بخسجره ٣١ عاماً هي عمره وقتها

أما معا ووصيف، فقد عاد الوفاق إلى علاقتهما برفقهما من الترك، وعقد هما الخليفة بالبقاء على أعمالهما. لنتهي القصة بدفع المستعين وحده فاتورة تلك اللعبة التركية، التي كان دوره فيها هو «الثائر بالوكالة» عن مراكز القوى المتصارعة على تصدر موقع السيطرة!



- المعتز بالله (٨٦٦م - ٨٦٩م). الخليفة الذي رفضت أمه شراء حياته!

لأن العور في شطرنج الحكم سجال، فقد كان من الطبيعي أن تحدر شمس معا ووصيف للمغيب، لتظهر مكان اسميهما أسماء جديدة جرى ذلك بشكل درامي سريع - غير مستعرب للمغمسين في حياة التآمر والتآمر المضاد - فقد لقي وصيف حتفه في حادث شعب من بعض الحشد الغاصيين من تأخر نفقاتهم. واعتيل بُناً في العام التالي، بتدبير مشترك

بين الخليفة الشاب وأحد القادة الترك المدعو بابكيال، فقد كان الأول يضيق بتسلطه، والآخر يضيق بتصلره المشهد.

ظهرت وجوه جديدة، فوصيف خلفه ابنه صالح، وبغا الكبير كان قد حلفه ابنه موسى، وهذا سيما الطويل، وذلك بابكيال الذي أقطعه الخليفة مصر، فأرسل إليه أحمد بن طولون واليًا بالوكالة عنه، ليبقى هو في دار الحكم حيث تدار المصائر.

ويبدو أن المعتر كان قد تشجع على فكرة القتل، فقتل أخاه المؤيد بن المتوكل. وقصة هذا الأمر أن بلغت الخليفة شائعات أن الأتراك يريدون حلفه و ستحلاف المؤيد، فأرسل إليه وصيق عليه وخلعه من ولاية العهد، وحسه وعذبه، ثم شمع فيه القادة وأكدوا كذب الشائعة، فقي في حسه أيامًا ثم أحضر المعتر القصاة وأراهم جثة أخيه وليس بها أثر لسلاح أو الصرب، ليشهدوا أنه قد مات ميتة طبيعية. ويقال إنه قد لُف حوله ببط حتى اختنق أو وُضِعَ في الثلج حتى تمهد، ليدو أن ميتته لم تكن بفعل فاعل!

سرعد ما لقي المعتر مصيرًا لا يقل شاعة!

فقد كانت الحرب الساقطة مع سلعه المستعين قد أفرغت الخزائن، فنأحرت نفقات الجند والقادة، وبدأ هؤلاء الأحرار يتحدثون عن حلف الخليفة الذي لا يستطيع أن يدر لهم المال (وكأنه يملك من الأمر شيئًا!) ويبدو أنهم كانوا يشكون أنه يكتنر مالا ويدعي غير ذلك

فتوجه هؤلاء إلى دار الخلافة وقد قرروا أولاً مساومته، فالحليفة كان قد صاق بتسلط صالح بن وصيف، ورعب في التخلص منه، فعرضوا عليه أن يعطيهم نفقاتهم مقابل أن يقتلوا ابن وصيف - وكانت خدعة منهم كما

سيصبح لاحقاً - فعاوضهم المعتر في المبلغ المطلوب، وأخيراً اتفق الطرفان على أن يقدم الخليفة خمسين ألفاً فتوجه لأمه «قبيحة» - المحظية السابقة للمنوكل - وكانت معروفة بالثراء الشديد، وطلب منها المال ليرضي اخيه والقادة ويتقذ نفسه من أذاهم. فأنكرت أن يكون عندها مثل هذا المبلغ. فما أدرك الجند ألا سبيل معه إلا العنف، فاتفق اخوه الترك والعراعيتيون والمعارنة على حلقه واستخلاص المال منه. فذهب كل من صالح بن وصيف ومحمد بن يعا وبانكيال بيت الخليفة، وأخرجوه سحلاً وهم يضربونه بعنف ويمرقون ثيابه، ثم أوقفوه في الشمس في ساحة الدار وهم يلطمونه ويصيحجون به «احلج نفسك!»، وبعدها أحصروا القصة وأشهدوهم على حده، حيث كان قد وفوا أخيراً تحت وطأة التعذيب، كما أشهدوهم على إعطاء الأمان له ولأمه وأبنائه.

ولكن هذا الأمان كان لا قيمة له، فقد حُبس المعتر ومُنع الماء عدة أيام، ثم قُبِدَ له ماء مثلج شر به فسقط ميتاً!

أما أمه، فقد حاولت الفرار شروتها - متجاهلة مصير ابنها - فقص عليها رجال صالح بن وصيف، الذي استحوها حتى اعترفت على مكان ثروتها، فنفاها إلى مكة

فكم كانت ثروة قبيحة التي بحلت على ابنها بحمسين ألف ديناراً! إن ما أعطته لاس وصيف كان مليون وثلاثمائة ألف دينار، ومجوهرات قيمتها مليونان من الدنانير.

ويروى أن الرجل حين رأى ذلك قال «متعاص: «قبحها الله! عرضت ابنها لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذا!» وهكذا تنتهي مأساة المعتر بالله، لتبدأ تاليتها مع حلقه المهتدي بالله



- المهتدي بالله (٨٦٩م - ٨٧٠م) قتل خطأ حساباته

صادف خروج بعض حسنة من عنده وقت السحور - وكان رمضان -
فاستقاه المهتدي ودعا بالطعام، فأناه بعض الخدم يطبق فيه آنية خل وملح
وزيت ورعيه خبر نظر الرجل للطبق دهشة فأله الخليفة: «أأنت
عازماً على الصوم؟»

أجابه: «كيف لا وهو رمضان؟»

«فكل واستوف، فليس هاها طعام غير ما ترى»

مدت الدهشة على وجه الرجل مردد لحظة ثم سأل بهرح «ولم يا أمير
المؤمنين؟ ألم يسع الله نعمته عليك؟»

انسم المهتدي بحبيته «إن الأمر لعل ما وصفت، ولكي فكرت في أنه
كان في سي أمية عمر من عبد العرير، وكان من الثقل والتشعب على ما
بلعك، ففرت على سي هاشم ألا يكون فيهم مثله، فأخذت نفسي بما رأيت»

جدير بالذكر أن مما يروى عن الخليفة محمد المهتدي بالله بن الواثق بن
المعتصم، أنه كان صديقاً من مدينته بالخلافة بعد خلعه المعتز، وحتى قتله
بعد ذلك بنحو سنة تقريباً

منذ أجدت له البيعة أظهر همه عالية في إزالة الظلم ومنع الفساد فسي
قمة وجعل لها أربعة أبواب لاستقبال المظالم، وكان يحرص على مراقبة
الحسابات والسجلات بنفسه، وكذلك على متابعة الدواوين وما يجري بها.
ويبدو أنه كان على شيء من التشدد السلوكي، فقد منع العاء والدهن تماماً
ما جعل العامة يستقلوه كما كان من أمر الخاصة

ويبدو كذلك أنه قد تمتع بشعبية قوية فاستطاع كبح جماح أصحاب

السلطان عن مظالمهم، وكأد بالفعل يخرج بمنصب الخلافة عن السيطرة التركية، لولا أن جانست حساباته الصواب في تدبيره ذلك!

فقد تحرك موسى بن بغا من مدينة «الري» ودخل سامراء معلناً أنه جاء لقتل صالح بن وصيف اقتصاصاً منه لدم المعتز بالله. وكان ابن وصيف مكروهاً من العامة لطغيانه، فأخذوا يتظاهرون في تأييد لابن بغا وهم يهتفون «يا فرعون قد جاءك موسى»!

وعندما بلغ موسى دار الخلافة طلب الإذن بالدخول على الخليفة الذي رفض ذلك. لرعته لزوم الجهاد في حرب موسى وصالح. فاقترح موسى ورجاله مجلسه وسهوا قصره، وطلبوا منه أن يحلف ألا يأخذ صف ابن وصيف، فحلف لهم بذلك، فيها بايعوه بالخلافة، ويبدو من ذلك أنهم لم يكونوا قد بايعوا.

وسيطر موسى على المدينة واث رجاله يطاردون صالح ويفتشون عنه، وكان قد اختفى وحاول المهندي أن يبحث الأطراف على الصلح فأثار شك موسى الذي اتهمه بإخفاء طريدهم، وهاجموا الخليفة فزاجأهم بأن خرج عليهم متقلداً سيفه وصاح بهم «قد بلغني شأنكم! ولست كمس تقدمني مثل المستعين والمعتز! والله ما حرحت لكم إلا وأنا متحنط (أي مرتدياً الكفن تحت الثياب ومدهون الجسد بمواد تطيب جثمان الميت)، وقد أوصيت. وهذا سيفي والله لأضرب به ما استمسكت قائمته بيدي! أما دير؟! أما حياة؟! أما رعة؟! كيف يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟! ثم أشاح لهم بيده مردفاً باردراء. «ما أعلم علم صالح! ليس هندي»!

أرتج على موسى والجند وهم يرون.. للمرة الأولى خليفة عباسياً يقف ويرفع سيفه ويلزم الجسد الترك حدودهم! فانفصوا وراحوا يستكملون

لبحث عن صالح، حتى وجدوه في بعض البيوت فقتلوه وطاقوا برأسه في سامراء.

ثم رحل موسى بن بغا عن المدينة ومعه بابكيال في مهمة حربية تتعلق بتأمين الحدود. وهنا ارتكب المهتدي خطأ القاتل

فيبدو أن الخليفة كان قد اعتقد أن وحدة الترك قد انقسمت بالشقاق الأخير، فأراد توجيه صربة قوية لهم فراسل بابكيال وأمره أن يقتل من يذ ومعه أميراً تركياً آخر اسمه مفلح، أو أن يعتقلها، مقابل أن يصحح هو أميراً على الأتراك.

ولكن بابكيال لم يوافق الخليفة في تدبيره، فأطلع رفاقه على رسالة المهتدي قائلاً: «ي لست أفرح بهذا! وإنما يُعَمَلُ هذا علينا كذا!» فاتفقوا على قتل المهتدي.

وترجعوا له بقواتهم لتدور معركة ضارية، موسى وبابكيال ورفاقهما من جانب، والخليفة ومعه المقاتلون المغاربة والجنود المجلوبون من فرعاء (بأوربكستان حالياً) وأشروسة (بتركستان حالياً)

وحاول بابكيال أن يخدع المهتدي فقدم على سامراء وقد دعى أنه على طاعته، وأنه قد نفذ أمره، ففطن الخليفة لخدعته وحسبه، ثم قتله وألقى رأسه خارج الأسوار لقوات موسى بن بغا فلم يعد هناك يد من الاشباك. وقد كان.

وكانت بدعة المؤرخين القدامى «مقتلة عظيمة» تراوحت تقديرات المؤرخين لقتلى الترك فيها بين الألف والأربعة آلاف. وصار الناس - رغم تير مهم ببعض إجراءاته المتشددة - يدعون بالنصر لمن أراد أن يعيد لهم سيرة الخلفاء الأوائل العظام، ويلقبون في المساجد رقاعاً - فيها يشبه المنشورات في العصر

الحديث - مكتوب فيها «يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخيفتكم العدل الرضي، المصاهي لعمر من عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه»

ولكن يبدو أن المحاربين الأتراك في جيش الخليفة قد أعصمهم قتل قائد من حسهم - ولو كان من حانب الخصوم - على يد عربي، فلم يشتوا في المعركة، وانحاروا لجيش أمن بقاء، وكان الترك في جيش المهدي يمثلون كل الميمنة والميسرة.

ثم وقعت الكارثة التالية، وانسحب باقي مقاتليه بعد فشلهم في انتصدي للصعط التركي على ما تبقى من جيشهم، وبقي الخليفة وحده حاملاً سيفه يصبح بالباس «يا معشر المسلمين! أنا أمير المؤمنين! حاربوا عن خليفتم!»

لم يحبه أحد، عدل محاولة أخيرة يائسة بأن توحه نفسه للسحر وأطلق المحوسين فيه وهو يحسهم يحاربون معه، ففروا ولم يفعلوا!

وسقط المهدي أسيراً في يد أعدائه الذين أمروه أن يخلع نفسه، فرفض وأعلن أنه يفضل أن يقتلوه على أن يسلمهم منصفه. فأظهروا ورقة كان قد كتب فيها يوماً أنه لو غدر بهم أو قتلهم أو بطش بهم فليهم خلعه وتعيير من يرويه مناسباً مكانه، فأعلنوا خلعه بموجبها.

وفي محبسه، دخل عليه بعض الجند منهم، وأرقدوه أرضاً ثم داسوا حصيته حتى مات وأخرجوا حثاه ليشهدوا الشهود أنه مات في محبسه دون إصابات.

طبعاً كان يمكن لأقل الباس ذكاء أن يدرك أن ميتة المهدي لم تكن

طبيعية ولكن الجميع كانوا يدركون قواعد «اللعبة»، وتم تحرير تدث
«المصادفة» سلاسة شديدة. وعادت العجلة تدور.

بويغ لمعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة، وتوفي سلام في العام
٨٩٢م، ثم أعقبه أخوه المعتضد حتى العام ٩٠٢م، وجاء من بعد المعتضد
إيه المكتفي الذي توفي سنة ٩٠٨م ليحلله أخوه جعفر لمقتدر بالله.



-المقتدر (٩٠٨-٩٣٢م). عهد الكوارث.

ربما لم يشهد عهد خليفة عامي هذا الكم من الكوارث، لو استب
طبعًا عهود من عصر مهم عرو المعول للمشرق الإسلامي

بويغ المقتدر بالخلافة وهو في الثالثة عشرة من عمره، وبدوان نورير كان
قد استصغره فأراد حده ومبايعه ابن المعتز بالله، ولكن الأموال أرسلت
هذا الورير، فرضي وسكت عن الاعتراض!

وكأنها كان هذا نورير يسير إلى حتمه، فبعد أن تراجع عن موقفه وانحاز
للمخلية الطفل، در القادة ورجال الدولة حلع المقتدر وتعيين عبد الله بن
المعتر، فاقنحموا قصر الخلافة وقتلوا بعض من فيه ومنهم الورير وبايعوا
خليفةهم الجديد الذي أرسل للمقتدر يأمره بالرحيل عن در الخلافة، ولكن
هذا الأخير أصر على التصدي لتلك المحاولة، وبالمعل استطاع أن يهرم
المتأمرين ضده، وأن يأسرهم ويقتلهم ويحس ابن المعتز الذي ظهر بعدها ميتًا.
واستوزر المخلية علي بن الفرات، وفوصه بالحكم عوضًا عنه، واشعل
هو باللهو والإعاق سعه شديد، ولم يتغير الأمر بحلع ابن الفرات وتعيين
علي بن عيسى مكانه، رغم شدة انصباط هذا الأخير

وابتدل المقتدر منصبه حتى إن الحل والربط قد صار لحريم القصر،

إلى حد أن أمه قد أمرت إحدى نساء الخدمة - واسمها «ثمل» - أن تجلس
للقضاء ونظر المطالم، وصارت الأوامر تخرج وعليها توقيعها!
إضافة لذلك فقد انتهالت الكوارث على الدولة.

فقد سيطر الفاطميون على المغرب العربي، وأسقطوا الدعاء للخليفة
العباسي به، وبدأت غاراتهم تصل إلى مصر وتتوغل فيها وصولاً للإسكندرية
والقيوم، بل وحتى الصعيد لم يسلم منها!

ووقع غلاء شديد بعدد بلغ حد غرق الشوارع في الشعب والسب
والنهب، وفتحت السجون عنوة.

ودخل الروم مدينتي ملطية وسميساط بالأناصول، واستولوا على ما
سما وجعلوا مسجد سميساط كنيسة.

وأعادت قبائل الديلم على المناطق الحبلية عارس، فقتلت من أهلها
وروعتهم

وشهدت بغداد فتنه ثانية، تمثلت في تحول نقاش بين الخنابلة وبعض
مناظرهم إلى معركة صارية سقط فيها الضحايا!

ثم وقعت كارثة لم تشهدها الديار الإسلامية من قبل، وهي هجوم
القرامطة على الحرم المكي وقيامهم بمذبحة مروعة فيه، ثم خلعهم الحجر
الأسود وحمله معهم! وهاجم بعضهم الكوفة في العام التالي وهددوا بغداد

كل هذا والخليفة عارق في لهوه وبشرته الدنانير ها وهاك. لم يعكر
صفوه سوى محاولة القائد التركي مؤسس الخادم خلعه وتعيين أخيه
«القاهر» لاعتقاد الأول أن المقتدر ينوي عزله من منصبه. ثم اضطر مؤسس
لرد الخليفة لمنصبه، بسبب شغب الجند طلباً للنفقة.

وساد هدوء نسبي، حتى أدى التهاء المقتدر عما يجري في دهايز الحكم إلى
توريطة من قبل بعض المتنافسين على السلطة، في مؤامرة ضد مؤسس الخادم

لخلعه ومصادرة أملاكه، وبلغ تورط الخليفة حد حروجه عن رأس جيش لمحاربة جند مؤنس، ومصاداته أن من أتى برأس قتيل فله خمسة دنانير، ومن أتى بأسير فله عشرة.

وانهزم جيش المقتدر بالله، وحاول الفرار، لكنه كان ثقیل الجسم، فوقع في يد بعض المقاتلين المعاربة الذين عشوا في جسده بالسيف وهم يصيحون به «يا خليفة إبليس»، حتى قتلوه، ثم مثلوا بجثته وحروا رأسه وحموه إلى مؤنس الذي أظهر الغضب لما فعلوا، مؤكداً أنه لم يكن يريد أن يقتل أمير المؤمنين، وأمرًا القتل أن يدعوا أنهم إنما قتلوه خطأ ولم يعرفوه. بهذا الشكل العشي، انتهت الحياة العبية الخليفة العهد صاحب الرصيد الأكبر من المصائب والبلايا!



- المسترشد بالله (١١١٨م - ١١٣٥م) - الراشد بالله (١١٣٥م - ١١٣٦م). ضحيتا فرقة الحشاشين:

أكثر من قرن من الزمان، تعبرت فيها أشياء كثيرة. ظهرت الدول داخل الدولة، فعد أن كانت دولة بني العباس موحدة، صارت ممزقة إلى دول عدة لا يربطها بالخلافة سوى الدعاء للخليفة في الخطبة، ورب كتابة اسمه على العملة، أما فيما عدا ذلك فالخليفة نفسه لا يملك ما وراء بابه، إن ملك ما خلفه أصلاً.

الطولونيون ثم الإخشيدون في مصر، السلاجقة الأتراك في فارس والعراق والشام، الحمدانيون العرب في حلب وجنوب الأماصول، الدوستكيون الأكراد في ديار بكر وميافارقين (جنوب تركيا حالياً). هذا غير الدول التي قامت داخل دار الخلافة نفسه - والتي كانت قد انتقلت إلى بغداد - من خلال

تعيين بعض القادة أنفسهم حكامًا مفوضين عن الخليفة، وإعالمهم على أنفسهم بألقاب مثل «أمير الأمراء» أو «الملك» وتأسيسهم سلالات حاكمة إضافة لذلك فقد ابتُني المشرق العربي الإسلامي بعرو الفرجة له وتأسيسهم ثلاث إمارات فرنجية هي «طرابلس» في لبنان، «أنطاكية» و«الرها» في الأناضول، ومملكة «بيت المقدس» في القدس بفلسطين، في ما يُعرف باسم «الحملات الصليبية»

وظهرت في إيران والشام فرقة «الحشاشين» التي احترقت اعتبارًا معارضيها، وكل من يرى قادمها أنه يقف في وجه ظمو حاتها

تغير العالم كثيرًا في هذه العقود

ما لم يتغير هو وضع الخلفاء كمجرد دُعي أو يادق أو أوراق لعب، يستخدمها هذا المتسلط بالسلاح والرجال أو ذاك، لما يخدم صرب حصومه أو توطيد سلطانه.

فقط أصيف أن أصبح من «الخيارات القائمة» لقتل هذا الخليفة أو ذاك، أن يجد نفسه عالقًا في صراع بين ملكين أو أكثر، فيضطر لاتخاذ تدبير يكون فيه حتمه، وهو ما كان مع كل من المسترشد بالله وانه الراشد بالله.

ففي الوقت الذي يبيع فيه المسترشد أميرًا للمؤمنين، كان الأتراك السلاجقة قد فرضوا سطوتهم على الخلافة العباسية، إلى حد قيامهم بتعيين موظف يُدعى «الشحنة» ببغداد، والشحنة هو بمثابة قائد إقليمية، وفرصهم ذكر أسماء سلاطينهم بعد اسم الخليفة في دعاء خطبة الجمعة.

ورغم انقسام البيت السلجوقي - ابدك - إلى دولتين، واحدة في العراق والأخرى في فارس وخراسان، فإن الخلافة في بغداد لم تُرخم من وطأة هؤلاء القوم.

فالمسترشد كان قد وجد نفسه في منتصف حرب بين كلا من داوود ووريث عرش سلاجقة العراق - وعمه مسعود، ثم اصطالحا، وكان الخليفة وقتها يعاني توغل قوات السلاجقة في بلاده، وما يترتب على ذلك من غلاء الأسعار وتدمير العامة. فقرر وضع حد لهذا وجمع الجند في حملة لردع السلطان مسعود عن عدوانه على محيط عاصمة الخلافة ولكنه هُزم ووقع في أسر السلطان السلجوقي بسواحي إقليم أدرينجان ولكن هذا الأخير أكرمه وعامله بتوفير مكانه، وبدأ يتفاوض معه حول الصلح بينهما مطالباً الخليفة بتقديم مبلغ دوري للسلطان

ولأن المسترشد كان محبوباً لتقواه وعدله ورفقه بالناس، فقد قامت قيادة أهل بغداد فخرجوا إلى الشوارع يقيمون الواح ويثرون التراب على رؤوسهم، وأوقفوا حركة البيع وحتى الصلوات

ويدور أن ذلك قد تصادف مع وقوع بعض الزلازل والكوارث الطبيعية بدعراق وفارس فأرسل السلطان سبج - سلطان سلاجقة فارس وعميد البيت السلجوقي - إلى ابن أخيه مسعود رسالة عيعة اللهجة حاطية فيها «الولد»، وأمره أن يسجد بين يدي أمير المؤمنين ويقل الأرض بين يديه ويسأله الصلح ثم يعيده مكرماً إلى دار خلافة وربط بين فعله مسعود وتلك الزلازل والصواعق التي اجتاحت البلاد وخوفه من أن يتزلزله لعذاب عليهم لاجترائهم على مقام الخلافة.

أظهر السلطان مسعود الخشوع لأمر عمه، والاستعداد لتعذيبه ولكن في ليلة، تسلل للمعسكر سبعة عشر رجلاً من «الحشاشين»، ود، هموا الخليفة في حيمته بخناجرهم فمزقوه، ومثلوا به، ولم يدركه الحرس الذين جلبهم جسد الجريمة إلا وقد لقي حتفه، فقتلوا القتلة عن آخرهم.

وبلغ الخبر بغداد فخرج أهلها حفاة يمشون التراب، وخرجت النساء نشرات شعورهن يلطمن ويقمن للتوايح. وقعد الناس للعزاء ثلاثة أيام

وأشارت أصابع الاتهام إلى مسعود، بأنه قد دبر مع المجرمين جريمتهم وسهل لهم الدخول لمعسكره، وبهذا يكون قد تخلص من الخليفة الذي كان قد أظهر همة في أمر تحرره من رِقة السلاجقة، وفي نفس الوقت قد برأ نفسه من دمه.

ولكن لم يستطع أحد إثبات تورط السلطان في ذلك، فكل ما كان متوافراً هو مجرد «قرائن» يحكم كونه المستفيد الوحيد من مقتل المسترشد بالله

لم يختلف مصير الراشد بالله عن مصير أبيه، وإن احتلّت طبيعتهما، فبما كان المسترشد عاقلاً عادلاً منصفاً، كان أبه شديد الرعونة والاندفاع، ولعل هذا ما جعله يلاقي حتفه بعد أقل من سنة من صايحته أمير المؤمنين

بدأ الأمر بإرسال مسعود للراشد، يطلب منه الوفاء بمبالغ من المال كان أنه قد تعهد بسدادها له، خلال مفاوضاتها قبل اعتياله، فرد الراشد بأن خزائنه لا تفي بالمطلوب، وبأنه يترتب على ذلك توتر العلاقات بين الطرفين وترى كل منهما بالآخر.

لم يمض كثير من الوقت، حتى وفد على بغداد مجموعة من الأمراء والزعماء الحارثيين على مسعود، وقد أجمعوا أمرهم مع الخليفة أن يتحالفوا على حربه، وبالمعل نم قطع ذكر اسم السلطان مسعود من الخطبة، وصار الدعاء بدلاً منه لأم أخيه الملك داود، الذي كان مسعود قد حاربه من قبل

لم يتردد مسعود في حشد قواته ومحاصرة بغداد لردع هؤلاء المتعربين عليه، ولكنه بقي حزين يومًا أو أكثر يحاول اقتحامها دون جدوى، فاضطر للانتسحاب

وارتكب الحلفاء خطأ فادحاً، فقد تفرقوا من بغداد إلى بلادهم دون تأمين عاصمة الخلافة، ولم يبق منهم مع الراشد بالله سوى الأتابك عماد

الدين زنكي، حاكم الموصل الذي اصطحب الخليفة وقلة من رجاله اليه. وفور علم مسعود بخروجهما من بغداد للموصل، توجه بقواته ودخل بغداد، ثم جمع الفقهاء والقضاة، وأطلعهم على عهد من الراشد يقر فيه بأنه متى خرج على السلطان أو رفع عليه السيف فإنه يُخلع من الخلافة، فأفتى الفقهاء بخلعه، ويبيع عمه عوضاً عنه.

وعلم الراشد بأمر خلعه، فاتفق مع الملك داود وباقي حلفائه على محاربة مسعود واسترداد كرسي الخلافة، وبالفعل توجهوا لقتاله إلا أنه استطاع هزيمتهم شر هزيمة، وتفرق الملوك عن الراشد الذي قادته رعوته لتوظيف القلة الباقية من حدودها لمحاربة مدينتي مراغة وهمدان، بأرض فارس، حيث روعوا الناس ومارسوا السلب والنهب والقتل، بل وحنقوا على العلماء وأهائهم، كما يليق بعصاة من المنسر لا بخليفة وجنده! وأخيراً توجه الراشد لمحاصرة أصفهان وسب قراها

وبسبما هو يستريح من «كفاحه» في خيمته، دامه بعض المتسللين وقتلوه بخناجرهم، على نفس طريقة اغتيال أبيه، لئلا ينفذ قرب أصفهان. والمرجح أن من نفذوا الاغتيال هم قتلة «الحشاشين» - لتطابق نمط القتل ومستوى السرعة والكفاءة مع ما هو معروف عنهم - ولكن احتيلَ فيها إذا كانوا قد قتلوه من تلقاء أنفسهم - ربما لدخوله بعض ما يعتبرونه ماسطق نفوذهم - أو أن للسلطان مسعود يد في ذلك. وكالعادة لم يوجد من طرف حيط يقود لاتهام مسعود إلا قرينة «المصلحة».

بمقتل كل من المسترشد بالله والراشد بالله، يمكن أن نقول إن المقاومة لعباسية للحجر على منصب الخلافة قد انتهت، إلا من محاولة أخيرة بائسة. كان بطلها الخليفة المستنجد بالله.



- المستجد بالله (١١٦٠م - ١١٧٠م) . الشاعر المجهول صاحب
الشعر الشهير:

كثيراً ما يمر علينا من الشعر القول

«عَبَّرْتَنِي بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارُ لَيْتَهَا عَبَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ
إِنْ تَكُنْ شَابَتْ الدَّوَابُّ مِنِّي فَالْغِيَالِي تَرِينَهَا الْأَقْبَارُ»

وغالباً ما يقال عن مؤلف هذا الشعر «غير معروف» أو «مجهول»
لكنه في حقيقة الأمر من شعر الخليفة العباسي أبو المظفر يوسف المستنجد
بالله.

من الغريب أن رجلاً مثله لم يحصل على القدر الكافي من الشهرة، فقد
تولى الخلافة لمدة ١١ سنة اشتهر فيها بالعدل والرفق بالرعية، فأبطل المظالم،
وبقي يرفع المكوس حتى أزالها من أرض العراق، واشتد على أهل الشر
والفساد حتى إنه حبس رجلاً كان معروفاً بالوشاية بالناس والسعي في
الوقعة فيهم، فتوسط صديق له وعرض على الخليفة رشوة عشرة آلاف
دينار لإطلاقه، فقال له الخليفة: «أنا أعطيت عشرة آلاف دينار ودلني على
رجل مثله أحبسه وأكفي الناس شره»!

وإن كان غريباً أن يجهل الكثيرون هذا الرجل، فإن الأعراب هو أن
يُبقى صناع الخلفاء على رجل مثله كل تلك الفترة التي حل فيها لقب أمير
المؤمنين ولكن الأرجح أن إحراءاته لم تكن تمس مصالح أصحاب الشأن
فتركوه وشأنه، حتى تصادمت المقاصد فكان سعيهم في قتله.

كان أبو جعفر البلدي - وزير الخليفة - مكروهاً من الأمير عضد الدين
الاستاد دار (الأستاذ دار أو الأستاذار هو القائم على كل ما يتعلق بدار
الحاكم) والذي كان في هذا الوقت هو المتسلط على شؤون الحكم، يشاركه

في ذلك الأمير قطب الدين قايماز أكبر أمراء بغداد
وكان الخليفة قد صاق بتسلط هذين الأميرين عليه، لهذا فقد قام في
إنشاء مرضه الأخير بكتابة أمر للوزير بأن يقض عليهما ويصلهما، وكلف
طبيه الخاص، المدعو ابن صعية، بتوصيل تلك الرسالة، فختمه هذا الأخير
وسلمها للأميرين اللذين قررا التخلص منه، وقد أدخل في اتفاقهما اثنين
من قادة الجند هما يزدن وتنامش.

دُبر الأمر مع الطبيب، فقد بدأ يصبح بيا بصر الخليفة في مرضه لتسوء
حالته، ثم أخيراً أمر أن يدخل المستشفى إلى الحمام وهو ساخن وكان
في هذا خطورة عليه لتردي حالته - ثم دخل عليه يزدن وقايماز ليحملاه
ويلقياه في الحمام، وأوصدا الباب عليه وهو يصرخ ويستغيث وقد أدرك
ما يراد به وبقي في صراح ونداء حتى مات فجاء المتآمرون بانه وباعوه
على أن يعين عضد الدين وريثاً له، ويجعل ابنة أستاذ دار محله، ويقر قايماز
في إمرة العسكر.

ثم استدريح للوزير أبو جعفر لقر الخلافة، بحجة مبايعه الخليفة الجديد،
الملقب بالمستضيء بالله، وقُبض عليه ثم عُدَّتْ نِطْعُ أَفْهَ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ،
وَقُتِلَ بَعْدَهَا بِدِقِّ عُنُقِهِ.

هكذا بمزيج من السرعة والقسوة والبساطة المخيفة، تم إنهاء كل من
عهد المستنجد بالله وحياته في آن واحد

وإن كان في ما يلي عزاء لمن تستفز هذه الجريمة غضبه، فإن الدائرة قد
دارت على القتلة، فقد تربص المستضيء بقتله أبيه حتى وافته الفرصة، فأعدم
الطبيب الخائن بأن أجراه على تجرع السم، وطرده قطب الدين قايماز الذي مر
ومرض ومات في طريقه لمهربه، ونُهِبَتْ دَارُ تَنَامَشَ وَخُلِعَ وَتُبِدَ عَنِ السُّلْطَةِ

وافترق، أما عضد الدين فإياه في أثناء سفره للحج باعت به بعض قتلة الخشاشين واعتالوه.



كانت مرحلة «الخلفاء/البيادق» بمثابة مبتدأ خبره هو ما كان من اضمحلال أمر الخلافة العباسية، إلى حد توقف القادة والملوك التابعين لها اسمياً عن محاولة وصع هذا الخليفة أو ذاك على كرسي الحكم، فبعدد لم تعد مصبغ الأحداث، ولم تنق للخليفة وقراراته من قيمة، إلا تلك الروحية عند أولئك الذين لم يزالوا يحتفظون بالاعتزاز العاطفي بأصحاب هذا المنصب لهذا فإن النهاية المأساوية للخلافة العباسية في بغداد، والتي راح صحتها المستعصم بالله - آخر حلفاء بني العباس بالعراق - كانت نتيجة طبيعية لكل ما سلف مرده.



شباك جانبي مُطل على ثلاثة مَشاهد فاطمية دامية

في العام ٩١٠م قامت الخلافة العاطمية في شمالي إفريقيا، على يد عبيد الله المهدي، الذي قدّم نفسه كأحد أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو لسبب الذي يُصرّ أعذب مؤرخي العصر الإسلامي - عدا اس حلدون - على نفيه.

وفي العام ٩٧٣م تمكن الفاطميون، بعد عدة محاولات فاشلة، من غزو مصر وفرض السيطرة عليها، ليؤسسوا بها عاصمتهم «القاهرة» ويجعلوها حاضرة دولتهم ومركز دعوتهم. وليصيحوا مصدر خطر وإزعاج للخلافة العباسية، من خلال محاورتهم أملاكها

عشق الفاطميون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وكان هذا - إضافة للنزاع على فرص السيطرة على بلاد الشام - أحد العوامل الرئيسية في الصراع الدامي بينهم وبين العباسيين، والذي استمر لأكثر من قرنين من الزمان.



- أبو علي مصور الحاكم بأمر الله (٩٩٦م - ١٠٢١م). إمام الرعب.

أن يكون المرء قادرًا على إثارة الخوف أحيانًا، فهذا مما يمكن التعايش معه ببعض الخذر والحيلة.

لكن أن يكون مثيرًا للرعب بطبيعته المجردة، أن ييث مجرد حضوره بالجسم أو حتى ذكر الاسم قشعريرة باردة في البدن، أن تعرف أنه يباعث بالظهور من حيث لا يُتَوَقَّع، يطرش لما لا يُحْتَاطُ منه، ولا يعرف إنسان ارتفع شأنه أو اتسع - فك طلاس استحصار رضاه وصرف بقمته أن يكون اسمه أول ما يحصر للذهن إذا ذُكِرَت مفردات مثل «الخنون، الشر، الموت، الخوف».

وأن يكون هذا الذي نتحدث عنه هو صاحب عرش مصر، وعزيرها المتحكم في مقاليد البلاد ومصائر العباد، فهذا كأننا نقول إن أرض مصر قد أُقْطِعت للشيطان نفسه، بيعت فيها كيف يشاء، أو عن قطعة من الجحيم حُجِّلَتْ لبني الإنسان.

أو عن الحاكم بأمر الله العاطمي!



ليس هذا محال الحديث عن «طرائف» عهد الحاكم، على عرار ما يُسَبِّح إليه من منع أكل الملوحة والجرحير وخطر صيد السمك الذي لا قشر له، وإلزام الناس السهر ليلاً بدلاً من ممارستهم المعيشة نهارًا ولا ما اشتهر به من طوافه بالأسواق لصبط من يعشون الطعام، فإذا وجد منهم أحدًا أمر عبدًا له اسمه مسعود أن يعمل به «القاحشة العظمى» على مشهد من الناس!

فإن كانت تلك المأثورات عنه توظف أحيانًا للصحك والتفكه لأهل

عصرنا، فإنها لم تكن مصحكة على الإطلاق بالسنة لمن عاصر والحاكم.
 بالنسبة لهم كان هو الرجل الذي افتتح إمساكه بزمام السلطة بتدبيره
 قتل معلمه ومربيه سلافي الأصل «برجوان»، الذي كان قد تسلط عليه
 استصغاراً له، ودأب على السحرية مه بتلقيه به «السحلية» لما اشتهر عن
 الخليفة الصبي من أنه لا يتحرك إلا تسلاً كالزواحف، ودبر كذلك دبح
 «ابن عمار» شيخ قبيلة كتامة المحاربة، التي كانت حير معين بالسلاح
 والرجال لأبناء الحاكم وأجداده، ثم تناهت مع العبد المشاركة في فرض
 وصيتها على الخليفة، فحلت عليها نقمته

هذا وقد كان وقتها لم يجاوز السادسة عشر من عمره، وإن كان البعض
 يُعجب للوهلة الأولى بقدرته على التحرر من الوصاية وفرض نفسه على
 كرسي الحكم وهو بعد شاب، فإن هذا أيضاً ما يثير الخوف منه لسلطة تميده
 أو عملياته قتل في حياته، بحق أقرب اثنين له مد طعولته. فالأخطر من
 القاتل العادي، ذلك الذي يتعامل مع القتل بساطة وتلقائية كأه نشاط
 طبيعي اعتيادي. خاصة أن قتله كلاً من برجوان وابن عمار قد تم بطريقة
 «الاستدراج والاختياف»، فاستُدعي الأول للقاء الخليفة، وكمن له في سदन
 القصر من قتلوه عيلة ومرقوا جسده ودفنوه في نفس موضع مقتله، ودس
 في طريق ابن عمار من باعته بالسيف فأورده حتمه، ليثير رعب قبيلة كتامة
 التي سارعت بتقديم هروض الطاعة والولاء.

ويبدو أنه قد أحب هذا الحل الحذري لمشكلاته مع رجال الحكم، كبيرة
 كانت أو تافهة، فازدحت قائمة صحاباه منهم بالأسماء، فقد قتل مؤدبه أبا
 تميم العارقي بتهمة التدخل في شؤون الدولة بقرأة الرسائل الرسمية، ثم
 قتل ابن أبي نجدة المحتسب بحجة أنه يسيء معاملة الناس، وأعقبها بقتله
 الحسن بن عسلوح - من كبار مبشري الأمور المالية - وأحرق جثته لغصب
 عليه لبعض شؤون عمله، ثم قتل فهد بن إبراهيم - أحد كتته وكان مسيحياً -
 - لرفضه اعتناق الإسلام، وعين مكانه علي العداس ثم غصب عليه قتلته،

وطال القتل كذلك كلاً من أبي طاهر من التحوي متولي أعمال الشام، وأبي الفضل حامل مظلة الخليفة، والحسين بن القائد حوهر الصقلي، وغيرهم، حتى بلغ من قتلهم من رجال الدولة والعامة والأعيان خلال شهر أكتوبر ١٠٠٤م نحو مئة إنسان!

وحاول البعض حصر مجموع قتل عهده فكانوا ١٨٠٠٠ نفس

هذا الاحترء على سفك الدم، وعدم التمييز في ذلك بين خاصة أو عامة، صار ذلك الشاب صخم البنية قاسي الملامح ذو العينين الذي يشرب امتراح سوادهما برقة حالكة خوف من تسلطان عليه، نجسداً بشرياً للربع في مصر. فقبل عه «وأقام له من الهبة في بنوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه إلى سفك الدماء، وأنه لا يُقفي على من صغر ذنبه أو قل، فصلاً عن عظم جرمه أو حلّ» وقالوا أيضاً «وبذل سيفه في إراقة الدماء في سائر الناس على طبقتهم»، «وبذل سيفه في مقدمي أهل المملكة ومتحيزها، من الكتاب والقواد والحند والرعايا، وقطع أيديهم وأمرط في ذلك، فاحتلت بلادهم وفني رؤسائهم ورجاله»

وفي نفس الوقت الذي كان يرتكب فيه تلك القطائع، كان يُطهر التنسك والتعشف ويراه الناس في طرقاتهم، وقد ارتدى ثوباً حسناً وامتنى حازاً وراح يمر بالأزقة وينظر الدكاكين، يتمدد بعمقه أحوال الرعية!

وهو كذلك المتأله الذي أعاد مسيرة فرعون حين قال «أأراكم الأعلى»، ففي العام ١٠١٧م انتكر له بعض الدعاة الوافدين من بلاد فارس صفة إلهية، يقولهم بحلول روح الله فيه، فكان الرجل يلقيه فيناديه «يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد» تملقاً له. فاندلعت ثورة شعبية صده قُتل فيها أحد دعاة الوهيتة، وهو الآخر إلى الشام

وفي العام ١٠١٩م - قبل مقتله بعامين - عندما سحر منه أهل القسطنطينية (حيث كان يعيش العامة لأن القاهرة آنذاك كانت مدينة ملكية) بوصفهم

في طريق طوافه اليومي بالمدينة، مودعًا بالحجم الطبيعي لامرأة تحمل ورقة ه آيات تنال منه، أطلق فيهم عيده السود يداهم وهم بالسلب والنهب والقتل وسبي النساء، ويضعون النار في دورهم وشوارعهم، حتى تدخل الجند الترك لإنقاذ الأهالي المنكوبين وهو في أثناء ذلك ينظر من فوق سطح قصره للمسطاط المحترقة، ويكي متصمعا عليها ومتسانلا عمن أمر هؤلاء «المحرمين» بارتكاب تلك المذمعة بحق الرعية!

وانضم دعة المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى الجهة المضادة له، فقد أنكروا نأليه نفسه، وأنكروا عليه مخالفة مذهبه بتحليه عن مكانة «الإمامة» - وهي من أساسيات مذهبهم - لصالح تصيف «أمير المؤمنين»، كما عابوا عليه حله ولده من ولاية العهد وتعيينه ابن عمه عوضا عنه، لما في ذلك من مخالفة لطبيعة الإمامة في المذهب، من انتفاها من الأب لابنه لأكر كذلك فقبيلة كتامة قد صارت متوجهة من غدره، فقد فتح عهده بقتل سيدها، ورعم كتابته الأمان لها فإن الجميع يعرف قيمة أمان الحاكم وحتى أحته «ست الميت» انقلت عليه، بعد أن قام في واحدة من بوبات جنونه بقذف عرصها، غضبا من محاولاتها التدخل في شؤون الحكم لإنقاذ الدولة من سياساته الكارثية

هكذا ند، واضحا أن الخليعة الشاب يحذر بإصرار إلى نهايته، حتى إن المرء قد يحسبه قاصدا أن يدمر ذاته.



في مساء ١٣ فبراير ١٠٢١م، خرج الحاكم مع واحد - وفي رواية أخرى اثنين - من عيده إلى جبل المقطم، لاستطلاع بعض النجوم التي كان مولعا بالنظر فيها حاولت أمه إثناءه عن ذلك خوفا عليه من نبوة تقول بمقتنه

في هذه الأيام. لكن من يقدر على مراجعة الحليفة؟

هكذا خرج الحاكم من قصره، ولم يرجع إليه أبداً.

استمر البحث عنه لمدة خمسة أيام، حتى وُجِدَتْ ثيابه وعليها آثار الطعنات والدماء، وحماره وقد قُطِعت قوائمها، لكن أحداً لم يعثر على أثر لحشته. أما مرافقوه فقبل إنهم اختبأوا مثله، وقيل إن أشلاءهم قد وُجِدَتْ بعدها.

المؤكد أنه قُتِل، ولكن من قتله قد أخذ جنماها، وترك بدلاً منه أربع قصص لنهايته.

* * *

(١)

اقتربت من الجسد المسجي أمامها مصرحاً بالدماء، ومالت تتأمل ملامح صاحبه. منح أحد العبدین المائدين أمامها في وجهها الخميسي مسحة كآبة، ولحظ بطرف عينه المنخمصة تأدناً في حصرتها رجفة اعترت جفنها الأيسر. - «الحمار؟»

= «أغرقناه» أجابها أحدهما

= «والغلام الذي كان معه؟»

= «دُفِنَ حيث قُتِلَ»

استجمعت «ست الملك» - الأخت الكبرى للحاكم بأمر الله نفسها وهي تأمر عبدتها بحمل الجثة ودفنها بعيداً.

توجهت إلى مخدعها وقد ضربت عقلها عاصقة من الأفكار.

«لم يكن لذي من سبيل إلا ما كان» لم يحفظ لي رعايتي له ووقوفي إلى جاسه صغيراً، فصار يتهددني ويتعمد الإنقاص من قدري وأخيراً يطعنني

في شرفي ويتهمني بالحمل سفاحاً! أنا! سبيلة الخلفاء يقال لي إنني قد أسلمت
 حسدي للزنا وإن عطني يحمل ثمرة ذلك وقد حاوزت الخمسين من عمري!«
 دلفت إلى المحدث صارفة جواربها ألقت نفسها إلى مقعدها وأعنت
 عبيها بقوة أحدث تفكر. لا بد من التخلص من الحسين بن دواس سيد
 كتامة، شريكها في التدبير على الخليفة الملتاث الذي كان ابن دواس لا
 يأمن جاسه، ويتنظر في أي وقت أن يهوي سيف نغمته على عنقه. قد أدى
 الكتامي ما عليه. لكن في بقائه تهديداً لها إن تفوه بحرف عما دروا لا بد
 كذلك من التخلص من العبدین.

الامر هين فقط عليها الانتظار حتى يستئش الملا من العثور على
 خليفتهم ويقرو بموته، فتؤخذ البيعة لاسه كما يجب أن يكون

(٢)

- «نقول إذن إنت أنت من قتل أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله»
 = «لى. كان هذا مد أربع سوات، كما له أنا وثلاثة من أصحابي وهو
 في طريقه لمرصده بالمقطم، فلما انقطع عن العمران باعتاه ومن معه، ثم
 دفنناهم وتفرقنا في البلاد».

تادن الورير النظرات مع صاحب الشرطة، ثم عاد يولي الأعربي
 المائل أمامه وجهه سائلاً إياه «ولم تقتلتموه؟ هل كان لكم من ثأر أو مظلمة
 عنده؟»

= «ل قتلناه غيره للإسلام والمسلمين، من كمره وزندقته وسفكه
 الدماء» فاه كأنها يبصقها في وجه محدثه.

مط الورير شفتيه معكراً، بينما تقدم صاحب الشرطة من حبيسه، وقال
 «صنف لي قتلك إياه»

= «بعضاً أمسكه، وأنا ضربته بالسكين في صدره»

- «كيف؟»

بقي الرجل صامتاً، ثم لم يدر أحد متى ولا كيف استل سكيناً أجاد إخفاءه عن قابضيه

= «هكذا»

فلما تم دون الصل الحادي صدره قاتلاً نفسه، ليدين مع الصل سرّاً
كُتِبَ له أن يعمر قروناً تالية.



(٣)

لم يترك الرجل شراً في بيت ابن دواس إلا وقد فتنه. وقف في قلب
المكان يتأمل الدار المقنوط ما بها رأساً على عقب كتم أنفاسه وأرهف السمع
يثيق أن رجاله قد استطاعوا كبح من البيت عن إصدار أي صوت ينبئ من
ما خارج عن عملية التفتيش الدقيقة التي أرسلتهم «ست الملك» للقيام بها
«فتش عن أي شيء يمكن أن يدل على أن له يدّاً في الأمر، فلا أرى غيره
قد فعلها! قد كان يستوحش من الخديفة ويحجب المثل بين يديه، ويخفق
الأعذار كيلا يحصر إلى مجلسه، حتى أعطي الأمان فصار يجيء ويذهب
كيف يشاء. والآن قد لرم بيته على غير العادة فأثار ريتي! سأحتلق سراً
لأتي به إلى القصر، يسماً تذهب ورجالك إلى بيته ولا تركوا فيه ثعرة إلا
وقد فتشتم فيها»

قالتها صادقة وقد هدها الغضب لأخيها، فإن كان قد تطاول عليها
فإنه يبقى عندها كبعوض ولدها.

لمح على بعض الماصد صندوقاً صغيراً حتى إنه لم يفكر في النظر داخله،
تقدم وفتحته ليعرف بداخله سكيناً رآها أكثر من مرة بيد الخليفة حمل السكين
وأشار لرجاله أن هلموا فقد وجدنا ما نبغي.

سيحمل الخنجر إلى ست الملك التي ستواجه به الحسين بن دواس، ونسأله

كيف بلغ وصل إلى بيته. سيحاول الرجل تقديم مبررات واهية لكنها لن
تقع السيوف التي ستهوي عليه، بأمر الأخت المكلومة للمخلقة القليل

(٤)

في بعض دروب المقطم فوجئ هؤلاء السبعة بقطعهم عليه الطريق لم
يعصب من وقاحتهم قدر دهشته من تلك المرأة التي لم يعهدا من إنسان
قطر وهو الخليفة الرهيب الذي بكفي أن يصوب نظراته لإنسان ليحتل
ارتباط أوصاله.

«ما شأنكم؟»

= «قوم من الأعراب حثنا أمير المؤمنين بالنمى كرمه»

قالها من يبدو عليه أنه كبيرهم دون أن يتكلف عواء الترحيل عن دأته
هم الحاكم أن يرجره لسوء أدبه لولا حشيتة أن يظموه حوقاً منهم اصطع
لامالاة بجلائقهم وأشار لعدده - مرافقه الوحيد - أن يتوجه ببعضهم لبيت
المال فيجزل له العطاء انطلق الفتى لتنفيذ الأمر مصطحباً أربعة منهم بيني
بقي الثلاثة الآخرون في رفقة الخليفة

بقي الحاكم على صمته متشاعلاً بالظر إلى السماء، مرتقباً طلوع النجم
المنتظر. ترجل الأعراب الثلاثة عن دوابهم وقد حسبوا أن انبهاكه قد أغفقه
عنهم، إلا أن رهافة حواسه قد أسأته بالحركة المريبة.

هل حاول الفرار أم أن كبرياءه قد منعه من ذلك؟ في كل الأحوال فإن
عبده حين رجع لم يجده وإما وجد الحمار المسكين وقد قطعت قوائمه، وإلى
جواره ثيب الخليفة وقد تمزقت بشكل يعرفه جيداً من حيز شكل صرب
الخناجر.



أي تلك القصص الأربع هي النهاية الحقيقية للمخلقة العاطفي الحاكم

بأمر الله؟ أم لعلها جميعاً محص نكهنات ومحاولات مستمينة لتفسير واحد
من أشهر الألفاظ التاريخية؟

المشكلة الحقيقية التي تواجه المدقق فيها، أنه يجدها جميعها منطقية
واردة الوقوع.

ولكن على أية حال، فإن غرابة وشدوذ تلك النهاية ملائمة حدًا لطبيعة
الحياة التي عاشها هذا الرجل!



- الأمر بأحكام الله (١١٠١م - ١١٣٠م) قتل الصراع الشيعي -
الشيعي:

لكنها تسير الخلافات - العاسية والعاطمية - على درب واحد في طريق
اضمحلال مصب الخلافة. فإن كان خلفاء الأولى قد صاروا دُمى بيد القادة
والسلاطين، فإن أنمة الثانية قد لعب بهم الورراء فمئد أن استدعى الخليفة
الأسبق المستنصر بالله والي بعلك القائد بدر الجبالي - أرمي الأصل - وولاه
وراري السيف والقلم، حتى صار الخليفة الفاطمي سيقه لكل من تغلب
ومتطى كرسي الورارة. توفي بدر فحلفه ابنه «الأفضل بن بدر الجبالي»،
والذي اقترف ما فتح على الدولة بابًا من المصائب

فيسا كان ينبغي أن يخلف الخليفة / الإمام المستنصر ابنه الأكبر «نزار»،
تدخل الأفضل فأقصى هذا الأخير عن الخلافة ووضع على العرش أخاه
الأصغر «المستعلي»، فحاول نزار التمرد لكن الورير استطاع قمع تمرده،
وقتله هو ومن انحازوا له.

انتقلت هذه الأخبار إلى بلاد فارس، حيث كان أحد دعاة الشيعة
«الحسن بن الصباح» يؤسس أشهر فرقة اعتيالات مذهبية وسياسية في التاريخ:

فرقة «الحشاشين» التي تكونت من متعصبي المذهب الشيعي الإسماعيلي، والذين بلغ تعصبهم حد استباحة قتل من خالفهم من القادة والمفكرين والوراء، وبرعوا في ذلك شكل غير مسوق فبدأ في الجناح الشرقي من المنطقة الإسلامية في فارس والعراق وحتى الشام ومصر، عصر من العرب عن يد الجناح المسلح من تلك الفرقة والمسمى رجاله بـ «الفدائية»

فور علم ابن الصلاح بما كان مع تزار، جمع أتباعه وحطت فيهم مندداً بكل من الأفضل والمستعلي، ومادناً بحق نزار وعقده في الإمامة، ومن هنا انقسمت الفرقة الإسماعيلية من الشيعة إلى فرقتين الأولى هي الشيعة الإسماعيلية المستعلية - وهم العاطميون منذ عهد المستعلي (نقيت منهم طائفة البهرة حالياً) -، والأخرى هي فرقة الشيعة الإسماعيلية النزارية (الأعاجنية حالياً) وعودة إلى مصر، فقد تسلط الوزير على الخليفة المستعلي، وتحكم في عمله حتى وفاة هذا الأخير، فبويح أنه «الأمر بأحكام الله» أميراً للمؤمنين، رغم أنه لم يكن قد جاور الخامسة من عمره.

بقي الخليفة الطفل محجوراً عليه من وريره لمدة عشرين عامًا، حتى اعتيل الوزير عن يد ثلاثة رجال، باعته في ليلة العيد وهو متوجه إلى خزانة السلاح لتفريقه على جنده، كعادته في الأعياد. وبسبب ما قال البعض إن القتلة كانوا من «الحشاشين» الذين ساءهم ما كان من قيام الوزير - وهو سني المذهب - بإصعاف سيطرة المذهب الشيعي على مصر، بقراره السماح للسنة بحرية الممارسة الدينية، أشارت أصابع الاتهام بقوة إلى الأمر والمأمون البطائحي - الذي حلف الأفضل في الورارة - ثم سرعان ما تخلص الخليفة من وزيره - وشريكه المحتمل في الجريمة - وأطلق منصب الوزارة، في محاولة منه لإعادة سيطرة الخلفاء على مقاليد الحكم من هنا تبدأ قصة مقتل الخليفة العاطمي «الأمر بأحكام الله بن المستعلي بالله»

«قد قسى أمرا» قالها الشاب وهو ينظر من شاك محباً القداوية الدين أرسلهم «برذك أميد» - كبير الفرقة و خليعة حس الصباح - لقتل اخيه الماطمي!

التفت إلى رفاقه التسعة مصيفاً «الجند يستوقفون كل من يرتابون في أمره» وأصحاب الدور يؤمرون بإغلاق القصر عن كل غريب يطلب استئجار بيت أو عرفة! قد تسرب الأمر إلى رجال الأمر لا ريب ولا نأمن أن يظفروا فيقتلنا أو يحبسنا قبل أن نعالجه!

أموا نظراتهم على ما قال، ثم سأله أحدهم «وما الرأي؟» تناول جرابه محبباً وهو يترع في صدر مجلسهم «الرأي أن نقتل أحداً ونلقي رأسه إليهم!»

اعتدلوا في جلستهم بعير اتفاق، فأردف مفسراً وقاطعاً الفرصة أمام استكارهم: «إن عرفوا صاحب الرأس فقد عرفوا فلا مقام لنا عندهم وقد فسد تدبيرنا، وإن لم يعرفوا فهم في عملة ويتم لك ما تريد» المألوف أن تُرفض مثل تلك الأفكار الخنوية، ولكن العالم بطبيعة الفكر الانتحاري للقداوية يدرك أن ما اقترحه الفتى لا يخرج من نطاق المقبول عند هؤلاء القوم، في سبيل إتمام مهامهم

تبادلوا النظرات بصمت استقرأ في تعبيرات وجوههم ما يفيد تقلبهم الفكرة، إلا واحداً اعترض قائلاً «لكن هذا يفتقر عدداً، فهل يتم هذا أمراً؟» عبث الفتى بشيء في جرابه، أخيراً رفع عيبيه إلى محدثه ناظراً فيها شات، وقال «أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلمس طاعته؟»

تفكر الرجل هنيهة ثم أجاب مستسلماً للفكرة: «لعله ما تقول» فبدأ على الشاب الرضا، واتسم بهدوء وهو يقول «وما أدلكم إلا على نفسي»

ثم بيد ثابتة، وبغير أن يرتجف له جفن، أخرج من الحراب خنجره ودمه
في بطنه ثم أداره بقوة!



وحد الناس الرأس في منطقة «بين القصرين» فسلموه لشرطة الوالي الذي
دار به على أصحاب المحال والأسواق فلم يميزوا صاحبه. فعلم الفداوية أن
القوم عاقلون عهيم. ولكنهم كموا إلى حين أن تأتي فرصة مناسبة لاعتقال
الخليفة وقصوا نذات المدة في جمع المعلومات عن تحركاته المعتادة، والطرق
التي يسلكها لكل مكان يتوجه إليه

وأحيزاً عرفوا أنه خارج للتنزه في موضع للترويح عن النفس، كذ قد
بناه لروحته. فدرسوا الطريق إليه ولا حظوا أن به محلاً لفران. فاشتروا دقيقاً
وتوجهوا إلى المحل، وجلسوا وقد أمروا الفران أن يجيز لهم فطيرة، وراحوا
يشاعلون به بالحديث وبعضهم يرقب الطريق.

واقترب ركب الأمر، فوثوا سريعاً إلى الفران فقبوا حركته وكمموه
وأعلقوا باب الفران، وهم ينتظرون مرور الموكب فوق جسر يقرب المحل،
فلضيق هذا الجسر يضطر حرس الخليفة للتراجع وإفساح الطريق له، فيمر
منعداً ثم يمرون بعده. وبالفعل تم ما توقعوا فخرج أحدهم مهزولاً إلى
الخليفة في هيئة من يحبه، وبقي يسجد ويقوم كأنه يبالغ في التحية، حتى إذا
ما صار الخليفة إلى جواره أخرج خنجره وصر به بطن فرسه، فسقط وفوقه
راكبه الذي استقبله خنجر الفداوي وزملائه الذين سارعوا بالوثوب إليه
فور مجاوره الخليفة له وهو ساجد.

ومرقت الخنجر جسد الأمر بأحكام الله لينضم لصحابيا حركة «الحشاشين»
ولم يلحق الحرس بالقتلة إلا وقد أتموا مهمتهم، واستسلموا بصدور رحمة
للسيوف النائرة غضباً التي أفتهم عن آخرهم.



هذه العملية هي مما يوصف بلغة التحليلات الأمنية بأنه «قتلة نوعية» وليس ما يلفت النظر هنا هو قيام أحشاشين ماعتيال «حديقة»، فقد اعتادوا قتل أصحاب المناصب العالية واختراق ميابهم الأمني. وإنما هو تغلبهم على تحديات مثل بعد المسافة عن قواعدهم والمناطق الحاصنة لهم، ولتوجههم حيث يمكن أن يتلقوا العون من بعض أهلها وكذلك استماتتهم في تنفيذ المهمة إلى حد اقتراح أحدهم أن يقتلوه ويلقوا رأسه كما سلف الذكر، واختيارهم مرحلة من عهد الأمر كان فيها قد أفرغ الدولة من «أثقائها» ما يجعله «الثقل» المنعرد، وإذا قُتل اهترت الدولة بعنف.

ولكن الأهم من ذلك، أن صحبة خناجر هؤلاء القتل لم يكن من جانب «السنة»، وإنما كان من المعسكر الشيعي، بل وإمام المعسكر نفسه اعتقد أن تلك الواقعة بالذات هي مما ينبغي على المرء تأمله والتفكير فيه، قبل أن يقرر إطلاق الأحكام الجاهرة على الخصومات القائمة بين المتعصين، من أهل هذه المذاهب أو تلك.



- الظافر بالله (١١٤٩م - ١١٥٤م). صحبة التهمة المشينة.

- القاهرة - ١١٥٤م:

«الناس يتحدثون بكما!»

تشاغل نصر بن العباس الصنهاجي عن أبيه الذي أردف بتهكم، مشيراً الأمر الذي طالما ألح فيه «يقولون ابن الوزير نراه في المواكب عبوساً ويراه الخليفة في الليل عروساً»

صفحه التعبير اللاذع فالتفت لأبيه هادراً: «كفى!» فأكمل هذا حديثه غير مبالٍ بغضب الفتى: «تلك الإقطاعات الكبيرة، والمنع السخية، التي تنزلها

عليك عناية أمير المؤمنين تبعاً، أهي بمثابة المهر؟» ثم استطرد صاحبكاً:
 «إن كان ذلك فلا ريب أنك أعر عليه من حرمه، فهذا مهر شديد السخاء!»
 أطلق الشاب غصه في إطاحته العيمة بكأس كانت أمامه، وأسانه
 تكاد تنسحق تحت وطأة انطباقي فكيه غيظاً. تراجع الأب في مقعده رافعاً
 كفه كأنها يهدئ من ثورته. اصطنع جدية واهية ارتداها على قسياته الساحرة
 وقال: «فقط أريد أن تُشيع فضولي من مكها الذي.. آه.. حسناً لا بأس..
 هذا لا يهم كثيراً» ثم بحركة مباغتة هب من مقعده وضرب المنضدة بقصة
 يده، صارت في وجهه أنه وقد رالت آثار الهرل عنه: «القضيحة واحدة
 على أية حال!»

انتمص نصرمة أبيه المعاجنة. تلعث وهو يحبه: «أنت تعلم أن كل هذا
 محض افتراء! الناس يغارون مما بلغناه من عظيم الشأن! أنت قد صرت
 الوزير، وأنا صديق الخليفة وصاحب سره..»

قاطعه الأب وقد استولى على راية الغضب في تلك المعركة الكلامية:
 «بل قل صاحب مراهه أما لا أنالي بها يكون بينكما على الحقيقة، لكن
 حديث الألسنة يرعجنني ولو كان كذناً!»

دار حول المائدة وجلس إلى جوار ابته: «أنا قد بلغت ما بلغت من شأن
 بحسن التدبير» كاد نصر يقاطعه، فاستوقفه وأكمل: «أعرف أنك أنت من
 نفذ هذا التدبير، وقد أحسنت القيام بها وكِلْتُ به، فلا تضيعن ما فزنا به!»
 قام عاقداً يديه حلف ظهره الذي أولاه ابته. بقي يتأمل تهاويل السقف
 وزينة أركانه، ثم أخيراً قال دون أن يظفر للفتى: «عندما أبلعي البعض
 حديث الناس عن أنك والخليفة بينكما ما بين المرء وزوجه، لم يراودي شك
 في مسلكك، ولكن، في كل الأحوال فإن على الألسنة أن تنقطع. ولا تقل
 لي أن أدبر للمتكلمين قتلاً أو حبساً، فهذا مما يؤكد ما بشاع. لا يبقى إذن
 سوى سبيل واحد»

قطب الابن جيسه وهو يسأل أباه مستر وحا اتجاه هذا الحديث: «وما هو؟» فالتفت إليه الأب وقال مبتسماً وقد أدرك أن ابنه يفهمه. «أن تقتل الخليفة!»



الحديث عن القتل بتلك البساطة مثير للدهشة، لكن أن يكون المتحدث هو العباس أو ابنه نصر، فهذا من غير المستغرب
فالعباس الصنهاجي كان أحد القادة المعاربة للجد الفاطمي، وكان زوج أمه الأمير ابن السلار والياً على الإسكندرية، ثم استطاع ابن السلار أن يخلع ابن مصال - وزير الخليفة الشاب الظافر بالله - وأن يتولى الوراثة عوضاً عنه، ويشلط على الفتى الذي كان مغرقاً في اللهو والملاذات ورقيق العباس بان سمها نصرًا، ولكن هذا الآن تربي في بيت حدثه في جحر ابن السلار، الذي عامله كعص ولد. وكبر نصر وصار شاعراً، لكنه لم يحفظ الجميل لمربيه.

فقد كانت الوحشة قد دنت بين الوزير والخليفة، لأسباب كثيرة منها الاختلاف المذهبي بينهما - الخليفة شيعي والوزير سني - وكذلك لاستكثار الوزير إهمالك الظافر في متعه، وإهماله الانضباط المفترض من خليفة المسلمين وفي نفس الوقت، كان العباس يطمع في احتلال مكانة زوج أمه. فتم التدمير بين كلا منهما، وكُلِّف نصر بن العباس بالتنفيذ، لأنه من القلة التي تستطيع أن تقترب من ابن السلار وهو منفرد عن حرسه وأنت الفتى أنه لا يقل خسة عن أبيه، بقيامه بقتل مربيه وولي نعمته في فراشه!

وعلى سبيل المكافأة، جعل الخليفة العباس الصنهاجي وزيراً له، وقرب إليه نصرًا وصار يغرقه في إنعاماته وهداياه، حتى تحدث الناس بمعلقة مشينة بينهما.

فدار بين الامن والاب حديث قتل الظاهر بالله، بعد عام فحسب من
قتلها ابن السلا.



انغلاق الباب سريعاً بعنف غير معتاد، والصمت المطبق على المكان،
وتلك الحركة المريبة بقصر نصر بن العباس، ثقت الخوف في صدر الخليفة
وهو يستشعر أمراً مشؤوماً يجري حوله، في تلك الليلة التي دعه فيها
صديقه لسهرة عنده.

الخوف تحول لرعب هائل عندما رأى قطعاً من الليل تنفصل عن الظلام
المحيط، وتهوي سبوحها على من حوله من الخدم، عدا واحداً استطاع الإفلات
وابتلمته الظلمة.

كان هذا آخر نصيب الظاهر بالله من البصر، قبل أن تنهشه السيوف
التي تعرف عملها جيداً.



ثم البقي من الأمر بشكل سريع ودموي، فقد أخمى نصر الجثث في
حب بقصره، وألقى على الحب وخامة ثقيلة.

وانطلق العباس إلى القصر يسأل عن الخليفة متطاهراً بالجزع، وقد انتشر
خبر مقتله، غالباً عن طريق حادمه الذي فر من المذبحة

كان الصنهاجي يدرك أن عليه التدبير سريعاً لإغلاق باب إلقاء تلك التهمة
عليه، فأسرع بإحصار أحوي الخليفة القتل وأتممها بتدبير قتله للاستيلاء
على الحكم، ثم أعدمهما سريعاً في قاعة العرش. ودون أن يتكف عناء إراة
آثار دمائهما أو حتى جثتيهما، أحضر عيسى - ابن الخليفة وكان في الخامسة
من عمره - ورفع على الكرسي وأعلن البيعة له باسم «الفاتر بنصر الله»

والطفل المسكين يبكي ويصرخ من هول المنظر أمامه، وقد أصيب بالصرع
مند ذلك اليوم حتى مات بعده بستة أعوام.



لم يُعطَ الاس والأب الفرصة للتمتع بشجرة حريمتها.
فقد أدرك الجميع - رجال الدولة والعامه - هشاشة رواية العباس
ونصر حول مقتل الظافر، فرجها الناس بالحجارة في مرورهما بالشوارع،
وانشق عنها أعواصها، وهوحت ممتلكاتها، ثم قامت نساء القصر الفاطمي
بمراسلة طلائع بن رريك الأرمي، والي الأشمونين والبهسا بصعيد
مصر، وكان معروفا بالمروءة، وأرسل له حصالاً من شعورهن - وهي في
عرف العرب قمة الاستفزاز للمروءة - يطلن منه التوجه للقاهرة وإنقاذ
الدولة من عتث الصهاجي وابنه

أسقط في يد العباس وبصر، ففرا من مصر ومعها الأمير أسامة بن منقذ
الشيوري - من آل منقذ حكام شير سوريا حالياً وكان مقبلاً في القاهرة
آنذاك - والذي اتهمه البعض بالضلوع في جريمتي قتل اس السلار والظافر،
وإن كان قد نفي ذلك في سيرته الذاتية، المعروفة باسم «كتاب الاعتبار».
ولكن، تعرض الثلاثة لهجوم من بعض المراسان المتمين لـ «فرسان
الهيكل» والذين كانوا يسيطرون آنذاك على بعض مناطق الشام - خلال
الفترة المعروفة بعصر الحروب الصليبية - فقتلوا العباس وأسروا نصرًا،
بينما استطاع ابن منقذ الهرب.

وأرسلت نساء القصر للفرسان يعرضن أميرهم بصر، فقبل
هؤلاء العرض وياعوه لمن ليعاقب بشتفه على باب رويلة
وهكذا تنتهي حكاية مأساة اعتيال الخليفة الظافر بالله.



يرد على الذهن سؤال هل كان دافع نصر لقتل صديقه الخليفة هو إحراس
الألسنة الطاعة في عرصه بالفعل؟

ثمة تحليلات ترجح ذلك، بينما نحمل بعض التفسيرات رواية أن الظاهر
قد عرض على نصر منصب الوردية لو قتل أباه، وكان الخليفة قد صاق
بتسلط العباس، كما صاق من قبله بتسلط ابن السلال، فغضب الفتى بأبيه
وأحبره برغبة الخليفة في التخلص منه، فقص هذا الأمر على صديقه أسامة
بن منقذ، الذي نصحه بالمبادرة بقتل الظاهر، ويقول رواية تلك القصة إن
ابن منقذ كان يهدف من مقتل الخليفة أن ينقذ نفسه من بطشه، نتيجة سعي
بعض رجال الدولة في ذلك غير أنهم من استصفاة الظاهر له، وهو أمير
شامي عريب عن مجمع أمراء مصر ولكن تلك القصة تبدو واهية جدًا، ثمما
كرواية أخرى عن أن أسامة بن منقذ نفسه كان صالعا في اغتيال ابن السلال،
بسبب تجهيز هذا حملة لإنقاذ عسقلان من الصليبيين، وكان يرعب في أن
يقودها العباس الصهاجي وبرفقته ابن منقذ، فاستنقل هذا الأخير مفرقة
رغد العيش في مصر، وقرر أن يدبر قتل ابن السلال للتخلص من المهمة!
والقارئ في سيرة ابن منقذ كمقاتل متحمس معروف بالشجاعة والإقدام
واقترحام المخاطر، يستنكر مثل تلك الرواية (لمريد من المعلومات عن أسامة
بن منقذ أنصح بقراءة سيرته الذاتية المعروفة باسم كتاب الاعتبار، وهي أول
سيرة ذاتية في التاريخ العربي)

التفسير الذي اعتمده الكثيرون هو «رغبة نصر في دفع التهمة المشيئة
عنه»، ولكن حتى هذا التفسير يبقى هشاً إلى جوار ما يمكن تفسيره بأن الفتى
وأباه قد رآيا أن الخليفة الظاهر قد صار أكبر سناً من أن يستطيعها السيطرة
عليه، وأن من مصلحتها إزاحته وأن يأتيها بطعن صغير يسهل أن يحجرا
عليه، فيتسلطا على الدولة كلها.

فالحجبر كان قد أصبح ستة الوزراء مع الخلفاء في مصر. ولهذا فلم يكن
مستعرباً أن تنتهي دولة الفاطميين باقتتال الطامعين في منصب الوردية،

حتى أفنوا بعضهم بعضاً، ولم يعد من حل سوى الاستغاثة بالخارج المتمثل
في دولة الزنكيين بالموصل وحلب. ليرسل ملكها نور الدين محمود زنكي
كلاً من قائده أسد الدين شريكوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن
أيوب، إلى القاهرة ليعين العاضد - آخر حلفاء القواطم - شريكوه وزيراً،
ثم يحلفه ابن أخيه صلاح الدين بعد ثلاثة أشهر بحكم وفاته.

وفي العاشر من مستمر من العام ١١٧١م، كان صلاح الدين يعلن
رسمياً سقوط الدولة الفاطمية بإسقاطه الدعاء للخليفة العاضد - الذي
كان يحتصر في فراشه - ورفع الدعاء للخليفة العباسي



عودة لمشهد عباسي أخير

المستعصم بالله خليفة نهاية الزمان

«لقد بقيتُ عدة سببٍ معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاً لها، كارتها
لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأزحر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب
سعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يبون عليه ذكر ذلك؟ يا ليت أُمِّي لم
تلدني ويا ليتني مت قبل حدوثها، وكنت سبياً مسياً»
هكذا استهل المؤرخ العربي ابن الأثير ذكره ظهور المغول واجتياحهم
البلاد الإسلامية، وربما لحس حظه أنه قد توفي قبل دخولهم بغداد وتدميرهم
إياها، وتذبيحهم أهلها وقتلهم الخليفة.

القارئ في تاريخ تلك الفترة يدرك، بسهولة، أن أهلها قد نظروا لهجوم
المغول والأهوان المصاحبة له، على أنها نُذُرُ نهاية الرمان، وأنه لم يبق من الدنيا
إلا أيام، وهو ما انعكس على تفاعلهم مع تلك المحنة الكارثية، التي تعتبر
الأولى من نوعها في التاريخ الإسلامي، فقد عُرِسَ في وجدانهم الحممي
أن هؤلاء القادمين على صهوات جيادهم، يسقطهم الرعب ويتبعهم الموت
والدمار، ليسوا من جنس البشر، فهم لا يُقَهَّرُونَ، ومقاومتهم عت، وإن
سقط منهم واحد تمحضت الأرض عن آلاف مثله

كان هذا من الأسباب الفعلية لحالة الاستسلام للمصير التي سيطرت على

أهالي المدن الساقطة في أيدي المغول، حتى إن ثمة قصة تقول إن حدياً معوباً دخل وحده زقاقاً في مدينة وراح يقتل من فيه بالسيف وهم مستسلمون له، ثم اتحنى سيفه من كثرة ما ضرب من أعناق، فأمرهم أن ينتظروه حتى يأتي بسيف آخر ليستكمل قتلهم، فانتظروه حتى عاد وأكمل عمله في رقابهم بصرف النظر عن لامعولية الرواية، فإنها تنم عن الروح المتهاوية للدفاع لدى معاصري تلك المصيبة.



يتحدث الناس عن خليفة يأتي في آخر الرمان، فيكسر الطعنة ويدحر الظالمين ويقيم دولة الحق، ويملا الأرض خيراً وعدلاً بعد أن مُلِئت شرّاً وجوراً.

فما بال نهاية الزمان تأتي والخليفة مجرد رجل ضعيف، متهاون، مهمل في محاليس الطرب ومشاهدة المسامر، قد انحل عقد الدولة من يده! صحيح أن خلفاء بني العباس قد تأكلت جذوعهم مع الوقت، حتى لم يعد لهم من الخلافة سوى الاسم دون الرسم، لكنهم على الأقل كانوا يقاومون، يتمصون. حتى وإن لم يخرج بؤذهم عن بغداد أما هذا المستعصم فهو لا يقدر حتى على حكم بغداد. أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الذي يحتفظ الملوك والأمراء المستقلون بها تحت أيديهم من بلاد بالذكر في الدعاء بالمساجد، يعجز عن ضبط مجرد مدينة واحدة. فعنداد قد صارت ساحة قتال بين السنة والشيعة من أهلها. وبعد أن كانت تقيض بالحياة والنشاط والهمة، صارت خامدة مصمحلة، وخل أمرها، وألقى أهلها أنفسهم في الملدات والملاهي، والافتتال على توافه الأمور، فراراً من واقع أنهم قد صاروا قيد أيام معدودة من أن يسحقهم المارد المغولي الفاجر فاه، يتلغ المدن ويطحس بأضراسه الممالك. بقيت الشوارع على ازدحامها بالناس لكن دون حياة، كأنها «مدينة النحاس» المذكورة في بعض الأساطير، والتي أُلقيت عليها

لعنة جددت أهلها على مكائهم إلى يوم يعثون

والخليفة لم يعجز عن ضبط عاصمته فحب، بل عن ضبط محله كذلك.
فالمجلس عمزق بين كل من محاهد الدين الدوادار كاتب الخليفة والقائم بجنده،
ومؤيد الدين بن العلقمي أقرب وزرائه الأول سُني متعصب والآخر شيعي
محازر والصدام بينهما يتصاعد بين المناوشات الحادة والاشتراك الكلامي
الغنيف. والمستعصم قد نصب أرجوحته بين حزب هذا وحزب ذاك، فهو
لا يريد من الأمر إلا أن يترك شأنه ليستمتع بمباهج الحياة، أما أن يُطلب
منه إيداء الحرم الكاكي لإدارة النقاش في مجلس خلافته، فهذا ما لا يطبق من
جهد رغم ما يفترض من سنوات عمره التي تجاوزت الخمس والأربعين
بالمسابقة، هذا الرجل نفسه هو من اشكر سلطنة شجر الدر، التي أجادت
إدارة أزمة موت زوجها السلطان نجم الدين أيوب في حصم الحرب مع
المرنجة، وأرسل يقول لها «لو أن الرجال قد عدمت عدكم فأخبرونا سير
لكم رجلاً»!

لم يقف الشقاق عند مجلس الحكم، بل قد تعداه إلى شوارع وأحياء بغداد،
فهذا محاهد الدين يث رجالاً له ومأجورين من غوغاء المدينة يقوموا بما
يمكن وصفه بـ«المظاهرة غير السلمية» ضد ابن العنقمي، ما أدى إلى وقوع
مصادمات دامية بين مؤيدي الوزير ومعارضيه من العامة، فيرد الوزير
تحريرض الخليفة على خلع دواداره بدرية أنه كان قد دبر انقلاباً فشلاً
صده. ثم ينشب اقتتل طائفي بين السنة والشيعة، فيستعل حرب الدوادار
- وفيه ابن الخليفة وولي عهده - الحادث ويقتحم ولي العهد حي الكرخ -
حيث يقيم شيعة بغداد - فيقوم بعمليات سلب ونهب وقتل بل وسبي للنساء،
فيسارع الوزير بالتدخل، ليس عن رد للمظلمة، بل عن انحياس مذهبي بحث
ويتحدث مؤرخو العصر الإسلامي عن «خيانة» ارتكبها الوزير الأول،
بمراسلة هولاكو - قائد جيش المغول بالشرق العربي وحاكم فارس وما
وراءها من قتل الخان الأعظم المغولي - وتحريضه على غزو بغداد وإسقاط

الخيانة. ولكنهم لا يقدمون دليلاً على تلك التهمة، بل يكتفون بتفسيرها بأنه «راضى»!

والحقيقة أن اتهام ابن العلقمي بالخيانة لا يحتاج إلى إضافة تهمة التحاير إلى قائمة جرائمه، فالواقع أن الخيانة جللت أفعال كل رجال الحكم ببغداد، فلو كانت أفعالهم تعد «حقائق» في زمن السلم فإنها في زمن الحرب تصنف كـ «حياة عظمى». فإثارة الاقتتال الأهلي لتصفية الحسابات حيانية، والاشتراك في قتال مذهبي حيانية، والانغماس في اللهو خيانة الواقع أن بغداد وحلافاتها لم تسقط بغزو من الخارج، بل إنها قد انتحرت بحجر الميوعة والأنانية.

بل إن ثمة واقعة مشينة تصرب بحذورها إلى عقود سلمت قبل المستعصم، حين قام حده الخليفة الناصر لدين الله بمراسلة جنكيز خان، يخرضه على مهاجمة الخوارزميين - الذين كانوا يحكمون فارس آنذاك - لرغبة الناصر في التخلص من سطوتهم، ولكن الخان لم يوافق على ذلك لأن علاقاته بالدولة الخوارزمية كانت - آنذاك - سلمية!

جدير بالذكر كذلك أن المستعصم كان له أخ معروف بالقوة والشجاعة وصلاته الشخصية والإقدام والحزم، وترشح أمره للخلافة، ولكن رجال الدولة أقصوه عن ذلك ورشحوا عوضاً عنه المستعصم، لإدراكهم أنه لين سهل الانقياد لأهوائهم. هذا في الوقت الذي كانت الدولة فيه تحتاج للحازم الصارم!

لم يكن ابن العلقمي إذن هو الخائن الوحيد، لكنه كان صاحب السبق في مفاصة الخيانة.

وما أهله شدة لاحتلال موقع الصدارة في ذلك، هو ما كان منه في شأن جيش الخليفة.

فالخليفة السابق - المستنصر عم المستعصم - كان قد استكثر من الحشد حتى بلغ قوام جيشه مئة وعشرين ألفاً منهم، تحسباً منه لأية مواجهة

محملة مع المغول، وكان في بعض الوقت يبادلهم ويرسل هولاء الهدايا والرسائل الودية، فلما تولى المستعصم الخلافة واستوزر ابن العلقمي، أقصه هذا الأخير بالتحفيف من نفقات الجيش وتقليل عدده، حتى انخفض إلى عشرة آلاف جندي فقط! بل وقُطِعَت نفقات كثير منهم، حتى صار من المألوف أن ترى جندياً يستجدي الناس في ساحات مساجد بغداد! هؤلاء إذن من كان يُنْتَظَر منهم أن يدفعوا العدو عن عاصمة الخلافة العريقة!



بدأ تحرش هولاء المستعصم بأن طلب منه إرسال قوة من جنود الخلافة، يمينون الجيش المعولي على القضاء على طائفة «الحشاشين» ببلاد فارس، فكان من الطبيعي أن يحجم المستعصم عن ذلك، لإدراكه أن هذا الطلب حيلة غرضها إفراغ بغداد من مدافعيها القلائل بعد أن انتهى هولاء من القضاء على الحشاشين، أرسل إلى الخليفة يتوعده لرفضه تعبد «أمره»، ويشرط عليه لانتفاء غصبه وعقابه أن يهدم حصونه، ويردم خنادق تحصيناته، ويسلم البلاد لابنه ثم يتوجه للمعول بين يديه أو يرسل بياضة عنه كلا من مجاهد الدين الدوادار، وسيدان شاه، وكان وزيراً ومنجماً.

وتكرر رفض المستعصم للطلب من قائد المغول، وأطلق الخليفة نداء استغاثة للحكام وملوك المسلمين، ولكنه لم يلق منهم ردّاً يشفي الغليل. فأيوبيو الشام مهملون في محاربة بعضهم من ناحية، ومحاربة مماليك مصر من ناحية أخرى، وهؤلاء الأتراك غارقون لأذنانهم في المؤامرات الداخلية، وسلاجقة الأناضول كانوا قد خضعوا للمغول والتزموا طاعتهم.

وأرسل المغول إندارهم الأخير قبل الغزو، فاقترح ابن العلقمي على الخليفة أن يرسل إلى هولاء الهدايا والتحف، وأن يعرض عليه أن يُدَكَّر

اسمه بعد الخليفة في الدعاء - كما كان الخلفاء العباسيون يفعلون مع السلاجقة والملوك المتسلطين عليهم - وأن يُكتب الاسم على العملة إلى جوار اسم المستعصم. ومال هذا الأخير لمقترح الوزير، لكنه عاد يرفضه بصفت من الدوادار الذي أصر على المقاومة.

في أثناء ذلك كان الجيش المغولي قد دخل إلى العراق، وتقدم نحو بغداد ليظهر في محيط أسوارها ويصرب عليها الحصار، في يناير ١٢٥٨م

كان الحصار محكمًا، حتى إن مما يُذكر أن سهام المول قد بلغت قصر الخلافة وعبر بعضها نوافذه، ليقتل جارية في أثناء رقصها للترفيه عن الخليفة!

ولإدراكه أن مريسته قد ارتفعت من منظر الكتل البشرية المعولية، الكثيفة المظمة ثقيلة العتاد، وهي تحكم حلقته حول بغداد، عاد هولاءكو يطلب إحراج مجاهد الدين الدويدار وسليمان شاه إليه وهذه المرة اضطر الخليفة للموافقة وأرسلها إليه، ليأمرهما القائد المغولي بإحصار رجالهما وأهلها من بغداد، لأنه قد قرر نصيهم جميعًا للشام ومصر. فخرج جند بغداد وأعوان الرجليين وتبعهم عدد من سكان المدينة وحرّح القائد المغولي من خيمته القيادية المصوبة شرق أسوار المدينة، وأشار إلى سليمان شاه ليتقدم إلى حصرته بقي هولاءكو يتأمل ملهًا ثم قال «أنت مجرم.. فكيف لم تتبأ بسوء مصيركم؟ ولم لم تصيح سيدك أن الخضوع لنا أسلم له؟» فأجاب سليمان: «كان مكود الطالع، ولم يكن يسمع من الناصحين له!»

مط هولاءكو شعته بغير اقتناع، ثم أولى أسير طهره، وهو يشير لجوده بذبحه ومعه مجاهد الدين الدويدار وسائر من خرجوا من بغداد.

ووقعت المذبحة، وأرسل هولاءكو الرؤوس إلى بدر الدين لؤلؤ، صاحب

الموصل الذي كان قد دخل في طاعته سلباً، وأمره برفعها على الأسوار، فتعد
لؤلؤ الأمر رغم قسوته على قلبه لكونه كان صديقاً لسليمان

أسقط في يد المستعصم، وهو يرى الخوارج تحوم على الخيف المطروحة
لجده ومنجمه ودواداره وأهاليهم خارج أسوار عاصمته. ولم تعد لديه من
حيلة سوى الترام نصيحة وزيره بتسليم المدينة لهولاكو بصمان أمانه وأهله،
وضمان أمن البعداديين. وأرسل الخليفة إلى قائد المغول بذلك، فوافق.

وبالمعل، في فبراير ١٢٥٨م، حرق الخليفة العباسي المستعصم بالله
يقدم خصومه وطاعته لهولاكو حان، قائد القوات المولوية العارية،
«إيدحان» (الوالي من قتل الخان الأعظم) فارس والعراق والأناضول
والشام، وما يُصم بعدها لدولة المغول وصولاً إلى بحر مصر، كما نص أمر
تعيينه من الخان الأعظم.

ودخل جند المغول إلى المدينة التي أباحها لهم قائدهم وعندئذ عرف
المستعصم قيمة وعد الأمان من المغول.
عرفه في أصوات الصراخ التي بلعته في محبسه بالمعسكر في تلك الرائحة
التي هي مزيج من احتراق الحجارة واللحم البشري وأوراق الكتب

عرفه وتيقن منه وهو يرى أهل بيته العباسي الهاشمي القرشي، أبناء
عمومة الرسول، سبل الخلفاء، يُذبحون أمام عينيه، ونساءهم يؤخذن
سبايا ويوزعن على القادة كل حسب رتبته ومكانه من الفائدة العام ثم وهو
يُجر ويُلقى أرضاً ليُلف بذلك البساط السميك عطر الرائحة، ثم يُدحرج
لتلقاه أرجل الجند بالركل العنيف، ليحس ويسمع عظام جسده تنسحق
تحت وطأة الأقدام الثقيلة حتى الموت.

فمعتقدات المغول تحظر عليهم إمالة دم ملك أو سلطان فوق الأرض



استباح الغزاة بعدد لمدة أسبوع وقد قرروا أن يجعلوا منها عبدة، فسووا بالأرض مساجدها وقصورها ودورها، وجعلوا الركاب طعمة للدار أعملوا السيوف في الناس حتى سالت المياريب بالدماء بقوا يعدمون أثناء البيت العباسي ورجال الدولة يومياً ينادون اسم الرجل فيودع أهله ويصطحبهم إلى دار الخلافة التي احتلها المغول، فيُدنح أمام أهل بيته ثم يفرق هؤلاء الأختارى على الخند كعائهم، بعد أن يعرضوا على القائد لاختيار من يحب امتلاك رقاسم منهم.

ثم أخيراً انتقلوا عنها بعد أن صابقتهم رائحة تعفن الخثا

وبعد رحيلهم بأيام، تسلل من بين الكُف والمقابر وحفر الصرف وتلال الجثث أشخاص تحسبهم إن رأيتهم موتى بُعثوا من القبور. هم الناحون من المذبحة، الذين كتب عليهم القدر أن يحمل كل منهم إلى آخر عمره ذكرى سقوط مدينة كانت يوماً تسمى «مدينة السلام»



دهليز ميدان قاهري

بعد مذبحة بغداد ١٢٥٨م، بقي كرسي الخلافة شاغراً حتى العام ١٢٦١م، عندما استنصر السلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس أحد النحسين من انبيت الحاكم العباسي، وأثبت سسه بحضرة الفقهاء والقضاة، ثم أعلن إحياء الخلافة العباسية وحل مقرها بالقاهرة، ثم حصل على تفويض من الخليفة بالسلطنة وحكم بلاد المسلمين «وما يُفتح على يديه» كانت المرحلة القاهرية من الخلافة العباسية، مجرد استمرار للخلافة الشكلية التي يجوز فيها الخليفة الاسم دون السلطة، فقط لإضفاء الشرعية على حكم سلاطين المماليك الذين تحكموا في تعيين وخلع الخلفاء، وبقيا يتأنى لمصالح هؤلاء السلاطين وأهوائهم.



المستنصر بالله الثاني.. الهارب من قدره إلى قدره

تقول القصة:

إن رجلاً قد دخل إلى النبي الملك سليمان بن داود مستجيلاً به، سأله الملك: «ومَن تستجير؟» فأجابه: «من الموت». فقد رأته منذ قليل يقف في مواجهتي وينظر لي كثيراً، فعرفت أنه قد جاء ليأخذني وروحي»
وكان الناس في هذا الزمان يرون مَلَك الموت يسير بينهم، فيدركون أن الله قد أمره بقبض روح.

قال سليمان: «وكيف أجبرك من مَلَك الموت؟»
- «بأن تأمر الريح فتحملني بعيداً، إلى جبل قاف، حيث لا يجديني!»

فأمر الملك الريح أن تسرع بحمل الرجل إلى جبل قاف، ثم خرج من قصره يبحث عن ملك الموت، فلما وجدته سأله: «لماذا كنت تنظر لهذا الرجل؟ أجئت لقبض روحه؟ لم أطلت له النظر إذن ولم تقبضه لساعته؟»
أجابه مدهوشاً: «بل كنت أظن أنه مستغرباً وجوده هنا»
- «ولم تستغرب ذلك؟»

فقال ملك الموت: «لأنني أمرتُ بالذهاب هذا المساء لجبل قاف كي أقبض روحه!»

هذه القصة تلخص ما جرى مع الخليفة العباسي الأول بالقاهرة، أبو القاسم أحمد المستنصر بالله الثاني (تميزاً له عن أخيه المستنصر الأول عم المستعصم) بن الطاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله.

فالمستنصر كان محبوباً في عهد ابن أخيه المستعصم، حتى إذا ما احتاج المغول بغداد ووصعوا السيف في أهلها سواء من عামتها أو الخاصة، استغل الفوضى وانعدام الحرس وفر بنفسه، حتى بلغ أراضي بعض الأعراب من قبيلة بني مهارش، فأجاروه وأحموا أمره، فلما هُرم جيش هولاكو - الذي كان يقوده مساعده كتبغا نوبين - في موقعة عين جالوت، واستقر الأمر للمماليك بمصر والشام، توجه هذا الناجي وبرفقته عشرة من مضيفيه إلى مصر.

صادف ظهور ناج من البيت العباسي رغبة بيرس في إضفاء شرعية دينية وسياسية على حكمه - وعلى الحكم المملوكي عامة - للقصاء على أية ادعاءات محتملة في الحق في الحكم، سواء من تقايا بني أيوب أو غيرهم فخرج السلطان لاستقبال المستنصر الذي دخل إلى القاهرة في ٧ يونيو ١٢٦١م، وفي استقباله السلطان الظاهر والقصاء ورجال الدولة، وعامة الشعب خرجوا للترحيب به وياتقال دار الخلافة إلى مصر.

بعدها بأيام، بويع بالخلافة وقد نُسب بحضرة القصاة والفقهاء، وعلى رأسهم قاضي القصاة تاج الدين ابن بنت الأعر وشيخ الإسلام العز بن عبد السلام.

ثم في الجمعة التالية خطب في الناس من فوق منبر جامع قلعة الجبل - مقر الحكم المملوكي - فذكر الله وصلى على النبي وترضى على الصحابة، ثم ذكر شرف بني العباس ودعا للسلطان والمسلمين.

بعدها جرت مراسم تفويض الخليفة السلطان بيرس للحكم، فألبسه بيده خُلعة خليفته (زي يخلعه الخليفة على السلطان ومعه عمامة وسلاح

رمزي وطوق للعنق)، وفوض له حكم بلاد المسلمين «وما يُفتح على يديه من بلاد الكفار».

ورتب السلطان للخليفة سكناً بالقلعة، ونعقة وخدمًا وقائمين بخدمته من حجابة وكتانة وأستادارية، كما رتب له الخيل والجمال والبغال لتنقلاته وهكذا انتقلت حال الرجل من حياة السجن ثم الفرار والاحتفاء، إلى الخلافة ورعد العيش. ولكن لم يطل به العمر ليتمتع بمكانته الجديدة.



بعد نحو سبعة أشهر من مبايعة المستنصر، قرر كل من السلطان والخليفة إرسال حملة إلى العراق لطرد المغول من بغداد، على أن يقوده الخليفة نفسه. ترامس هذا مع قرار بيبرس الخروج لردع حركة انفصالية بولاية حلب، فخرج ومعه المستنصر إلى الشام، ودخلا دمشق في موكب كبير، وقصبا بها عدة أيام، ثم حرح الخليفة إلى أرض العراق ومعه حملة عسكرية أنفق بيبرس على إعدادها نحو مليون دينار ذهبي.

والتقى المستنصر في مدينة «عانة» بأمر من بني عمومته له قصة مشابهة في النجاة من المغول، فقد فر من بغداد إلى عرب بني خفاجة وبقي في حمايتهم، ثم توجه إلى دمشق بعد طرد الجيش المعولي من الشام.

وتوجه العباسيون إلى بغداد ومعهم أباء صاحب الموصل، الذي خلف أناه الراحل لؤلؤ وخلع طاعة المغول وانحار للطاهر بيبرس والخليفة، وكذلك حاكما سنجار (مدينة في شمال العراق) والجزيرة الفراتية.

واستطاعت الحملة أن تحرر مدينة «حديثة» العراقية، ثم حررت مدينة «هيت»، وعند هذه المدينة وقعت المواجهة الحاسمة مع جمود المغول الذين يبدو أنهم كانوا متفوقين عددياً على حملة الخليفة، فسحقوها تماماً.

ولقي الخليفة حتمه تحت منابك خيل الجيش المعولي وبين ميوف فرسانه،

بينما استطاع ابن عمه سالف الذكر النجاة بنفسه، وعاد لعرب بني خفاجة حيث بقي في ضيافة أميرهم عيسى بن مها

في ذلك الوقت كان بيرس قد استطاع أن يحمّد الفتنة بالشام، وعاد إلى مصر ليبلغه خبر هزيمة الجند ومقتل الخليفة المستنصر بالله ونجاة قريبه، فأظهر الحزن للخبر، وبعث إلى الأمير عيسى أن يبعث له بأبن عمومة الخليفة المقتول ليخلفه.



يتهم البعض بيرس بتدبير مقتل المستنصر من خلال إرساله للتهلكة على رأس عدد قليل من الجند، ليخلص منه بعد أن نال عرصه من تعويض الخليفة له بالحكم.

ولكن هذا الاتهام يبدو هشاً جداً، لأن إعلان أمر جليل كإعادة الخلافة هو مما لا يُرجّح فيه، وما دام الخليفة قد مات فإن السلطان ملزم بمبايعة خلف له - وهو ما كان بالفعل - بالتالي فإن فكرة توظيف المستنصر لعرض ثم إراحته لا تبدو منطقية ثم إن بيرس كان لا بد يدرك واقع أن الخلفاء العباسيين قد صاروا ألعوبة السلاطين، فما الخطر الذي يمثلُه إذن المستنصر عليه؟



في كل الأحوال فإن نهاية المستنصر تبقى باعثة على التأمل، فالرجل أفلت من سيوف المعول في العراق وتقل بين السلاجقة حتى عاد للعراق، ليقتل بسيوف من كان قد فر من أمامهم. أي أنه كان كالهارب من قدره إلى قدره



مَخْرَجُ عِثْمَانِي

في الرابع والعشرين من أغسطس ١٥١٦م، تلقى الجيش المملوكي هزيمة الأخيرة في مَرَح دابق - قرب حلب - وتمزق بين قتل وحرى وأسرى كان من بينهم الخليفة العباسي الأخير «المنوكل على الله بن المستمك» (المتوكل الرابع)، وفي ٢٢ يناير ١٥١٧م هُزِمَت المقاومة المملوكية الأخيرة، التي قادها آخر سلاطين المماليك طومان باي الثاني، أمام جيش الغزاة العثمانيين في «الريدانية» قرب القاهرة، ودخل سليم الأول العثماني العاصمة المصرية معلناً سقوط الخلافة العباسية.

وَنُقِلَ الخليفة - الذي كان قد عاد إلى مصر مع السلطان العثماني بعد دخول هذا الأخير القاهرة - إلى إسطنبول حيث عومل باحترام وعاش في بلذخ وترف شديدتين، حتى أُنْهِمَ عند سليم الأول بأنه قد حمل معه من مصر مبالغ طائلة وثروات كبيرة، هي ما وضع يده عليها من تركات قتل الأمراء المماليك وأماناتهم، فغضب عليه السلطان وأُنْقَصَ من دخله ثم نهض سنة ١٥٢٠م إلى موقع محصن على مسافة من العاصمة خوفاً من هربه. ثم توفي السلطان سليم وخلفه ابنه سليمان القانوني، الذي سمح للخليفة بالرجوع للعيش بالقاهرة التي توفي بها عام ١٥٣٨م

ادعى البعض أن السلطان سليم كان قد حصل على تنازل من الخليفة عن منصب الخلافة، ولكن لم يوجد ما يثبت ذلك من مستندات أو وثائق.

فصلاً عن أن المؤرخ المصري ابن إياس والذي كان معاصراً لتلك الأحداث لم يذكره.

إضافة لذلك فإن سليم الأول كان من قبل دخوله مصر قد حطّ لنصه بالخلافة، وتلقب بـ «ظل الله على الأرض»، لكنه لم يتلق تبارلاً رسمياً عنها، ولم تذكر المصادر العثمانية نفسها ذلك إلا بعد عهده بسحو قريب ونصف، والمرجع أن انتشارها كان سببه ترير وصف السلطان العثماني عبد الحميد الأول نفسه في نص معاهدة «كوحك فاينارجه» مع روسيا بـ «دائي السلطانية الموسومة بالعدالة حليقة المسلمين وإمام الموحدين» ليتمكن من التحدث باسم المسلمين مع الجانب الروسي. ولكنه لم يحمل اللقب بشكل رسمي، بطبيعة الحال.

لم يحمل سلاطين بني عثمان لقب الخلافة رسمياً إلا في العام ١٨٧٦م عندما صدر الدستور العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦م - ١٩٠٩) والذي نص صراحةً أن عاصمة الدولة العثمانية هي «مقر الخلافة»، وأن السلطان هو «حامي الدين الإسلامي الذي يتمتع شخصه بحرمة مقدسة»! منذ ذلك الوقت أصبح السلطان العثماني هو «حليقة المسلمين»، وتعاقب على الخلافة بعد عبد الحميد الثاني كل من محمد رشاد الخامس، ثم محمد وحيد السادس، وأخيراً عبد المجيد الثاني، وسط سلسلة من الاضطرابات الداخلية واهرائم الخارجية، التي تابعت على الدولة التي بدا واصحاً أنها تشهد أيامها الأخيرة.

في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م قامت الجمعية الوطنية التركية بإعلان الجمهورية، وانتخاب مصطفى كمال - المعروف بأتاتورك / أبو الأتراك - رئيساً لها. كانت النية أولاً هي الإبقاء على نظام الخلافة - بشكل شرعي فيها يسو - ولكن ذلك كان يتعارض مع توجهات أتاتورك

لهذا ففي الثالث من مارس ١٩٢٤م، أعلن رسميًا انتهاء الخلافة بهاتين.



هذا يكون خيط دم الخلفاء قد انقطع وإن لم يقطع ما يشبهه في أذهان المشتغلين بالتاريخ من فصول وشغف للتنقيب عما وراء الأحداث والوقائع من أسرار، وما بين سطور مدوي تلك الأحداث من معومات على أية حال، فإن ما يعطي القراءة والبحث في التاريخ متعتها حقًا هو احتواؤه - التاريخ - على تلك الغوامص والألغاز المستفزة للعقول

- ثم بحمد الله تعالى -

الإسكندرية

الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ٢٠١٦م

.. أهم المصطلحات ذات الصلة:

- حليمي: نسبة إلى «الخليفة»، كما يقال «سلطاني» نسبة إلى السلطان و«مَلَكِي» نسبة إلى الملك، وهكذا...

- الدوادار. معها «حامل الدواة»، وهو القائم على سجلات ومراسلات ووثائق الخليفة، وإن كان صاحب هذا المنصب قد حاز في بعض العترات صلاحيات أوسع.

- الأستاذ دار هو القائم بدار الخليفة وتفقاته الشخصية ومستلزمات معيشته وراحته بكل تفاصيلها.

- الورير. هو منصب استحدثه العباسيون بتأثير من الثقافة الفارسية في الحكم.. وتنقسم الوزارة إلى «وزارة التنفيذ» - وشاغلها تقتصر صلاحياته على تنفيذ أوامر الخليفة - و«وزارة التفويض» - وشاغلها مفوض من الخليفة في إدارة شؤون وزارته.. وقد كان الوزراء تابعين للخلفاء حتى عهد المتوكل، ثم تسلطوا على الخلافة في منافسة على ذلك مع القادة الترك.

- ولي العهد: جرت العادة منذ العصر الأموي على اختيار الخليفة لبعض آل بيته - عائلًا من الأنساء أو الإخوة الذكور - وأخذ البيعة لهم ليحلوه بعد موته - وكان يمكن للخليفة أن يتخذ أكثر من ولي للعهد بالترتيب الذي كان غالبًا ما يخضع للأسقية العمرية.. وبينما اتخذ الأمويون والعباسيون أولياء العهد من الإخوة أحيانًا أو ربما قدموا الابن الأصغر على الأكبر أحيانًا أخرى، فإن الفاطميون قد التزموا - لأسباب مذهبية - أن تكون ولاية العهد في الذكر الأكبر للخليفة.

- الشيعة اللفظي «الأتباع» أو «المؤيدون» بالمعنى الدارج، أما مذهبياً فالشيعة هم من رأوا أن علي بن أبي طالب هو الأحق بالخلافة بعد وفاة الرسول محمد لعدة أسباب منها سابقته للإسلام، واتحاد محمد له وريثاً، وقرابته له، والقول المسبوق للنبي بأن علياً معه بمنزلة هارون من موسى وقد كان تشيعهم له أولاً سياسياً بحثاً ثم تحول إلى تشييع مذهبي في العصر الأموي خاصة بعد موقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي وبعض آل بيته.. واتخذ الشيعة من أبناء وأحفاد علي أئمة لهم فلهذا يقال «الإمامية» أو «الأئمة عشرية» لبعض فئات الشيعة لاعتقادهم في إمامة اثني عشر رجلاً من نسل علي بن أبي طالب.

- الشيعة الإسماعيلية (الراوية والمستعلية) بعد وفاة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، انقسم الشيعة فقال بعضهم بإمامة ابنه موسى الكاظم، وقال آخرون بإمامة ابنه إسماعيل، هؤلاء، لأحارى هم الشيعة الإسماعيلية، ومنهم الفاطميون وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر تدخل الورير الأفضل بن بدر الجهمالي لإقصاء ابنه الأكبر نزار والتخلص منه وتعيين الابن الأحدث سنّاً المستعلي، فانقسم الشيعة الإسماعيلية فنادى بعضهم بإمامة نزار فهم الراوية (ومنهم حالياً الأغاخانية) وقال آخرون بإمامة المستعلي فهم المستعلية ومنهم الفاطميون مد عهد المستعلي و حالياً منهم طائفة «البهرة»

- الحشاشون: هم من الشيعة الإسماعيلية الراوية، أسس حركتهم أحد دعاة الفاطميين في فارس والعراق وهو «الحسن بن الصباح»، ثم استقطب الأتباع من أهل القرى الجبلية الشيعية بشمال فارس واستطاع احتلال قلعة «آلموت» في تلك المنطقة واتخاذها مقراً له، وقام أنشائه بوضع أيديهم على عدد من القلاع والحبال ومارسوا فيها نشاطهم في الدعوة من ناحية

والاعتقال لخصومهم السياسيين والدبيين من ناحية أخرى. ويقال إن إطلاق اسم «الحشاشين» عليهم هو تعاطيهم بخدر الحشيش قبل تنفيذهم القتل، بينما يقال إن من أطلقه عليهم كان بعض فقهاء السنة الذي سحرهم قائلاً: «إيما تقولون ما يقول الحشاشون إذا عالت عقوهم» وقد سُموا كذلك «الباطنية» لاتباعهم قاعدة أن «لكل ظاهر باطن» ليبارسوا تأويل القرآن بما يناسب خططهم وأهدافهم

.. المداوية هم الخياح العسكري للحشاشين، فهم فتية أشداء مدربون على مدرسة الاعتيان، يختارهم «الإمام» أو «داته» من بين المتميزين «دشجاعة والإحلاص والذكاء من الأتباع وقد اشتهروا بالعداة النعماء لقادتهم وتفايهم في تنفيذ الأوامر، وعدم اكترائهم للموت في سبيل ذلك، فضلاً عن براعتهم في التخطيط والتنفيذ للمهام، حتى اشتهرت حركة الحشاشين بهم إلى حد أن الأوروبيين خلال فترة الحروب الصليبية قد عرفوهم وحرفوا لفظ «حشاشين» إلى Assassin بمعنى «من يبارس القتل اعتيالاً» لتدخل الكلمة مشتقاتها إلى مختلف اللغات الأوروبية

.. «الرريد» في العصر الإسلامي لم يقتصر الرريد على «المراسلات» بمعناها الحالي، فديوان الرريد كانت قد أوكلت له عدة مهام بعضها مدني تحت كالمراسلات العادية، وبعضها إداري أو رقابي كإبلاغ الأوامر الرسمية وتلقي التقارير عن أعمال الولاية والقادة. وبعضها حربي كمراسلات الجيش مع العاصمة أو مراسلات أفرعه مع بعضها البعض، وهو ما يشبه «سلاح الإشارة» حالياً، والبعض الآخر منها كان استخباراتي، كالتحارب مع العملاء والخواصيس في أرض العدو أو تلقي تقارير «عيون» الدولة لدى الدول الأخرى.

- التُّرك هم عرق من أصول وسط آسيوية، تنقل عبر العصور حتى بلغ
عرب آسيا وأقام بها ممالك ودول اصطدمت مع العرب الفاتحين في العصر
الأموي. ثم تتابع دخول الترك في الإسلام حتى إن الناس قد أطلقوا على
بعضهم «ترك إيمان» التي خُفِّت لـ «تركمان»...

ولتميزهم بالقوة والشجاعة وخفة الحركة، اتخذ الخلفاء العباسيون منهم
ممالك مسلحين، وشكلوا منهم كتائب وجيوشًا، خاصة في عهد المعتصم
بالله. ثم ارتفع شأن هؤلاء المقاتلين التُّرك حتى أصبح قدوتهم متسلطين
على الخلفاء وحاجرين عليهم.

ومن هذا العرق جاء مؤسسو الدول «التركية» مثل دولة السلاجقة
في فارس والشام والعراق والأناضول، ودولة المماليك البحرية في مصر
والشام، والدولة العثمانية في آسيا الوسطى وأوروبا ثم الشام وسائر المنطقة
العربية بعدها، وغيرها...

- العراقيان هما «عراق العرب» وهو العراق المعروف حاليًا، و«عراق
العجم» وهو أذربيجان وبعض المناطق المحلية، مثل قزوین وأصفهان والري
وكرمانشاه بإيران حاليًا.

- السلطان: هو أعلى لقب ملكي يمنحه الخليفة لحاكم، وفي الأصل إن
السلطان هو من يتبعه عدد من الملوك، وقد حوت العدة ألا يكون للمسلمين
سوى سلطان واحد، ولكن تمزق الدول وتصارع أباء الأسر الحاكمة قد
أفقد اللقب قيمته، لكثرة تداوله والتسمي به.

- الأتابك: معناها لغة «أبر الأمراء» أو «أبو الأمير»، وكانت في الأصل
لقبًا لبعض العسكريين من التُّرك السلاجقة، ممن يتخذ السلطان بعضهم
مربيًا لولي عهده ومعينًا له في الحكم إذا ما ورثه قبل سن الرشد وكان

للأتابكة إقطاعات وولايات، فمع الوقت استقل بعضهم بما في يده ونسلط البعض الآخر على أولياء العهود، فأقاموا لأنفسهم دولاً أشهرها الدولة الزنكية في حلب والموصل.. وفي العصر المملوكي صارت كلمة «أتابك» رتبة عسكرية «أتابك العسكر»، وهو القائد العام الميداني للجيش أو ما يعادل حالياً «رئيس هيئة الأركان».

- الشحنة: هو لقب لوظيفة استحدثها السلاجقة، وهو قائد الحامية العسكرية المقيمة عالياً بعدد لصما، سيطرة السلطان السلجوقي على الخليفة وأعمال الخلافة. ثم أصبح الشحنة هو قائد الحامية العسكرية والشرطية أما كان محل عمله الذي يُسمّى رسمياً «الشحكية»

المراجع

- ١ - اتعاظ الختفا في معرفة الخلفاء: المقريري
- ٢ - محمد رسول الله والدين معه. عبد الحميد حودة السحر
- ٣ - تاريخ الخلفاء الراشدين د. محمد سهيل طقوش
- ٤ - تاريخ الدولة الأموية د. محمد سهيل طقوش
- ٥ - تاريخ الدولة العباسية د. محمد سهيل طقوش
- ٦ - تاريخ الفاطميين د. محمد سهيل طقوش
- ٧ - تاريخ المستمير في الأندلس د. محمد سهيل طقوش
- ٨ - تاريخ السلاجقة د. محمد سهيل طقوش
- ٩ - تاريخ الريح والقراطة والحشاشين د. محمد سهيل طقوش
- ١٠ - تاريخ المذاهب الإسلامية الإمام محمد أبو رهرة
- ١١ - المرق والحماعات الدبية في الوطن العربي د. سعيد مراد
- ١٢ - الفتوح الإسلامية هيو كينيدي
- ١٣ - عصر سلاطين المماليك د. قاسم عبده قاسم
- ١٤ - الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي مجموعة باحثين - جامعة كامبردج
- ١٥ - السلاجقة د. محمد عبد العظيم أبو النصر
- ١٦ - تاريخ فاتح العالم: عطا ملك الحويي
- ١٧ - فرسان الإسلام وحروب المماليك. جيمس واترسون
- ١٨ - بلاط الخلفاء: هيو كينيدي
- ١٩ - العثمانيون د. محمد سهيل طقوش
- ٢٠ - تاريخ الأمم والملوك الطبري
- ٢١ - الكامل في التاريخ: ابن الأثير
- ٢٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير
- ٢٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور. ابن إلياس

- ٢٤ - البداية والنهاية ابن كثير
- ٢٥ - كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ
- ٢٦ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تعري بردي
- ٢٧ - تاريخ الخلفاء: السيوطي
- ٢٨ - حسن المحاصرة في ملوك مصر والقاهرة: السيوطي
- ٢٩ - مروج الذهب ومعادن الجواهر: المسعودي
- ٣٠ - السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريري
- ٣١ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريري
- ٣٢ - المقدمة: ابن خلدون
- ٣٣ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ابن خلدون
- ٣٤ - الأحكام السلطانية وأنوالات النسيب: الموردي
- ٣٥ - مسلمون ثوار: د. محمد حمارة
- ٣٦ - مصر المملوكية: د. هاني حمرة
- ٣٧ - الحشيشية: برنارد لويس
- ٣٨ - موسوعة الحروب الصليبية د. سهيل ركار
- ٣٩ - الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة في زمن الحروب الصليبية د. محمد عبدالله المقدم
- ٤٠ - دولة الإسلام في الأندلس محمد عبد الله عنان
- ٤١ - معجم البلدان: ياقوت الحموي
- ٤٢ - لجلس السدسية في الأحبار والآثار الأندلسية الأمير شكيب أرسلان
- ٤٣ - نقط العروس في تاريخ الخنداء ابن حزم الأندلسي
- ٤٤ - تاريخ الدولة العلوية العثمانية محمد فريد بك
- ٤٥ - تاريخ قریش: د. حسين مؤنس
- ٤٦ - عبقرية الصديق عباس محمود العقاد
- ٤٧ - عبقرية عمر: عباس محمود العقاد
- ٤٨ - عبقرية عثمان: عباس محمود العقاد
- ٤٩ - عبقرية الإمام: عباس محمود العقاد

- ٥٠- معاوية بن أبي سفيان: عباس محمود العقاد
- ٥١- أهل بيت النبي: عبد الحميد جودة السحار
- ٥٢- أبناء أبي بكر الصديق: عبد الحميد جودة السحار
- ٥٣- موسوعة عظماء حول الرسول: خالد عبد الرحمن العك
- ٥٤- تيارات الفكر الإسلامي: د. محمد عمارة
- ٥٥- حقائق الأحزان.. إيران وولاية الفقيه: د. مصطفى اللباد
- ٥٦- الفاطمية دولة التناريع والتباريع: جمال بدوي
- ٥٧- الطغاة والبنغة: جمال بدوي
- ٥٨- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
- ٥٩- شمس العرب تسطع على الغرب: زيجريد هونكه
- ٦٠- رجال حول الرسول: خالد محمد خالد
- ٦١- خلفاء الرسول: خالد محمد خالد
- ٦٢- الاغتيال السياسي في الإسلام: هادي العلوي
- ٦٣- تاريخ مصر في العصور الوسطى: ستانلي لين بول
- ٦٤- الفتنة الكبرى: د. طه حسين
- ٦٥- حضارة العرب: جوستاف لويون
- ٦٦- أشهر الاغتيالات في الإسلام: خالد السعيد
- ٦٧- ملامح تاريخ المغرب والأندلس: د. حسين مؤنس
- ٦٨- أطلس الفرق والمذاهب الإسلامية: د. شوقي أبو خليل
- ٦٩- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس

المحتويات

٧	مُبْتَدَأ.....
١٣	مُدْخَل راشدي.....
١٥	أبو بكر بن أبي قحافة: هل اغتيل أول الخلفاء؟.....
٣١	عمر بن الخطاب: ضحية أول جريمة عنصرية في تاريخ الإسلام... ..
٤٧	عثمان بن عفان: أول خليفة ظالم أم أول مظلوم؟.....
٦٥	علي بن أبي طالب: قتيل وَحْشة الطريق.....
٧٣	الحسين بن علي: من قتل آخر الراشدين.....
٨٩	بَهو أموي.....
	معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (معاوية الثاني): سحابة
٩١	صيف عابرة بساء بني أمية.....
٩٧	مروان بن الحكم: نهاية عبثية لرجل مغامر.....
١٠٣	شباك على مشهد مَكِّي.....
١٠٣	عبد الله بن الزبير: ويل للناس منك. وويل لك من الناس.....
١٠٩	عمر بن عبد العزيز: حلم كان أجمل من أن يتحقق.....
١١٩	الوليد بن يزيد: الخليفة المنحل!.....
١٢٧	مروان بن محمد: لسان الخليفة في فم هر!.....
١٣٣	وهليز إلى ساحة أندلسية.....
١٣٥	هشام المؤيد بالله: الخليفة الذي مات ثلاث مرات!.....
١٤٥	إيوان صباي.....
١٤٧	موسى الهادي: هل قتلت أم الخليفة ابنها؟!.....
١٥٣	محمد الأمين: خليفة قتله غدره.....
١٦٣	جملة اعتراضية.....
١٦٥	التوكل والمتنصر: قتيلًا الحماقة.....

المستعين. المعتز. المهتدي. المقتدر. المسترشد. الراشد. المستنجد..	
بيادق القادة والحكام	١٧٧
شباك جانبي مُطِل على ثلاثة مشاهد فاطمية دامية	١٩٧
عودة لمشهد عباسي أخير	٢١٧
المستعصم بالله: خليفة نهاية الزمان	٢١٩
دهليز لميدان قاهري	٢٢٧
المستنصر بالله الثاني: الهارب من قدره إلى قدره	٢٢٩
مُخْرَج عثماني	٢٣٣
المصطلحات	٢٣٧
المراجع	٢٤٢

دَمُ الْخُلَفَاءِ

من بين أكثر من ١٠٠ خليفة، منذ ميلاد نظام الخلافة، قُربَعوا على كراسي الحكم في ٥ دول: انتهت عهود نحو ٢٥ منهم بالقتل.

قُضي كلُّ منهم إما اغتيالاً على حين غرة، أو قتلاً في معركة دفاع ضد متمردين، أو إعداماً بعد هزيمة من منازع.

وأغلبهم بقي سر مقتله لغزاً حتى يومنا هذا.

بعضهم اشتهر اسمه في كتب التاريخ، لكن أكثرهم لم يسجل نفس النصيب من الشهرة.

فعن هؤلاء الذين بايعوا مصارعهم يوم يؤيعوا بالخلافة، عن الذين حين رفعوا إلى كراسي الحكم، كانوا كأنما يرفعون إلى تنابيتهم، عن دم الخلفاء، نتحدث.

وليد فكري، باحث حر في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية منذ عام ٢٠٠٩، ويكتب في عدد من المواقع الصحفية العربية، وله فيها عدد كبير من المقالات في تخصصه. صدر له كتاب "تاريخ شكل ثاني" عام ٢٠١٠، "تاريخ في القتل" عام ٢٠١٢، "مصر المجهولة" عام ٢٠١٥، و"دم المالك" عام ٢٠١٦.



الشيخ محمد صالح المنجد